رحلة بني هلال إلى الغرب وخصائصها التّاريخية الاجتماعية والاقتصادية

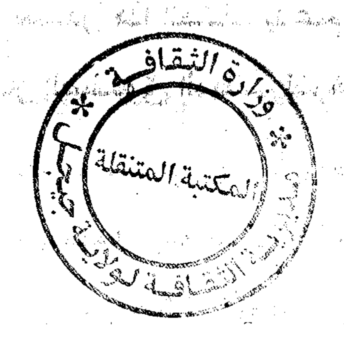
الجزء الأوّل





الدكتور عبد الحميد بوسماحة

رحلة بني هلال وخصائصها التاريخية والإجتماعية والإقتصادية



الدكتور : عبد الحميد بوسماحة

صــدر هذا الكتــاب بدعــم مـن وزارة الثـقـافـة عام 2008
في إطـار الصنـدوق الوطنـي لتـرقيـة الفنـون والآداب .

مقدمة:

تحديد المفاهيم

إن موضوع التاريخ في التغريبة محصور في ماضي الهلاليين الذي يرد في مستويات مختلفة، وكل مستوى توافقه مجموعة خاصة من الساردين أو المؤلفين.

1- مستوى التاريخ المعاد بناؤه Le Niveau de l'histoire reconstruite

ينضم هذا المستوى إلى ميدان المؤرخ ويتمثل موضوعه في إعادة البناء العلمي للأحداث والتطورات وأسبابها. ويمكن تحديد هذه الأسباب في القرارات أو أفعال الأشخاص المباشرة أو في البنيات الاجتماعية والمادية التي صنعها الإنسان. ولا تتدخل الطبيعة والمحيط الخارجي إلا بصفتهما إطارين للنشاط البشري. ولا يعد الدين والأسلاف والآلهة والأرواح والممارسات السحرية عوامل نشيطة بالنسبة للمؤرخ إلا بالمعنى غير المباشر وذلك من خلال التأثير عل الشخصية أو فكرها.

وليست هذه العوامل فاعلة ومباشرة ومستقلة. ويستخدم المؤرخ في سبيل إنجاز هذا العمل وسيلة إعادة البناء الدقيق للواقع والأحداث والشخصيات الحقيقية بتتابعها وتسلسلها الزمني. ويستمد المؤرخ أخباره ومعلوماته من مصادر صحيحة

وموثوق بها، الوثائق المدونة، القوانين، المراسيم، القرارات، الخطابات، الإحصاءات، الشهادات المتنوعة، المواد الأثرية، الأعمال الفنية، العقائد، الإيديولوجيات. إن الواقع الذي يسعى المؤرخ إلى إعادة بنائه متكون من المجتمع البشري المحسوس وأعضائه الحيين ونشاطاتهم وأفكارهم وأعمالهم المادية والفنية وبنياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والقانونية والأخلاقية إلى جانب الطبيعة وقوانينها.[1] إن التاريخ المعاد بناؤه لا يعتمد على سرد الأحداث كما هي بل يبحث في الماضي لاكتشاف القوانين وتفسيرها وهو بهذا المعنى يتطلب الموضوعية. إنه يفصل بين الأسباب الحتمية والأسباب العفوية غير الهامة. إن العوامل الشخصية لها تأثير على الأحداث ولكن المؤرخ لا يعتبرها أساسية. وليست هناك حاجة للإبداع أو الخيال الواسع من جانب المؤرخ إذ يقتصر على خيال متواضع مشابه للخيال المطلوب في أدنى أنواع الشعر. وقد حاول المؤرخ أن يدرس المجتمع البشري بطريقة أخرى، فظهر التاريخ الاجتماعي الذي يتعلق بدراسة الحركات الاجتماعية التي تتمثل في أعمال الناس وتصرفاتهم.

[1] - **Léonhard harding Griot et écrivains entre mythe et histoire .plaidoyer pour une nouvelle historiographie africaine .actes du colloque international sur l'oralité africaine.tome 1 1989 page 79**

ورغم أن التاريخ بهذا المفهوم توصل إلى نتائج مثيرة للغاية ومع ذلك كثيرا ما وصف الحياة اليومية وصفا سطحيا واعتمد على تسجيلات جافة. ورغم أن مشكلة صانع التاريخ محسومة إذ هم الأشخاص الذي يعيشون مجتمعين في تعاون بما فيهم رجال الدولة والأبطال والعباقرة والناس البسطاء، إلا أنه ليس من السهل تحديد الجوانب التي يجب على التاريخ أن يهتم بها في الحياة. إن التاريخ المعاد بناؤه يحاول أن يفهم مجتمعات الماضي من خلال الثقافة المكتوبة. إلا أن هذه المجتمعات كانت تضم نسبة عالية من الأمية. وإذا كان هدف التاريخ هو اكتشاف أسباب الأحداث وعوامل ارتباطها ببعض فإن طبيعتها تثير خلافا عميقا بين المؤرخين. إن محاولات شرح التاريخ على أنه نتيجة تأثيرعامل واحد مسيطر ليست لها مبرر صحيح ولكن يوجد علم التشكل التاريخي الذي يبحث عن القوانين العامة التي تتكرر لدورات دائمة التردد والتي لا تؤدي معرفتها فقط إلى معرفة الماضي ولكن إلى التنبؤ بالمستقبل. إن المؤرخ لا يستطيع أن يدعي شرح مجموعة من معطيات الماضي ولذلك يجد نفسه مجبرا على الاختيار بين عدد منها التي رتبها لنفسه وتبدو مناسبة لشرح المشكلات الأساسية وتفسيرها. إن مبدأ الاختيار ينطوي على خطورة لأنه يؤدي إلى

تغيير الحقيقة. ويستخدم التاريخ المعاد بناؤه معطيات حصل عليها من البيانات والإحصاءات ليحلل العلاقات المعقدة بين عدد السكان وتطور المجتمع.[1] وقد تناول التاريخ في التغريبة الهلاليين ودرس معطيات وجودهم من حيث زيادة أو نقص عددهم وتوزيعهم على سطح الأرض وحدد مواضع تمركزهم والأسباب التي جعلتهم يغادرون بلادهم الأصلية ليقيموا في إفريقيا الشمالية. وليس المجتمع البشري للتاريخ مجرد تجمعات أفراد بل يعتبر اختلافهم في تقسيم العمل والوظائف التي يقومون بها والتصنيف الاجتماعي جوهر تطورهم. ويتوصل إلى فهم تطور المجتمع باستيعاب المجابهات التي تحدث بين مختلف الطبقات والقواعد التي تحددها تبعا لأوضاعها. ومن خلال كل ما قيل يمكن القول إن التاريخ المعاد بناؤه ليس مجرد تجميع لأنظمة بمختلف أنواعها بقدر ما هو التعبير عن العلاقات المتبادلة فيما بينها.

[1] - روبرت لافون جرامون:التاريخ ترجمة نادية القباني دار النشر سلفات ص39.21. 74

2- مستوى التاريخ المعيش Le niveau de l'histoire vécue

يسعى التاريخ المعيش إلى تحقيق أغراض أخرى. إنه يرمي إلى معرفة الواقع من زاوية مختلفة، إن الأمر لا يتعلق هنا بإعادة بناء الواقع بطريقة منظمة ومنهجية بل المقصود هو التاريخ المعيش، الأحداث والانطباعات كما هي راسخة في ذاكرة الناس وألفت وعيا جماعيا، الانطباعات ذات الأهمية البالغة المرتبطة بعصر أو حدث محدد، الانجازات الكبرى، الأوجاع والمكابدات والأحزان والأفراح والتحولات والتغيرات والنزاعات والانقلابات التي طبعت العصر.[1] ويقوم بهذا العمل شخصان: الراوي (المداح في الجزائر) والمؤلف. يعتبر الراوي الخارجي محافظا للتقاليد والعادات والمعتقدات والفنون الشفاهية. فهو يقدم الشخصيات الحقيقية المعروفة بأسمائها، يحصر الأحداث في الزمان والمكان. إن هدف الراوي في التغريبة متمثل في تقديم نظرة نوعية عن ماضي الهلاليين، نظرة القبيلة الأم التي ينتسب إليها أو يعتبر نفسه شريكا متضمنا معها. إن الأمر إذن متعلق بشرح الماضي الذي صنعته جماعة محددة. ويعبر عن وعيها الجماعي بالماضي الذي يتيح تدعيم هويتها.

[1] - Léonhard harding page 79 . 80

ويتضمن وعيها الجماعي تاريخ الأحداث ولا سيما وقائع أبطالها إلى جانب الشرح الممجد لهذا الماضي. ويعتمد الراوي على وسائل العرض تعد تركيبا من الحكايات التاريخية الحقيقية القائمة على وقائع حفظها شهود على ظهر قلب ونقلها الراوي جيلا بعد جيل، ومن وسائل أدبية مدحية وإطرائية Moyens littéraires panégyriques المخصصة لتوضيح الطابع الخارق للشخصية المنشودة وأعمالها الباهرة، ويمكن أن تشتمل هذه الوسائل على العناصر الخرافية والخيالية التي ما هي سوى أشكال مقولبة Formes Stéréotypes وسلوكات مكررة (تعوزها الصفات الفردية) من المدح والسمو والعجيب معروفة ومفهومة كما هي في المجتمع الخاص بها. ورغم أن الناس يعرفون أن الراوي يستخدم وسائل أسلوبية مستعارة من الحكايات على لسان الحيوان فإنهم مع ذلك يبتهجون بهذه الصيغ لأنها تعبر عن ماضيهم المجيد والفخور وتؤلف أساس هويتهم الجماعية. إن الواقع الذي يتبصر الراوي فيه يتجاوز واقع المؤرخ إذ أنه يتكون من الواقع التاريخي ولكنه يتضمن زيادة على ذلك، أو يؤكد بشدة على عناصر لا يستطيع المؤرخ أن ينكرها من الناحية المبدئية ولكنه لا يعير اهتماما جازما بها، ويميل إلى الحط من قيمتها وجعلها

سخرة. ويتألف واقع الراوي من اليقين أن المجتمع يشتمل على العناصر الحية والميتة والتي لم توجد بعد. كما يتكون من الطبيعة المنتعشة والنشيطة وتدخل القوى الخفية النشيط والمحسوس والمستمر في حياة البشر كالأسلاف والأرواح والآلهة والشياطين والملائكة والجان. وقد تستخدم الطقوس الدينية أو السحر هذا التدخل من أجل تحقيق غاية محددة.

أما المؤلف فإنه يسعى من جهته إلى تحقيق هدف مخالف وذلك باستخدام وسائل أخرى، فهو يريد كذلك تقديم التاريخ أو قسم منه كما مارسه الناس وعاشوه وتحملوه وتكبدوه شخصيا، وهي المهمة التي يعجز المؤرخ عن أدائها. إن المؤرخ يستطيع أن يدرك الهوة التي تفصل في التغريبة بين دياب بن الزغبي من جهة وبين حسن بن سرحان والجازية وأبي زيد من جهة أخرى ولكنه لا يستطيع أبدا أن يقيس شعور دياب بالاهانة والاحتقار لما كلفه شيخ القبيلة يرعى الغنم والإبل كما يعجز المؤرخ أن يفهم تواطئ سعدة المقصود مع الهلاليين الذين احتلوا بلدها وإصرارها على قتل والدها خليفة الزناتي على يد أحد أبطالهم. ومن الصعب على المؤرخ أن يقدر شعور سعدة بالإهانة والمذلة بعد أن سخرها دياب

لخدمته تطحن الملح وتنقل الحطب والياه وهي أميرة زناتية تجالس الشعراء والملوك وذكرها شائع في كل مكان.

يتعلق الأمر إذن بترجمة جزء من الحياة وإعادة إنتاجه. إن التاريخ اليومي هو المقصود في عمل المؤلف، إلا أن هناك عاملين يميزان المؤلف عن الراوي الخارجي. إن المؤلف ليس ناطقا بلسان الجماعة أو القبيلة وليس منشد الثناء والمدح. ويعتبر نفسه أنه يمثل المجتمع بأسره أو بعض أجزائه المتضررة. ولا يريد أن يعيد بناء الماضي التاريخي بل يرغب بدلا من ذلك في أن يبعث بعض انطباعات الماضي الكبرى إلى الحياة من خلال الأحداث المنتقاة والشخصيات والجهات والمواضع والتسلسلات الزمنية والتفصيلات الخيالية والوهمية المبالغة ولكنها صائبة ومبنية ومرتبة ومنسقة وذلك من أجل صناعة الكل الحي والمؤثر. إن واقع المؤلف متشابه على حد كبير مع واقع الراوي إلا أنه لا ينطوي على إعادة البناء الدقيق للأحداث التاريخية بل يتألف كما هو عند الراوي من كل العناصر التي تمارس تأثيرا في حياة المجتمع سواءا كانت مرئية أم خفية. إن الوصف الأدبي للماضي وهو عمل الترابط والتوافق والتفاعل بين تدخلات هذه القوى ونشاطات البشر وقراراتهم يمثل مهمة المؤلف الأساسية

وموهبته الخاصة.[1] إن المؤلف الشعبي وهو يعيد إنتاج تاريخ التغريبة ووقائعها لم يهتم كثيرا بأحداثها المرصودة وأمكنتها المخصوصة وشخوصها الحقيقيين والتتابع الزمني في سياقه الفعلي وإنما استوحى ذلك كله من صياغة الوقائع واستلهام الأحداث دون أن يحده التاريخ أو يوقفه الإسناد. فما يثير انتباهه هو روح التاريخ وجوهره وفلسفته. إن التغريبة بالنسبة للمؤلف تعكس رغبة في الحلم بالنصر، وهو ما يتضح من كل السير الشعبية وضمنها التغريبة كحلقة من حلقات السيرة الهلالية.

إن التاريخ المعيش إذن يهتم بسرد قصص الحياة والسير التي تتحدث عن الأحداث الرائعة وبجوانبها النفسية. وقد استطاع أن يعرف بالأسباب والأساليب التي تخلص الهلاليون بها من التهديد المزدوج للجفاف والمجاعة بدلا من الحديث عن حياة أبطالهم.

[1] - **Léonhard harding page 79.80**

3- مستوى التفسير الأسطوري Le niveau de 'explication mythique

ليست الأسطورة تركيبا من القصص الجامدة بقدر ما هي متغيرة على الدوام بسبب تناقلها وتوارثها عبر الزمن. إن رواة الأسطورة الناطقين بلسان قومهم ليسوا أصواتا عقيمة لأنهم يضمنون تجددا مستمرا، كما أن سرد الأسطورة يدل على المشاركة في إعادة إنتاجها وإدخال نوع من الفرق والاختلاف. ويعتبر إنتاج القصص الأسطورية سبيلا للاقتراب من الحقيقة، ولكن الأسطورة لا تعيد بناء الماضي بقدر ما ترمي إلى شرح بعض مظاهر الواقع الملغزة والمتعذرة على الفهم مثل أصل جماعة بشرية أو أصل الظواهر الطبيعية أو أصل نظام المجتمع الأخلاقي والاجتماعي. إن الأسطورة تصوير أو تمثيل لأصل الكون وخلق لأنواع البشر وهي تبرز إلى الوجود من جراء تأمل العقلاء المحليين والحكايات المجزأة Récits fragmentaires الموجودة أو المستعارة من المجتمعات المجاورة أو من الحكايات المتحجرة Récits fossilisés. ورغم هذا الطابع الفاقد لحس التاريخ فالأسطورة جزء مكمل لعدد من التقاليد الشفاهية الراغبة في عرض تاريخ جماعتها البشرية إلى أبعد من الأزمنة والأحداث المشهودة

مباشرة. إن كل الشعوب تعرف الأسطورة وتتوارثها لتقديم عرض عن أصلها وخصوصيتها وتدعيم هويتها الخاصة. وتتمثل أدوات الأسطورة الأدبية في الصور والحكايات الرمزية المتكونة من تجسيدات الطبيعة وتشخيصاتها ومن الشمس والقمر والماء والريح والنار والحيوانات المتنوعة والصيغ المقولبة الأخرى المستمدة من كنز الشعب الثقافي وخياله الواسع. إن الواقع الموصوف في الأسطورة يختلف عن ذلك الذي يتناوله المؤرخ وليس متشابها كذلك مع واقع الراوي أو المؤلف. إن واقع الأسطورة يتجاوزهم جميعا باللجوء المقصود إلى العناصر ذات الشروحات الفلسفية. إن التراث الشفاهي والأسطورة يشتركان في تقوية الوعي والهوية الجماعيين بالرجوع إلى الماضي التاريخي أو الماضي الأسطوري.[1] وينبغي أن نلاحظ هنا أن الاسطورة في التغريبة لا تتحدد باعتبارها نوعا أدبيا بقدر ما تشير إلى مجموعة من المفاهيم الثقافية مثل الطبيعة العنيدة، الرحيل إلى الغرب، أرض الميعاد، الطبيعة الكريمة، الإبادة الرمزية، وعلى سبيل المثال اختار المؤلف إسم التغريبة حين سجل هذه الرحلة كعلامة واسمة لنصه، لأنها

[1] -**Léonhard harding page 81.82**

رحلة تجاه الغرب وغربة عن الوطن وغرابة للأهوال التي كابدها الهلاليون في طريقهم إلى تونس.

4- تحديد مفهوم الواقع La conception de la réalité

إن تحديد مفهوم الواقع مشكلة معقدة وذلك نظرا للعناصر المؤلفة للواقع المتعددة، ليس الواقع أمرا متشابها بالنسبة للناس جميعا، إنهم لا يدركون العالم الخارجي بعين او إحساس واحد وبطريقة مماثلة، هناك الواقع المحسوس La réalité concrète. المحصور في دائرة أمور المعاش. يكرس الإنسان العادي نفسه لها وينغمس فيها حيث لا تدع الحياة اليومية له فرصة التفكير، إن الإنسان العادي يؤمن بواقعه البسيط ويتفاني من أجل حل مشاكله المتعددة. إن إدراك الإنسان العادي للواقع عفوي وآلي وهو يتصوره ليس باعتباره مستقلا عنه بل يرجع إلى أنه يتعذر عليه أن يفصل بين نفسه وبين الواقع.

وهناك الواقع الميتافيزيقي La réalité métaphysique الذي يعبر عن حضور المطلق وقيامه في أجزاء الكون وأفعال الإنسان الذي يحيل بدوره كل ما يطرأ على الواقع من تغير وصيرورة إلى هذا المطلق. وهناك الواقع التاريخي La réalité historique وهو الذي تجري حوادث البشر فيه ومعرفتهم

بالماضي سواء أكانت هذه الحوادث حقيقية أو خيالية، مرئية أو مجهولة. ويطرح الواقع التاريخي بدوره مشكلات عويصة، إنه من الصعب مثلا حصر الواقع في كل ما جرى من أحداث في زمن محدد من التاريخ. إن العناصر الموصوفة في التاريخ المعيش تعبر عن وعي الجماعة وتعد جزءا من واقعها رغم أنه لم تجر معا في المكان والزمان نفسهما ولم تتضمن الشخصيات ذاتها. إنه من الممكن ألا تحدث الوقائع أبدا ومع ذلك يتطابق اكتشافها الأدبي والتعبير عنها بالشعر مع الواقع بصورة أفضل وكذلك مع الوعي ومع تفسير الجماعة لماضيها المحسوس. وبعبارة أخرى إن المؤلف يستطيع أن يرسم بواسطة الشخصيات والأحداث الخيالية لوحة حقيقية أو تاريخا معيشا يقدم للمعاصرين تفسيرا رائعا لما عاشوه. ويتضمن مستوى التاريخ المعيش عناصر أخرى أيضا وهي الأفكار والعقائد الشائعة والمعتقدات والطقوس الدينية والممارسات السحرية وقدرات بعض الأشخاص السحرية وأفعالهم. إن كل هذه العناصر يمكن لها أن تمارس تأثيرا بالغا وحاسما في الحياة إلى حد أنها تمثل السبب الجازم للقرارات والأفعال المحددة، ولذلك يمكن اعتبارها جزءا من الواقع رغم صعوبة حصرها في موضع ووصفها وتقدير أهميتها الصحيحة. ورغم أن رسالة الأسطورة

مجردة من الخاصية التاريخية فإنه من الصعب استبعادها عن تجربة الشعب وهويته. إن إيمان الشعب عميق بالأولياء الصالحين والجان والشياطين والملائكة وبالأرواح الساكنة في بعض البيوت أو بالأسلاف المتجمعة في مكان سري، وتعد كل هذه المعتقدات الشعبية جزءا من الواقع إلا انه يجب تحديد مستواه. وبعبارة أخرى لا يمكن استبعاد التأثيرات الحقيقية أو نكرانها في مفهومنا للواقع بحجة أنها تظهر لنا مشبوهة ومشكوك فيها أو متملصة من انتقاداتنا الأدبية. إن المؤرخ التقليدي مهما يكن من أمر لن يتقبل هذا التعريف للواقع بدون مشقة واعتراض، إنه سيرفض الحكايات الخيالية وسيتردد من إدماج الطقوس السحرية والدينية بوصفها عنصرا مكونا للعرض التاريخي، وسيفضل عند اللزوم أن يخصص فصلا خاصا بها يتضمن المظاهر الزخرفية والغريبة جدا.

هناك إذن أبعاد متعددة للواقع وطرق متنوعة لتحليل تفاعل القوى الحاسمة المتعلقة بفكر الإنسان ونشاطاته، وأما السبب العميق فانه يكمن في الاختلافات الأساسية المرتبطة بالمفاهيم الفلسفية التي تستخدمها المجتمعات المتنوعة. إن مفهوم العالم المجرد من صفة القداسة والمتصف بالعقلانية لا يمكن أن يتصور مكونات النشاطات

البشرية إلا ضمن مجموع القوى المرئية، يتم الكشف عنها بوسائل منطقية وعقلية كالعوامل الباطنية (العقائدية والروحية والشخصية) والعوامل الخارجية (المادية ، الحربية ، السياسية) في حين تتغلب التصورات أو المواقف الأخرى من الوجود على شعوب المجتمعات التقليدية التي تربط كل شيء بالدين عندها بما في ذلك الأفعال الوضيعة التي يمارسها الناس البسطاء في الحياة اليومية. وقد لخص أحد علماء السنغال الشيخ ANTA DIOP هذه التصورات في صيغة القوة الحيوية Force Vitale مشيرا إلى أن الكون في الحضارة الإفريقية يتجلى من خلال القوى الحيوية، فالإنسان القوى هو القادر على تركيز أكبر قوة حيوية في ذاته. ومع كل هذه الاعتبارات يجب أن نلاحظ أنه لا ينبغي الابتعاد عن مفهوم الواقع الأنطولوجي **la réalité Ontologique** وإلا **سنتعرض للسقوط في الذاتية ومواجهة عدد من الوقوع (جمع واقع) داخل مجتمع واحد.**

الخصائص الكبرى للوضع الاجتماعي و الاقتصادي في التغريبة

المكونات الجغرافية للرحلة الهلالية :

تميزت البيئة الجغرافية للتغريبة بخمس مناطق،تتمثل الأولى في المنطقة البدوية أو نجد التي "كانت من أخصب بلاد العرب كثيرة المياه والغدران والسهول والوديان حتى كانت تذكرها شعراء الزمان بالأشعار الحسان وتفضلها على غيرها نظرا لحسن هواها،و مازالت على رونقها الأول حتى تغير قطرها واضمحل وانقطع عندها الحشيش والنبات وعم البلاد المجاعة من جميع الجهات ولم يعد فيها شيء من المأكولات حتى صارت أهلها تأكل الحيوانات. واستمرت المجاعة سبع سنين وذلك بعد الهجرة بأربع مائة سنة و ستين.

ولما عظمت الأهوال....استدعى إليه سادات القبيلة وأكابر الجماعة وجعلوا يتفاوضون في أمر المجاعة فاتفق رأيهم بوجه الإجمال على أن يرحلوا من ذلك الأطلال بالأهل والعيال"[1] يكشف هذا النص القصير الذي ورد في مستهل التغريبة عن النظام البيئي والمناخي والغطاء النباتي والحيواني والنشاط البشري وهو ما يمكن أن تطلق عليه مرحلة الاستقرار.يتبعدها مباشرة تدهور هذا الوضع

[1] - التغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد الغرب من مطبوعات دار كرم دمشق ص02-05

من جراء نقص وسائل الرزق لأن معاش هذه المنطقة من الجزيرة(نجد) متوقف على تقلبات الطبيعة كالجفاف و المجاعة- وغزوات الجراد وجائحة البهائم. وذلك سببا لغزوات تستهدف السلب و الذهب بوصفها بديلة عن الموت جوعا وهنا تأتي مرحلة التغرب.

وتعد الأرض الخالية المنطقة الثانية المندرجة ضمن العالم الآخر الذي لا يخضع للمراقبة والتدقيق.وتتمثل الأرض الخالية في القفار والبراري والصحاري التي تجتاحها الحيوانات المتوحشة واللصوص وتقلبات الطبيعة. يقطع الهلاليون هذه المنطقة في حدود زمن قصير وفي حالة تخلو من الاطمئنان. وتأتي المنطقة الحضرية، في المرتبة الثالثة. وإذا كانت تشكل أولا و قبل كل شيء بالنسبة للهلاليين محطات فإنها تعتبر كذلك بمثابة المجال الحيوي الذي يحافظ على استمرار حياتهم.

وتمثل الأرض الجديدة المنطقة الرابعة التي عبرت عنها التغريبة بعدد من الألفاظ المركبة.تونس الخضراء - أرض المغارب - أرض الزناتي - وقد جرى التركيز على كلمة الأرض التي تدل على معاني عامة. التربة - الوطن - مكان العيش - تستخدم التغريبة لفظ الأرض بالمعنى الواسع كمساحة مسكونة بالبشر سواء أكانوا أقارب

أم غرباء وبالحيوان والنبات. ويتحدد أيضا كمصطلح اجتماعي يدل على مساحة الإقامة والاستقرار، ويظهر ارتباط الزناتة بالأرض كمساحة سلالية لهم(أرضنا).

أما الأرض بالنسبة للهلاليين فإنها المساحة التي تمتد في كل مكان حيث ترغب التنقل و كذلك المكان الذي يمكن فيه الحصول على الخيرات بوصفه خصبا[1].

أما المنطقة الخامسة فهي الأطراف والهوامش التي تدل على كل ما يحيط بالمركز الحضري من سكان وأراضي يساهم في وجوده، عندما لا يجد الناس مكانا للإقامة داخل المدينة يسكنون بيوتا حقيرة في أطرافها، وتضم الأطراف عددا من المشردين والمتسولين المحترفين و اللصوص والعاطلين عن العمل و الرعاة بخلاف العبيد الذين كان لديهم مكان يأويهم عند العائلات الغنية. وتعتبر الأطراف المكان الوحيد المتاح للهلاليين للنزول ونصب الخيام.

إن هذه المناطق الخمس مفصولة عن بعضها البعض ومختلفة من حيث طبيعتها الجغرافية وعلاقتها بأنماط العيش و بعدها أو قربها من المدينة. ورغم اشتراك هذه المناطق في خط الرحلة من بدايته

1 - مجموعة من المؤلفين - دراسات في تاريخ الثقافة العربية، دار التقدم موسكو ص136، ترجمة أيمن أبو شعر .

إلى نهايته فإنها لا تخضع في تنظيم السير لحالة واحدة. ورغم الأحداث المذهلة التي جرت في المنطقة البدوية والمنطقة الحضرية فان حضورهما ينتهي بمجرد مرور الهلاليين عليها في حين تعود الأرض الخالية والأطراف إلى الظهور مرات عديدة.ولا تعير التغريبة عناية كبيرة بالأرض الخالية ما عدا بعض الحواجز الطبيعية البارزة فيها التي تعرقل سير الهلاليين كفيضان الوديان ووصف حركة السير فيها بالسرعة والحيوية ولا تبرز الأرض الخالية إلا عندما يكون الهلاليون في طريقهم إلى مدينة محددة، بينما تركز التغريبة اهتمامها على الأطراف بسبب استغلال الإمكانات المادية التي توفرها و ارتباطها بالمنطقة الحضرية. وتظهر العلاقة بين الأطراف و المركز الحظري منذ اللحظة التي ينصب الهلاليون الخيام فيها. ويبدأ رد فعل سلطات المدن لدفع الخطر الخارجي ترتبط الأطراف بفكرة الصراع بين الهلاليين وسلطات المدن أما الأرض الخالية فإنها تبتعد عن المخاصمة التي تجسد العلاقة بين القطبين، إن الأرض الخالية مثيرة للنفور والجوانب المجهولة والخفية والغامضة والاضطراب في حين تتميز الأطراف بالعلامات البارزة كالاشجار والمباني والممرات والحدود

والحركة. لم يكن الهلاليون في الأطراف مجرد كائنات بشرية ولكنهم أشخاص لهم أدوار اجتماعية وسياسية.

وإذا كانت المناطق الجغرافية بانواعها تمثل الإطار المادي للرحلة فان الشروط الاجتماعية والاقتصادية تشكل مضمونها.

الوضع الاجتماعي والاقتصادي:

وتقدم التغريبة الوضع الاجتماعي والاقتصادي الذي ساد في عصرها في قالب قصصي، وهو المعنى الذي أشارت إليه في مستهلها "كانت القصص والنوادر موضوعة لإفادة الناس وتسلية الخواطر لا سيما قصص بني هلال وما جرى لهم في سالف الأجيال من الوقائع والأهوال التي تشيب الأطفال"[1] ويسجل الشعر حضوره في التغريبة إلى جانب النثر لتحقيق هذه الغاية، إذ أن الشعر"يضفي على القصة تخيل إمكان حدوثها وقربها من الواقع"[2].

ولكن هذا لا يعني أبدا أننا في هذه الدراسة سنستخدم الأسلوب القديم الذي يعتمد على سرد الأحداث، وهدا يعني أن المنطلق الأساسي لدراستنا يكون في الفصل بين أدب الحروب وأبطالها طيلة أيام العرب وتاريخهم وكل ما تتميز به الراوية الفروسية من المبالغة

[1] - تغريبة بني هلال ص 2

[2] - ERICH KOHLER.l'Aventure chevaleresque Gallimard page269

المفرطة والخوارق والبيان واللغة المطرزة من جهة، وبين الموضوع الأساسي للعمل الأدبي المتمثل في تفسير الحالة البشرية من الناحية الإجتماعية والاقتصادية.

لم تتأصل المفاهيم الاجتماعية والاقتصادية في الدراسات الأدبية كمدخل منهجي لتحليل القصص الشعبي عموما والسيرة الهلالية بصفة خاصة. ويتوجب علينا عندما نريد أن نحدد موقف الباحثين من هذه المسألة أن نأخذ بعين الاعتبار التنوع في المفاهيم التي وظفوها.ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى الباحث عبد الرحمن أيوب الذي تناول التحولات التاريخية والاجتماعية التي أفرزتها المجموعة العربية من ذاتها أو نتيجة لاحتكاكها بغيرها من المجموعات البشرية ضمن جدلية الأخذ والعطاء والصراع من أجل التفوق والهيمنة. وهذه التحولات ترتبت عنها مضامين جديدة أودعتها الأجناس الأدبية الشعبية وبشكل خاص السيرة الهلالية[1]. كما عالج رشدي صالح الأدب الشعبي في إطار السلطة الاجتماعية التي تضرب جذورها في التاريخ القديم والسلطة الاجتماعية في نظره ليس مجرد أعراف وعادات وتقاليد تتجلى في مظاهر الحياة

[1] - عبد الرحمن أيوب، الآداب الشعبية والتحولات التاريخية الاجتماعية مثال: سيرة بني هلال عالم الفكر الكويت 1986 ص19 إلى 20

التقليدية.بل هي تعبير عن موقف منظم متعلق بامتلاك وسائل الإنتاج[1]. بينما ركز عبد الحميد حواس في دراسته للسيرة الهلالية على التاريخ الجماعي الذي يتصور الجماعة البشرية موحدة ومبلورة في نشأتها ونموها ونقلتها مقابل التاريخ الاجتماعي الذي يحددها بوصفها أجزاء تتبادل العلاقات فيما بينها[2]. ومعظم الدراسات التي تناولت الأعمال الأدبية من منظور التاريخ الاجتماعي اقتصرت على تسجيلات الحياة اليومية ووصف العادات والتقاليد وتصرفات الناس.

في هذا السياق سنحاول ان ندرس إشكالية الوضع الاجتماعي والاقتصادي بمختلف جوانبها في التغريبة. وإذا كانت التغريبة مرتبطة بأوضاع اجتماعية واقتصادية محددة فانه ليس شرطا أن تقدم لنا نظرة شاملة عليها لأن طبيعتها الأدبية لا تساعدها على تحقيق هذا الغرض،بل إن دور التغريبة يقتصر على تقديم صورة أو نظرة عن هذه الأوضاع البعيدة في الزمان و المكان إلا أن هذا الفصل المنهجي لا يعني أبدا انعدام العلاقة الصارمة المتبادلة بين شكل التغريبة و مضمونها إذ أنها تتألف من العنصرين المترابطين.

---

1 - أحمد رشدي صالح الأدب الشعبي ص 86 – 87 – 88 – 89 - 90

2 - عبد الحميد يونس الهلالية في التاريخ و الأدب الشعبي، مطبعة جامعة القاهرة 1956، ص06

إن أسلوب التغريبة الفني كان ناجحا لأنه استطاع أن يتطابق مع عصر البطولة، بمعنى عندما كان العالم مسكونا بسلالة من الأبطال المماثلين للآلهة. وقد كان المجتمع العربي الإسلامي بدوره مقترنا بالعصر البطولي لأنه متكون من هيئات سلطوية معقدة كالقبيلة والمدينة والبلاط والخلافة والديوان والنظام الفروسي، وكانت قادته رجال محاربين وذريتهم كذلك والبعض منهم كانوا فرسانا.

ونؤكد على أهمية الدور الاجتماعي والاقتصادي الذي تقوم به وحدات المجتمع سواء كان بدويا أو حضريا باعتباره مرتبطا ببقاء الجماعات البشرية وشروطه. وينبغي أن نلاحظ في هذا السياق أن الفرد والجماعة يتحركان في مجالين مختلفين. فالجماعة والطبقات يهتمون بالتغيرات الاجتماعية على النطاق الواسع أما الأفراد فينشغلون بالأحداث الواقعية والفردية[1]

مفهوم التغرب ودلالته الاجتماعية :

وقد سجل المؤلف المجهول هذه الرحلة بتسمية التغريبة.والجدير بالذكر ان التغريبة هي العمل الأدبي الوحيد من بين السير الشعبية الأخرى التي يدل عنوانه على المكان ،و تشير علامة التغريبة إلى

---

1 - روبرت لافون جرامون . –التاريخ ترجمة نادية سلفات القباني ص42.

الاتجاه إلى الغرب و الغربة عن الوطن وغرابة الأحداث التي عاناها الهلاليون في طريقهم إلى تونس.

يدل مصطلح التغرب هنا على إبعاد شخص عن مسقط رأسه أو إلزامه بالإقامة خارج مكان معين بعيدا عن أشخاص يتأسف لهم ويحمل لفظ التغرب فكرة التفريق والاقتلاع كما يحيل بالضرورة إلى فضاء محدد و ليس إلى عائلة أو أشخاص وبالتالي فان الفرد لا يمكن أن يتغرب بصفة إرادية عن عائلته أو عن إخوته أو عن سلالته التي ينتسب إليها. وتظل العائلة بخلاف المكان، حاضرة في ذات الفرد الذي يمثلها،و يخلق التغرب إذن وقفا يتعذر إصلاحه إذ يمتد بين الفضاء الأصلي و ذات الفرد نوع من التراب ليس ملكا لأحد و عدم وجود الفضاء يخفي الفضاء الأصلي شيئا بعد شيء كلما انحلت الروابط بالنسبة لهذا الأخير وانفصمت وارتخت. إن كل متغرب لابد أن عرف ظاهرة المحو و زوال الأثر أو الطمس التي تحدث تدريجيا. وللمتغرب إدراك و إحساس بهذا الفضاء الوسيط القائم بين الاثنين(الفضاء الموضوعي و الفضاء الذاتي) ويمكن تحديد الفضاء الوسيط بمميزتين:

1- انه فضاء حقيقي و خاضع للقياس المكاني والزمني إن المسافة التي تفصل بين نجد و تونس يمكن تقديرها بالشهور مشيا

على الأقدام في حين تتقلص هذه المدة الزمنية إذا كان السفر عـــن طريق الجمال والخيول والدواب.

2- انه فضاءخيالي واستيهامي أو تصور خادع من حلم أو هلوسة.

ويعد التغرب كذلك مصدر حلم اليقظة والهاجس والوهم. ويعـــاش حلم اليقظة من خلال علامة الحنين الى أقصى حـــد بـــل الحـــداد والحزن.[1]

---

[1] - Malek Alloula ,Espace familial,Exil ,Espaces maghrébins pratiques et.... Page 158-162-163

الفضاء الأصلي (فضاء موضوعي)

(نجد)

الفضاء الوسيط (بلدان الأعاجم)

أ- فضاء حقيقي وخاضع للقياس المكاني والزماني.

ب- فضاء خيالي و استيهامي غير قابل للحجز.

الذات (فضاء ذاتي)

(بلاد الغرب)

هذه المعطيات النظرية مستخرجة من تحليل الفضاء العائلي والتغرب للمؤلف مالك علولة مجسدة في شكل.

تقدم لنا التغريبة نماذج من التصورات الخيالية تفرضـــها ظـــروف التغرب مثل لوعة الوداع بمناسبة الريادة[1] والطقوس والانفعـــالات كالبكاء على المسافرين و التعبيرات الرمزية كالدعاء لهم بالرجوع سالمين[2] خوفا من الضرر أو الطارئ ليس في الحسبان إلـــى حـــد لجوء الفرد إلى حيلة للتخلص من السفر الطويـــل[3]، إلـــى جانـــب ارتباط بلاد نجد بأسطورة حياة الماضي البسيطة والسعيدة والخالية من المتاعب وتغنى الشعراء بها و تخيلهم هذه المســـرة والســـكينة والعيش الرغيد فيها، وقد كان الرجوع إلى هذه الأسطورة مجســـدا في علاقات التقابل والتبادل بـــين الشـــرق والغـــرب بمســـتوياتها الإنسانية (تشابه سعدة ومرعي في الحسن والأدب)[4] والثقافية (مدح شعراء العرب قديما خليفة الزناتي والـــوزراء)[5] والتجاريـــة (بيـــع الجارية لسعدة) بالإضافة إلى الحنين إلى الوطن.

إذا جيت نجد العدية وأرضها

فسلم على عليا وباقي قرايبه[6]

---

[1]- تغريبة بني هلال ص 09

[2] - تغريبة بني هلال ص 06

[3]- تغريبة بني هلال ص 06

[4] - تغريبة بني هلال ص 20

[5] - تغريبة بني هلال ص 20.

[6] - تغريبة بني هلال ص 303

كما أن أحداث التغريبة تندرج في سياق الحياة التي تقسمها إلى جزئين : ذلك الذي يتحدث عن سعادة الماضي في نجد وذلك الذي يخلفها و يشكل سعادة الحاضر في تونس.

إن هذا القلق و الضيق و الانزعاج و المزاج النفسي و الاجتماعي المولد للنزوح و التشرد تعتبر حالات ناتجة عن طبيعة الأرض القاحلة و العارية من النبات أو الأثمار. وقد أدى هذا الوضع إلى حركة الإقفار ونقص السكان و الاستئصال، وعدم تسهيل العلاقة العضوية بين الإنسان و الأرض، واذ يظل الفرد غريبا عن المنطقة التي ينتمي إليها.عندما يغادر مسقط رأسه فانه لا يستقر في مكان معين بقدر ما يستمر تيهانه وتسكعه مدة طويلة من الزمن[1] .

الإنتاج الزراعي:

كان العرب من القرن الحادي عشر إلى الخامس عشر أقل ارتباطا بالزراعة، ولهذا السبب كان النمط الأساسي الذي تقوم عليه حياتهم في هذه الفترة هو الترحل الذي صار عندهم حرفة دائمة[2] وقد عرفت جماعات الهلاليين التي تضم الرجال و النساء و الأطفال و الحيوانات قطيعة مفاجئة وعنيفة مع أسلوب العيش الرعوي ويتمثل الرعي البدوي "في استثمار قطيع من الحيوانات الداجنة

[1] - Mostefa Lacheraf Ecrit didactiques édition E.A de presse P289 290 291.

[2] - جماعة من المؤلفين دراسات في تاريخ الثقافة العربية ص 344،345

(البقريات أو الماعزيات أو الجمليات) في بيئة هامشية لا تصلح للزراعة و لكن بصورة متكاملة مع الزراعة"[1] كما هو واضح يجب التفريق الجذري بين الضرورات والمكملات في ميدان العيش البدوي إذ يستطيع الهلاليون أن يعيشوا دون العمل الزراعي والعناية بإنتاجه أو الاستفادة من محصوله ولكن عندما يتخلون عن الرعي ينسلخون عن محيطهم ويقبعون خارج الزمان والمكان. تعتبر التغريبة الحالة الطبيعية المجسدة في الجفاف كتحديد للوضع الاجتماعي المتدهور الممثل في المجاعة تبريرا لهجرة الهلاليين إلى إفريقيا الشمالية إلا أن جدب التربة الناجم عن سنوات الجفاف لم يكن إلا سببا لجزء صغير من المجاعة أما السبب الآخر فيرجع إلى قلة دراية الهلاليين بالإنتاج الزراعي وتخزينه واستهلاكه والمتاجرة به.

"يدل جمع الغذاء، تهدف الزراعة إلى إنتاجه باستثمار النباتات والحيوانات التي يكون قد حصل تعديل لنموذجها الجيني نتيجة مسيرة التدجين"[2] وبالمقابل يحدث الإنتاج الزراعي في إفريقيا الشمالية تعديلا جذريا في علاقة الهلاليين بالمكان. ومن الطبيعي أن

---

[1] - فيليب لابورت .تولرا جان بيار فارنييه اثنولوجيا انتروبولوجيا ترجمة مصباح الصمد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ص 331.

[2] - فيليب لابورت .تولرا جان بيار فارنييه ص 330 .

تؤدي الزراعة دورا حاسما في تحديد مكان الهلاليين.إن ارتباطهم بالمكان أقوى من الزمان الذي يهدف إلى تحديد فترة أو ظروف محددة من وجودهم فقط. إن أنماط العيش الرعوية والزراعية تعيد بشكل صريح إنتاج العلاقات التقليدية. وتؤكدها باستمرار عبر ممارسات الهبات والعطاءات والمبادلات المتنوعة. وتعد هذه الهبات إرادية ومجانية تلزم متلقيها بالقبول، وتشمل الأشياء المادية التي تساهم في تثبيت القواعد القانونية للحياة الاجتماعية وترسخ قيم الشرف والكرم وتعطى مظهرا ماديا لمشاعر الصداقة أو العداوة. وتعيد تنظيم السلطة والثروة والمراتب داخل القبيلة. والهبة نوعان إذ يمكن أن تكون ذات مظهر سلمي أوعلى عكس ذلك تتخذ بصفة غير مباشرة شكل العداوة[1] لقد تناولت التغريبة الهبات والعطاءات في نطاق العلاقة بين زعماء الهلاليين وسلطات المدن لإظهار كرم كل فريق تجاه الآخر في مناسبات الزواج والتحالفات والجلوس على العرش. أخذت الهبات والعطاءات أشكالا مختلفة – الفرس – المرأة– قطعة الأرض– ويحدث أن يحصل شخص على هدية يحتفظ بها فترة من الزمن ثم يستخدم المعطي كل الحيل من اجل استرجاعها ويمكن أن نستشهد بجهود أبي زيد من اجل تخليص

[1] - فيليب لابورت .تولرا جان بيار فارنييه ص 302،301 .

الجازية بعد زواجها من القاضي بن مقرب. وتظهر العلاقة بين الهبة والزراعة منذ أن بدأ الصراع الخفي بين الزناتة والهلاليين بعد استقرارهم في تونس حيث استخدمت العائلة الزناتية الحاكمة الهبة الزراعية من أجل إثارة الشقاق بين الزعماء الهلاليين الذين سرعان ما تطور الخلاف بينهم بسبب قطعة أرض مثمرة من الجدال إلى القطيعة.

و بعد أن أدت النزاعات الخارجية دورًا مهما في اندماج الهلاليين في قبيلة الأم وتقوية اللحمة فيما بينهم فان الخلافات الداخلية التي كان من أسباب ظهورها الأرض وإنتاجها الزراعي تعد علامة على الفوضى والتفكك.

اثر البداوة في المدينة

اخترنا كلمة (تَبَدْوُن) bédouinisation للتعبير عن أثر البداوة في المدينة. و أعرضنا عن كلمة التبدي لأن معناها محصور في الحياة التي يغلب عليها الترحال و ليس لها الدرجة من الدقة للدلالة على العواقب المحسوسة التي تلازم كل حركة سريعة و عنيفة تقوم بها جماعة من البادية في المدينة من أجل الاستقرار فيها.

يعتبر أثر البداوة في المدينة من أهم الموضوعات التي عالجتها التغريبة. إن أغلب الدراسات التي تناولت المدينة كانت تميل في

تعريفها إلى تغليب عدد سكانها وأهميـــة مســـاحاتها. إلا أن عـــدد السكان مهما كان مذهلا ليس هو الذي يــؤدي دورا حاســـما فـــي صناعة المدينة و لكن تنظيم العيش الجمـــاعي. كمـــا أن المدينـــة تستبدل الروابط الدموية بالرقابة الاجتماعية والسياسية[1] " وخلافـــا لما هو شائع عند بعض الباحثين عن مفهوم البداوة، فإن حياة البدو ليست بدائية وإنما هي طراز من الحياة تسكنه جماعـــات بشـــرية كانت تعيش فيما يعرف اليوم بالحزام الصحراوي"[2].

إن الحديث عن أثر البداوة في المدينة يبدأ" من تعيين **الحدود** بـــين الثقافة البدوية الأصيلة وبين الثقافة المتمدنة في القرون **الوســـطى**"، وقد إلتفت الباحثون القدامى إلى الاختلاف بـــين **المجتمـــع المـــدني** والمجتمع البدوي إلا أن ابن خلدون حاول صياغة **منهجية عقلانيـــة** للبحث في هذا المجال عنـــدما اعتمـــد علـــى **معـــايير اجتماعيـــة** واقتصادية محددة.

يرتبط المجتمع المدني حسب رأيه بالمستوى **المرتفع للمعاش** والاستهلاك، وممارسة التجارة والحرف، ونسبة **الأمن الكبيرة خلف** أسوار المدينة، والاستقرار الاقتصادي والسياسي **وعدم الاكتفاء** بإنتاج الحاجات الضرورية بل الاعتماد على الكماليات **التي** تتيح

---

[1] - M.Lacheraf , page 314

[2]- حسين مؤنس الحضارة عالم المعرفة الكويت ص 182.

العيش الرغيد في حين يقوم المجتمع البدوي حسب رأيه على الزراعة أو تربية الحيوانات بمعنى الطريقة الأكثر سهولة ومباشرة في الحصول على وسائل العيش إلى جانب المستوى المنخفض للإنتاج و الاستهلاك، والإقامة في بيئة بسيطة تحدد ظروف العيش فيها خصال أهلها الجسدية والنفسية والأخلاقية، وأخيرا التبعية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمدينة.

وهكذا أدرك ابن خلدون أهمية المعايير المتمثلة في المردود المرتفع والوظيفة المهنية والحرفية والأمن والاستقلال والعيش الرغيد في خلق الإنسان المتمدن. وليس هناك حاجة إلى القول بأن هذا الاهتمام الشديد بالتمدن يحمل في طياته الانتباه البالغ كذلك بمهمة التنظيم كشرط أساسي لنجاح التمدن وبالتالي التوطين. إلا أن الفصل المنهجي الذي أشار إليه ابن خلدون ليس متوفرا دائما في الواقع بين المدينة و البادية في العصر الوسيط خاصة في بعدهما الاجتماعي و الاقتصادي. وقد ظلت حركة النزوح من البادية إلى المدينة العنصر الأقوى في تاريخ العلاقات بين المجتمعين. إن التبدون نتيجة حركة بشرية ذات احتياجات مكرهة ومجبرة تدفع الفلاحين والفقراء والأغنياء منهم إلى مغادرة مسقط رأسهم لان هذه الأماكن تخلو من النشاطات المربحة وظروف العيش اللائقة التي

يمكن أن تساعدهم على الاستقرار وليس الأمر متعلقا بالتحول المميز الذي يحدد عملية التجاوز و البحث عن العيش الرغيد سهل البلوغ ومبرر بالعمل أو الرغبة في التطور. إن الهجرة المعنية تتعلق على الأصح بظاهرة خطيرة تتمثل أساسا في زوال المحبة للأرض وحرفة الفلاحة التي أصبحت صدفوية ومشكوك فيها[1].

يحتقر البدو المدينة و هي تعني في نظرهم النعومة والأنوثة، وهم يفضلون الحياة في الصحراء ويفسر ثيسيجر وهو من أهم الباحثين في هذا الميدان، ذلك على أساس رغبتهم في الحرية و يستشهد بسلوك بدو الصحراء السورية واستمرارهم في التجوال فيها رغم إمكان استقرارهم في الزراعة كما أخذ مثلا من البدو الذين غزوا مصرفي الإسلام وعبروا الوادي إلى الصحراء غربا وتركوا رفاهية المدن في مصر .ويشهد ت.ا.لورنس أن البدو يستجيبون للتغيير الاجتماعي والاقتصادي ذلك أن بساطة حياتهم تجعل من السهل عليهم تغيير أساليب عيشها فقد تقبلوا بسرعة أمورا كانت جديدة عليهم مثل القهوة وبارود البنادق والقطن لأنها تتطابق مع نمط حياتهم. إلا أنه كان من الصعب عليهم تقبل تحولات تتعارض مع طبيعة حياتهم. ذلك يدل على نقص في الدور الذي يسببه

---

[1]- محي الدين صابر،لويس كامل مليكه، البدو و البداوة مغاهم ومناهج، منشورات المكتبة العصرية بيروت.

الآخرون لهم[1] ، وإذا حاولنا النظر بصورة وجيزة في الأسباب التي دفعت العرب إلى غزو البلدان المجاورة فانه يمكن القول أن ذلك لم يكن انتقالا أو نزوحا تحت ضغط الفيض من السكان الذين كانوا يقيمون في شبه الجزيرة إذ لم يكن خلف حدودها أراضي خالية .كما أن عدد العرب الذين هاجروا طيلة الغزوات بشكل مباشر من شبه الجزيرة لم يكن كبيرا بحيث أن التعويض عن هذا النقص كان قابلا للتحقيق بفضل الولادة الطبيعية. وقد عرفت بعض المدن في المشرق العربي مثل سوريا وفلسطين والعراق هجرات الآلاف من الأشخاص إليها. وهكذا يمكن القول ان سبب الغزوات العربية لم يكن من جراء العامل الطبيعي أو الديموغرافي بل بتأثير الظروف الاجتماعية والاقتصادية الخاصة. إن الغزوات التي قام بها العرب الرحل جرت في معظمها بسلام و لكن لابد من الاعتراف من أن أغلب مدن سوريا ومصر وما بين النهرين قد تحاشت ضرا وات الاقتحام، إذ إرتبطت هذه الغزوات بتوقيع معاهدات وفق شروط مناسبة. وقد حفظ المؤرخون العرب نصوص المعاهدات مع مجموعة من المدن العربية، وبمقتضى هذه المعاهدات جرى ضمان أمن السكان وحرمة كل الممتلكات غير

[1] - M. Lacheraf page 313

المنقولة ودور العبادة. راح العرب يستقرون في المـــدن وتابعـــت الحياة فيها مجراها الطبيعي حيث لـــم يتـــدخل الفـــاتحون بالحيـــاة الداخلية لأصحاب العقيدة الدينية الأخرى طالما أنهم يدفعون الجزية المتفق عليها.

وإذا انتقلنا إلى الظروف و الملابسات التي أحاطت بظاهرة التبدون فيما يتعلق بإفريقيا الشمالية نجد أن التغريبة ذكرت مجموعة كبيرة من المدن. و إذا كان عدد منها حظي باعتراف علمـــاء الجغرافيـــا فهناك مدن أخرى يتعذر العثور عليها في معاجم البلدان مهما كانت قديمة. وأغلب هذه المـــدن غيـــر المبوبـــة مصـــدرها التصـــور الأسطوري للرواة تم اقحامها لأسباب لم يذكرها عبد الرحمان أيوب في دراسته المذكورة سابقا. كما أنه يجب الإشـــارة إلـــى وجـــود اختلاف بين الجزائر والمغرب وتونس من حيث العوامل الطبيعيـــة أو التركيب البشري أو من ناحية أحداث التاريخ و لكن يجب فـــي وقت واحد التأكيد على أن وجوه الاختلاف محدودة بسبب تجـــاور بعضها مع البعض. وتتشكل المنـــاطق الجغرافيـــة والاقتصـــادية الرئيسية في هذه البلدان المغاربية من التل و السهوب والصحراء. وقد سمى ابن خلدون التل موطن الثيران و البراري موطن الأغنام والصحراء موطن الإبل، وكان معظم سكان هذه البلدان من قبائـــل

بربرية مختلفة انضوى القسم الأكبر منها من القرن العاشر حتى القرن الخامس عشر تحت جناح ثلاثة اتحادات قبلية كبيرة صنهاجة وزناته ومصمودة. و لم تدخل قبائل بربرية عديدة في هذه الاتحادات و لم تؤد دورا تاريخيا ملحوظا في هذا العصر كالقبائل المذكورة. توزع اتحاد قبائل صنهاجة بين مجموعات رحل الصحراء(الصنهاجيون الملثمون) ومجموعتين أطلسيتين حضر وإنصاف حضر تمارسان الزراعة وتربية الماشية إلى جانب حياة الترحال وجدت واحات الصحراء العديدة حياة حضرية، وهنا نلاحظ تباينا بين القبائل العربية والبربرية منذ القرون الأولى بعد غزو الهلاليين. كان عدد القبائل العربية حتى القرن الرابع عشر هو الأكبر اختصت في تربية الإبل و الأغنام. وقد كانت بعض القبائل العربية تترحل إلى الجهة الشمالية من الجزائر، ومن الطبيعي أن تجلب هذه التوغلات العميقة التي تمارسها جهات كبيرة من القبائل العربية الرحل في المناطق الحضرية ضررا كبيرا للزراعة، وقد سمحت سلطات المدن بهذه التوغلات لمجرد أنها كانت تعقد أمالا على مساندة مشايخ القبائل العربية القوية[1].

---

[1] - جماعة من المؤلفين دراسات في تاريخ الثقافة العربية ص 343، 342

وقد امتازت القبائل البربرية مع بقاء الأولوية للاعتماد على تربية الماشية بوجود زراعة مساعدة قادت في بعض الحالات إلى وضع حضري وبعض الحالات الأخرى نصف حضري. وعلى الرغم من أن عدد العرب الرحل بعد غزوة بني هلال لم يكن كبيرا حيث لم يتجاوز 2-3% من سكان المغرب فان تمركزهم في المنطقتين الأكثر أهمية من الناحية الاقتصادية اللتين تتمثلان في إفريقيا والمغرب الأوسط قد أتاح لهم أن يؤثروا تأثيرا كبيرا على حياة شمال إفريقيا الاجتماعية والإقتصادية . ولم يضعف التطور السريع للعلاقات الإقطاعية الأبوية في أوساط قبائل الهلاليين التي جاءت في محل نظام الديموقراطية الحربية في المراحل الأولى من أهمية غزوات النهب والسلب وحركات التدمير والتخريب بل ضاعفها. وإذا كانت شروط حياة الهلالين البدوية قد ساهمت في تمييزهم عن سكان المدن، فان عددا من الباحثين يخلطون فيما يتعلق بنمط العيش البدوي بين مجموعتين الرعاة و مربي الماشية[1]، إن مربي قطعان الماشية من الأغنام و الجمال هم الذين أصبحوا في التغريبة ينتمون إلى المدينة، إلا أنهم كانوا قد فقدوا وجودهم الجغرافي كالبادية والصحراء ومع ذلك فإنهم حافظوا على وجودهم

---

[1] - م ن ص 347

الاجتماعي في المدينة. وهكذا يمكن القول أن الحدود التي تفصل بين المدينة والبادية غير واضحة وإذا كانت فترات الجفاف والمجاعة سببا في تهجير عدد وافر من الهلاليين الذين يعتنون بتربية الماشية إلى البلدان المغاربية فان المدينة في التغريبة التي تضم المؤسسات والأدوات وأصنافا متعددة من الحرف التقليدية لم تأخذ بالحسبان انشغالاتهم الأساسية الأمر الذي جعلهم يضطرون إلى نقل بأسهم و اضطراباتهم ونزعاتهم الداخلية إليها.

تقسيم العمل و تصنيف الأشخاص

نشأ تقسيم العمل و تصنيف الأشخاص في المجتمع البشري تدريجيا، وقد " كانت المدينة العربية منذ البدء... مجرد مركز سياسي- إداري في إطار النظام العام لبنية الدولة. لم يكن للمدينة وضع حقوقي خاص ولم يتميز سكان المدينة بأي شيء عن سكان الريف من الناحية الحقوقية ولم تكن هناك مراتب مصنفة حقوقيا (ما عدا العبيد)"[1] .

ويجب الإشارة منذ البداية أن الحديث عن معايير التصنيف في التغريبة لا ينفصل عن تخصصات أفرادها بمعنى أنه لا يمكن فهم مكانات الأشخاص الذين يحتلونها في السلم الاجتماعي بصورة

---

[1] ـ جماعة من المؤلفين دراسات في تاريخ الثقافة العربية في القرون 5-15 . ص231.

أفضل إلا إذا نظرنا إليها من خلال العمل الذي يمارسه كل واحد منهم في المجتمع سواء كان بدويا أم حضريا. ويعبر العنصران المتمثلان في تقسيم العمل وتصنيف الأشخاص في التغريبة عن نظامها الاجتماعي والاقتصادي الدال على الظروف التي يسلك الناس في ظلها لتحقيق أهدافهم.

تخضع مجموعة النشاطات التي تمارسها الأشخاص في التغريبة إلى أربعة عوامل تصنيفية. يرتبط الأول بالجنس الذي يحدد الوظيفة التناسلية في الإنسان، إلا أن التمييز بين الناحية الجسدية والناحية الاجتماعية بالنسبة للذكر والأنثى من حيث المصطلحات متفاوت من لغة لأخرى. فاللغة الفرنسية لا يوجد فيها سوى كلمة واحدة(Sexe) للدلالة على الاختلافات البيولوجية والاجتماعية في حين نجد أن اللغة الانجليزية تستخدم كلمتين واحدة منها(Sex) تدل على الناحية الجسدية والأخرى (Gender)[1] تركز على الدور الاجتماعي.

وإذا كانت التغريبة تنطلق من التميز الجنسي على مستوى الهيئة الخارجية والسلوك الفردي فإنها تقدم دليلا قويا يثبت أن النوع يندرج في الميدان الاجتماعي ولا يتطابق بالضرورة مع الجنس إذ

[1] - فيليب لايورت تولرا – جان بيار فارنييه ص335

نجد الجازية التي وصلت إلى مركز قيادي في القبيلـــة تأخـــذ دور الرجل في الحرب وذلك عندما ترفض الصلح و تطلب من ديـــاب النزول من الخيل لتركبه وتقاتل خليفة الزنـــاتي ســـلطان تـــونس. ويشمل هذا الدور الذكوري الغالبية من النساء الهلاليـــات اللـــواتي تحررن من المهمات الأنثوية الصرفة.

وتعتبر الأبيات من الشعر التي انشدتها الجازية نموذجا للدلالة على أن القدرات المتميزة ليست متوقفة دائما على العامل البيولوجي بقدر ما هي مكتسبة في السياق الاجتماعي.

تـــقـــول فتـــاة الحـــي أم محـــمـــــــد

أنـــا أورد خليفـــة أقصـــى المـــوارد

أنا بنت ســـرحان الأميـــر بـــلاخفـــا

أخي حسن سلطان على القـــوم سايد

ألا يا عذاري شدوا الخيل و اركبـــوا

علـــى ســـوابـــق أصـــلات فـــوايد

ونلبس خوذهم و الدروع و خيلهم

ونـــحن نـــحارب في اللقا و الطرد

ونقتـــل الزنـــاتي خليفـــة وقومـــه

ويبقـــى لنا التذكـــار بين الأماجـــد

خذوا بالرجال براقعنـــالا وجوهكم

وهاتوا ملابسكم واقعدو في المواقد

ونحن نطلقكم ونـــاخذ بدالكـــم

وتحوم عليكـــم بـــارزات النواهد

ألا يا بنات اسمعـــوا شرح قصـــتي

ودقوا طبول الحرب حتى نجـــاهد[1]

لان رجالنا يا بنـــات قـــد ذلـــوا

وما هم على الحرب الزناتي صوامد

يريدون صلحا بعد تسعين فـــارس

أمـــاقم الزناتي و صاروا هوامـــد

وفرحوا العذاري فيك يا ولد غانم

وقالوا دياب الخيل يا بو العوايـــد

مقـــالـــة فتـــاة الحي أم مـــحمد

فـــلا بـــد من قتل الزنـــاتي المعاند[2]

---

[1] - تغريبة بني هلال ص202 .

[2] - تغريبة بني هلال ص202.

تتخذ الجازية أيضا مثل الرجل عدة أزواج، إذ " من المألوف في الوحدة القبلية أن تقدم كل نساء الجماعة إلى رجالها عن طريق الزواج ومن تم تنقسم تلك الجماعة إلى وحدات فرعية عديدة طبقا لمبدأ التوزيع الهرمي الذي يعكس شكل الاختبارات الزواجية التي يدخل فيها الشخص مع غيره و التي تعرف باسم الزواج التحالفي"[1].

ويمثل السن العامل الثاني الذي يتم من خلاله التقسيم الاجتماعي للنشاطات. إن أهمية العمر تتأكد بشكل قاطع حينما تنتقل دلالته من الناحية البيولوجية إلى الزمرة الاجتماعية التي يفرض على الشخص البقاء فيها باسم المبادئ الأخلاقية والدينية "فالسن البيولوجي لا يهم بقدر فئة السن المكتسبة اجتماعيا"[2]

إن الشباب الذين ينتسبون إلى العائلات النبيلة يعتبرون راشدين وبالغين منذ الوقت الذي يكتسبون فيه ألقابا (الأمراء) بمنحهم ذلك الوضع الاجتماعي. وفي المقابل فان بعض الرجال أو النساء الذين تقدموا في العمر كالعبيد والخدم والرعاة تعاملهم القبيلة كحديثي السن لأنهم مصنفين في أسفل السلم الاجتماعي " فكبار السن والشباب المصنفون اجتماعيا كذلك ليسوا بالضرورة

---

[1] - البنانية عند ليفي ستروس، فادية فؤاد حميد ومحمد قسم الأنتروبوجيا، دار المعرفة الجامعية ص 158.

[2] - فيليب لا بورت تولترا، جان-بيار فارنيه-اثنولوجيا انترولوجيا ص 335.

الأشخاص المسنين أو حديثي السن بيولوجيا"[1] ينظم المجتمع القبلي في التغريبة توزيع المهمات حسب فئات السن.

تكلف القبيلة الهلالية الشباب بالمهمات الخطيرة، فقد نظـرت إلـى الريادة على سبيل المثال باعتبارها سلسلة مـن العمليـات الشـاقة تتناسب ليس مع عمر أبناء الأعيان البيولوجي ولكن مـع الوظيفـة القيادية التي يؤدونها في المجتمع القبلي. و العنصر الثالـث الـذي يؤثر على التوزيع الاجتماعي للنشاطات يتمثل في العصبية. تتشكل الجماعات العشائرية من مجموعة الأفراد ينتسـبون إلـى سـلالة مشتركـة و يتميزون بتماسـك قوي و لكنهـم لا يعترفون بهـذه القرابـة الا بناء على هذه العلامة الخاصة جدا وهي أنهم ينتمـون إلى توتم قد يكون حيوانا أو نباتـا ، حيـا أو ميتـا. و إذا كانـت الجماعات العشائرية صغيرة من حيث العـدد فإنهـا أخطـر مـن الوحدات الأخرى باعتبارها هي التي ترجع إليها في كل أمـر[2]. لا يجد الباحث صعوبة في تصنيف الجماعات العشائرية في التغربيـة ويعود ذلك لسببين هما المعايير الواضحة التي يمكن أن تعتمد عليها في عملية التقسيم من ناحية، و تأكيدها على خصوصـية المجتمـع القبلي خاصة في الظروف الاجتماعية والاقتصادية التـي عرفهـا

---

[1] - م . ن ص 335.

[2] - صلاح مصطفى الفوال علم الاجتماعي البدوي ص 200-202.

العصر الوسيط من ناحية أخرى. إذا نظرنا إلى القبيلة الهلالية نجدها تنقسم إلى أقسام كبرى وأخرى صغرى، يؤلف كل قسم منها وحدة إقليمية واقتصادية وسياسية وقرابية، وترتبط كل وحدة ببعض الالتزامات تتحدد على أساس الصلات القرابية مما يؤدي إلى إدماج الأقسام القبلية معا أو انفصال احداها عن الأخرى تبعا لاختلاف المواقف فالأقسام الصغيرة تتحدد معا لكي تصد الغارات التي تشنها عليها الجماعات الأخرى[1].

يشير مفهوم الجماعات العشائرية في التغريبة إلى الأشخاص الذين يربطون مصالحهم بها ويدفعون الخطر الخارجي الذي يهددهم انطلاقا من العلاقات القرابية التي تشكل العصبية والحلف والولاء قاعدة فيها.

تحتل جماعتان عشائريتان يتزعمهما كل من حسن بن سرحان وأبو زيد الهلالي أعلى المراتب في البناء الاجتماعي بالنظر إلى موقعهما بخصوص ممارسة السلطة والمشاركة في اتخاذ القرار، في حين تحتل الجماعة العشائرية التي يقودها دياب بن غانم أسفل مستويات السلم الاجتماعي، ويتكون هذا الصنف من الجماعة من الأفراد الذين لا يمتلكون السلطة أو النفوذ ولا يختلفون عن الناس

---

[1] - البنائية عند ليفي ستروس ص 146.

البسطاء إلا من حيث قيامهم بالوظائف العسكرية. على الرغم من أهمية النشاط الحربي الذي تمارسه هذه الجماعة العشائرية و توفر الفرص لإثبات كفاءتها ووضع قدراتها ومهاراتها في خدمة القبلية فإنها تظل في غالب الحالات مهمشة. إن المعايير التي يقوم عليها تصنيف هذه الجماعات العشائرية لا يندرج في التغريبة ضمن منظور واحد. إذ أن الأفراد الذين يصنفون أنفسهم ضمن جماعات عشائرية عليا يشيرون إلى معايير يتعلق بتميزهم من حيث الأصل النبيل المنحدر من عرب نجديين أو حجازيين، قيسيين لا يمكن الاستغناء عنه. وهذا الاعتقاد بأهمية النسب و ريادة دورهم يشكل معطى راسخا عند كل من حسن بن سرحان و الجازية و ابي زيد بدير بن فايد. ويبرز هذا التصور بقوة في التحالف المبرم بين الجماعتين. أما بالنسبة للأفراد الذين يعتبرون جزءا من الجماعة العشائرية الدنيا ويمثلهم دياب بن غانم و عائلته فأنهم يستندون في ذلك إلى نسبهم المنحدر من عرب اليمنيين" وهنا نجد النزاع الذي كان قائما بين العرب في الجزيرة أعنى به اليمنية والقيسية ينفجر مرة أخرى في افريقية "[1].

[1] ـ شوقي عبد الحكيم السير و الملاحم الشعبية العربية . دار الحداثة لبنان ص 184 .

يرتبط العنصر الرابع الذي يتحدد به التصنيف الاجتماعي بالعبودية. ليس من السهل إعطاء تعريف موحد لهذه الظاهرة الاجتماعية إذ "يعتقد الاختصاصيون بأن فقدان الحرية وحق الملكية الذي يمارسه السيد ليسا صفتين ملائمتين لها فالعبد قد يكون أكثر حرية من الابن أو البنت كما أن مفهوم الملكية الخاصة الموروث عن القانون الروماني لا يشكل فئة قابلة للانتقال إلى حضارات أخرى"[1].

تميز التغريبة بين نوعين من الأحداث التي تؤثر في حياة العرب، يتمثل الأول في الأحداث الطبيعية كالجفاف ويتعلق الثاني بالأحداث البشرية ومنها العبودية بصورة خاصة، وتشير التغريبة منذ البداية أن هذه المؤسسة كانت موجودة في الحجاز وإفريقيا في العصر القديم. وتذهب بعض الدراسات إلى أن العرب في هذه الفترة من التاريخ مارسوا العبودية من خلال القبائل الإفريقية، ولكن إلى جانب ذلك عرفوا أيضا نوعا من العبيد المتمثل في الأجانب المعتقلين اثر الغزوات، تضع التغريبة ظاهرة العبودية في الحجاز ضمن سياق ثقافي وسياسي محدد حيث تجرى ممارسة العبودية في نطاق الطقوس الرمزية القولية والسياسية[1]، وعلى الرغم من أهمية

---

[1] - فيليب لابورت -تولرا- جان- بيارفا رنييه- انتلولوجيا انترولولوجيا ص 336 .

[1] - **Encyclopédie Larousse le nouveau numéro ,l'Afrique,paris.**

المكانة التي يحتلها العبيد من الناحية الوظيفية فإنهم يشغلون أدنى درجات الهرم الاجتماعي.

العبودية ظاهرة ناتجة عن وجود عنصرين أحدهما يرتبط بالقرابة التي يمكن القول بأنها " عبارة عن انتماء شخصين أو أكثر إلى جد واحد أو اعتقادهم أن لهم جدا واحدا انحدروا منه. وقد تكون القرابة حقيقية وقد تكون متخيلة أو قانونية[1]. حيث يجد العبد نفسه في أغلب الحالات منتزعا من جماعته الأصلية، ويرتبط العنصر الثاني بالاقتصاد إذ يباع العبد أو أفراد من العائلة التي ينتسب إليها في السوق، ومن شواهد ماضي العرب في التغريبة أن جماعة من الشعراء كانوا قصدوا بلاد نجد ومدحوا الأمير حسن بن سرحان كما جرت العادة في ذلك الزمان فأجازهم بالأعطية وكانت من جملتها جارية ثم توجهوا إلى تونس الخضراء ومدحوا السلطان خليفة الزناتي وحاشيته فاحسنوا إليهم ثم باعوا تلك الجارية إلى سعدة[2].

من الطبيعي أن تكون معايير التصنيف في حياة البشر متعددة. ولا يعود سبب ذلك إلى تنوع مجالات النشاط في المجتمع فحسب بقدر ما تصل غالبا بأساليب العمل التي تعتمد عليها الجماعات من أجل

---

[1] - البنائية عند ليفي سروس.

[2] - التغريبة ص 20.

إثبات وجودها. و يأتي مبدأ الغالب و المغلوب ضمن معايير التصنيف التي تساعد على احتلال موقع مهم في المجتمع القبلي باعتبار أن الصراع العنيف هو الخاصية المميزة للعلاقات بين القبائل. إذ كثيرا ما تأخذ القبيلة النهب و السلب و قطع الطريق سيرة لها على نحو ما تعرف عن جماعة الصعاليك المشهورة في العصر الجاهلي. إن الإغارة ظاهرة ملفتة للانتباه و خاصة في الظروف الاجتماعية والاقتصادية الصعبة التي يعرفها المجتمع القبلي، وينتج عن أسلوب الإغارة هيمنة مجموعة من القبائل هي التي تتحصل على ثروة وافرة في وقت قصير على حساب إقصاء وتهميش المجموعات الأخرى التي تعتمد في كسب رزقها على عرق جبينها. وهكذا تقوم الإغارة بدور محوري في تكوين مكانة القبلية ، و يزداد هذا التمايز الاجتماعي بشكل أقوى نتيجة اختلاط القبائل الغالبة مع القبائل المغلوبة، و قد انقسمت على سبيل المثال القبائل البربرية في هذا العصر إلى السلالات العليا و الدنيا. ويعطى ابن خلدون وصفا دقيقا للوضع الاقتصادي للعشيرتين السابقتين، إذ تمارس السلالات العليا حياة الرحل في ظل رماحها مقتاتة من الإنتاج الحيواني ومن الغارات على القوافل بينما تعتمد السلالات الفقيرة على الزراعة باعتبارها أسلوبا أساسيا للعيش. وقد

ساعدت البحبوحة النسبية التي جنتها السلالات العليا من الاغارات بشكل مباشر على استغلال الجماعات الفقيرة من أفراد القبائل الذين استخدموا في الوقت نفسه كسلاح سياسي بيد الأرستقراطية القبيلة[1].

يعد تقسيم العمل بدوره العنصر الحاسم في التغريبة، وهو يدل على تخصص الأفراد أو الجماعات في أنواع من النشاطات التي تتكامل مع بعضها و يؤدي هذا العمل المنظم عدد وافر من الأفراد بطريقة تحقق تكـاملا فيمـا بيـنهم و يشـكلون بـذلك فريـق عمـل[2].

ويثبت كل فرد ينتمي إلى المجتمـع القبلـي كفاءتـه فـي ميـدان معين.صيد الوحوش رعي الماشية وتربيتهـا – حـل النزاعـات بالشريعة الفروسية – و يثبت كل فرد ينتمي إلى المجتمع الحضري كفاءته في ميدان معين. التجارة – البناء–الفروسية– صيد الوحوش – النقش – الفلاحة – السحر و الاتصـال بـالأرواح– المـداواة، وتفسير الأحلام.

ينبغي أن نميز مع ذلك بين النشـاطات ذات المظـاهر الطقوسـية والدينية والرمزية وبين النشاطات التقنيـة والاقتصـادية، وتظهـر بشكل واضح المظهر الرمزي لتقسيم العمل عند كل واحد من هذين النمطين من المجتمع في التغريبة من خلال النشاطات التي " تلامس

---

[1] - فليب لابورت تولرا – جان بيار فرنييه ص 334 - 340 .

[2] - مجموعة من المؤلفين ، دراسات في تاريخ الثقافة العربية ص346.

الحياة و الموت و الخطر"[1] كالفروسية والمسخ والسحر والاتصال بالأرواح.

أما إذا أردنا أن نشير إلى المحتوى الرمزي من حيث علاقته بالنشاط الاقتصادي في التغريبة فإننا نجد أن للرعاة و الصيادين ومربي الماشية رمزيتهم و طقوسهم الخاصة بهم.

وعلى الرغم من التركيز على أهمية الجوانب الاقتصادية والتقنية في التصنيف فانه لا بد من الأخذ في الاعتبار العامل الاجتماعي حيث يمكن لنا أن نبين على سبيل المثال أن تعلم حرفة تربية الخيل عند العرب "تفترض عملية اجتماعية تتجاوز مجرد اكتساب المهارات التقنية"[2] . إن حرفة تربية الخيل تبقى على تقنيتها معزولة عن الإنسان لأنه يتعامل مع الحيوان بصفته مطية ولذلك فان النطاق الذي يجعل عمله في هذا الميدان رمزيا هو الوجه الاجتماعي" ومن الأسماء المشهورة التي تطلق على الفرس الاسم الجواد. وهو ما يؤكد قيمته في التراث العربي . وسمي أيضا الفحل، و كل فارس يطلق على فرسه اسما خاصا يشتهر به وهو ما يرفع مكانته وما يدل على العلاقة الحميمة بين الفرس والفارس.ولا تزال الحياة في العالم العربي ترى أن الفرس أجمل وأنبل

---

[1] - فيليب لايورت تولرا – جان بيار فارنييه ص338 .

[2] - م ن ص 338 .

المخلوقات بعد الإنسان و تمتاز بتناسق أعضائها وصفاء لونها وسرعة عدوها و طاعتها لراكبها عند الكر والفر، وهي معروفة بالشجاعة و القوة و الذكاء و الوفاء، وهي تعرف صاحبها الذي اعتاد أن يركبها و لا تسمح لسواه بان يمتطي ظهرها و عندما ينام صاحبها تسهر بجواره، و عندما تحس باقتراب العدو أو الحيوانات المتوحشة منه توقظه بفرع أقدامه"[1].

ويمكن أن نسوق مثالا قويا من التغريبة يدل على تجاوز علاقة الإنسان بالخيل نطاق العملية التقنية إلى مجال الطقوس والمراسم والرموز والأسطورة" أما دياب فانه حزن على الخضرا كثيرا وأمر أن يغسلوها و يكفنوها بالحرير ويدفنوها و بني على قبرها قبة عظيمة وذبح على قبرها ألف ناقة وفرقها على الفقراء زكاة عن سلايلها و أولادها"[2].

تتناول التغريبة علاقة وضع العبيد بالتقسيم الاجتماعي للعمل، لا تقتصر أدوار العبيد فيها على القيام بأشغال تتناسب مع حالتهم المتدنية كحراسة الممتلكات والمؤسسات التابعة للسلطات الحضرية كالسجون والقصور والمعابد بل يقومون أيضا بمهمات عسكرية وسياسية. ويمارس العبيد بعضا منها تنفيذا لأوامر الجماعة التي

---

[1] -عبد الحميد يونس – السيرة الهلالية ملحمة فروسية ص48-49

[2] - تغريبة بني هلال ص 255.

يكونون تابعين لها كالقيام بدور المرسولين الممثلين للسلطات الحضرية. والبعض الآخر من هذه المهمات صادرة عن رغبات فردية وتصرفات عشوائية طارئة و معزولة لا تمثل بالضرورة الوصاية. إذ يستخدم العبد السلطة السياسية لممارسة اكراه من أجل الحصول من الجماعة على أفعال مرغوب فيها كتخلي الزعيم مكانه واغتصاب زوجته أو ابنته والاستحواذ على ثروته[1].

وتأخذ السلطة هنا معنى مجازيا ليدل على سلوك المراوغة والالتواء، و يمثل هذا المعنى تحويرا للمدلول الأصلي المنحصر في كل ما له علاقة بالحاضرة[2] وتبدو كل هذه الشواهد وكأنها تبرر تقسيم المجتمع البشري في هذا العصر الى الأحرار والعبيد، وتساهم في ترسيخ هذا الوضع الدوني لكون التراتب الاجتماعي يظهر مفروضا منذ وجود الخليفة من الطبيعة وليس من التاريخ[3].

وهكذا يمكن القول أن التغريبة تقدم في النهاية صورة سلبية عن العبيد من خلال صعود السلم الاجتماعي و تقسم العمل إلا أن هذا التصور من خصوصيات المجتمع القبلي المعتمد على البطولة العسكرية إذ كان تقسيم المجتمع العربي في العصر الوسيط متمثلا

---

[1] - تغريبة بني هلال ص .11-12-13.
[2] - فيليب لا يورت تولرا- جان بيار فارنييه ص 113 .
[3] - م ن ص 135 .

في ثلاث مراتب. المحاربون ورجال الدين والرعاة والعبيد. ويبين هذا التصور علاقة تراتبية متتابعة بين المكانات أو المنازل الاجتماعية. و لقد كان هذا التصور العريق أسلوبا شائعا في هذه الفترة للتعبير عن الموقف من العالم البشري ، ومن ثم حين نطلق على شخص اسم المحارب فإنه لا يشمل صفة الذي يحمل السلاح أو صاحب النفوذ بل نعزو إليه أيضا صفات بذاتها منها الكرم والبطولة والنبالة ولم يكن كذلك رجل الدين مجرد إنسان يتميز بالفضيلة والعلم والطهارة الشخصية، إنها نظرة تحمل بعض خصائص الفرقة والتصنيف الساذج للنظام الاجتماعي القائم على الرق حيث لا يوجد بشر وإنما هناك سود وبيض وملونون[1].

حظى الإعلام الشعبي و حاملوه في التغريبة من حيث تقسيم العمل والتصنيف الاجتماعي باهتمام هام باعتبار أن الإعلام التقليدي Media، يمثل الوسيلة الناجعة من عملية الاتصال وتوفير فرص التفاعل بين الأفراد و بين القبائل، الإعلام الشعبي هو وسيلة الاتصال سواء بين أفراد القبيلة الهلالية الواحدة أو بين أفراد السلطات الحضرية الواحدة من جهة وبين الجماعة الأولى التي

---

[1] ـ مايكل كاريذرس ، لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟ الثقافات البشرية ، نشأتها تنوعها ترجمة شوقي جلال عالم المعرفة العدد 229، 1998، ص180.

مارست الغارة والجماعة الثانية التي تعرضت للهجوم الخارجي من جهة أخرى.

إن الهلالين والأعاجم والزنانة كلهم بحاجة إلى الإعلام الشعبي من أجل تفاعل أفرادهم مع ظروف الحياة الاجتماعية كالزواج و الموت والأحداث الطارئة كالغزو والتحالف. إن الإعــلام الشــعبي فــي التغريبة لا يختلف عن الإعلام الحديث يتميزه "بالتعبير عن مراكز السلطة"[1] إن الإعلام الشعبي في التغريبة يخضع لتوجيهات السلطة سواء أكانت قبيلة أو حضرية، و بعبارة أخرى يعتبر حامل الإخبار مجرد واسطة تسخرها السلطة في سبيل الكشف عن العــدو وهــو مطالب بتطبيق الإجراءات التي تقررها السلطة التي ينتمي إليها.

إذ أن " كل مجموعة بشرية تشترك في الزمان و المكان لها نســق اجتماعي تعيشه. وهذا النسق يتطلب عناصــر تفاعــل و وســائل اتصال متعارف عليها بين أفراد المجموعة لكي يحصل التواصــل والتفاهم"[2].

ومن الوسائل التي يعتمد الإعلام الشعبي عليها في التغريبة الطبول والمزامير التي تنقل الرسائل بصفة عاجلة و تتطلب تفاعلا ســريعا مع الحدث الطارئ. ومن وسائل الإعلام الشعبي استخدام الرمــوز

---

[1] - فرح عيسى محمد، دراسات في الفلكلور السوداني، الشركة العالمية للطباعة و النشر ص239

[2] - م ن ص 235

بشكلها المادي المتمثلة في الرايات. أما في مجال الحرب فان الإعلام الشعبي أدى دورا خطيرا في التغريبة. و يتكلف أفراد المجموعتين في التغريبة بالحصول على الأخبار و نقلها، و "تعني بالخبر الوصف الشفوي للواقعة" [1]حيث تتكون مادة الأخبار من الكلمة المنطوقة ، فيذكر حاملو الإعلام الشعبي الحدث بكل تفاصيله منها تحديد المكان والنسب وعدد العساكر وفي هذا المنظور يبدو واضحا أن كل الأخبار لا تدخل في نطاق المعنى المقصود في التغريبة. إذ ينبغي أن نفرق بين الراوي المكلف داخل المجتمع بالمحافظة على الأخبار ويكون بمثابة المؤرخ الرسمي لجماعة لا تعرف الكتابة أو لا تحتاج إليها، وبين شاهد على حوادث يحكي مذكراته بعد فترة قد تطول أو تقصر و بين شاهد على حوادث ينقلها في زمنها الحاضر.

وتعتمد الطبول والمزامير في نقل المعلومات " على إيقاع موسيقى معين متعارف عليه بين الجمهور ، فالطبول عرفت وظيفتها الإعلامية في إفريقيا خاصة جنوب الصحراء ، و قد اصطلح الباحثون الأوروبيون عبارة الطبل المتحدث أن الطبول و آلات النفخ التقليدية (القرن و الصفارة) هي وسائل إعلام شعبية لنقل

---

(1) عبد الله العروي مفهوم التاريخ المركز الثقافي العربي المغرب ط 4 2005 ص 99

المعلومة التي تتطلب تجاوبا عاجلا في حالة الاستنفار لمواجهة خطر الحرب أو درء الكوارث الطبيعية"[1].

وتميز التغريبة في هذا الصدد "بين الإخبار بما حدث والأنباء بما سيحدث" إن المفهوم الأول مبنى على تحديد مكان الحدث وزمانه وتعيين الأشخاص الذين ساهموا في صناعته في حين تشكل الأنباء بما سيحدث من خلال ضرب الرمل وتفسير الأحلام والتنجيم جزءا من المستقبل القريب أو البعيد. ولعل الشعر في التغريبة هو الأكثر خطورة كوسيلة لتوصيل الأخبار للقبيلة، ذلك لأن الإبداع الشعري لا يكتفي بحمل الأخبار والمعلومات عن الحدث ولكن يقدمها بأسلوب فني. فهو يضفي عليها المشاعر والأحاسيس والانفعالات والاندفاعات و وجهات نظر حول الرسالة يؤكد فيها تأييده أو اعتراضه الأمر الذي يكون له أثر كبير على السامعين.ويستخدم الشعراء في نقل المعلومات الأساليب البلاغية من تقديم و تأخير ومن إيجاز واطناب وانتقاء الكلمات المؤثرة والجمل البليغة إذ لا يمكن أن نتصور رسالة الشاعر منعزلة عن الصراع القائم بين الهلاليين و السلطات الحضرية. فقد كان الشاعر الهلالي واحدا من أفراد القبيلة محروما من حق العبور واستهلاك الزرع. كما تعبر

---

[1] - م ن ص 241

عن ممارسات الملوك المستبدين والنفوذ الذي كان الرهبان والعبيد يمارسوه في السلطة الحضرية.

فيصبح الشاعر هو الإعلامي الرسمي عند شيخ القبيلة، في حين تعتمد السلطات الحضرية في الحصول على الأخبار و نقلها على المزارعين و الرعاة و التجار الذين تقوم نشاطاتهم على التجوال ويصبح المزارع أو الراعي الإعلامي الرسمي عند الملك.

وهكذا نجد أن حاملو الإعلام الشعبي في التغريبة يستمدون أصولهم من فئات اجتماعية متنوعة، و كل واحدة من هذه الزمر الاجتماعية أساليب خاصة بها تقودها إلى مصدر الخبر. وتختلف وسائل الإعلام الشعبي في التغريبة من حيث القيمة الاجتماعية والسياسية يستعمل الطبول والمزامير والرايات إشارة إلى انطلاق رحيل الهلاليين من محطات العبور. كما تستخدم الرايات بصفة خاصة لتحديد هويتهم العربية الإسلامية حيث يندمج اسم كل جماعة صغيرة منهم في الشعار الذي تحمله السلالة الحاكمة في هلال.

ورغم الأهمية القصوى التي تشكلها المهمات المفروضة على الشهود الحرفيين فإنهم مع ذلك يحتلون مكانة أدنى من الشعراء والمحاربين والرهبان.

دوافع الحكي والفضاء والتاريخ

دوافـــع الهجرة إلى الغرب

هجرة الهلاليين إلى إفريقيا وأسبابها:

إن الهجرات السامية من الجزيرة العربية معروفة منذ العهد القديم، وقد تمثلت أسبابها غالبا في الجفاف الذي الحق ضررا فادحا بالنبات، والنزاع على السلطة الذي أدى بدوره إلى تهديم السدود وخزانات المياه، وقد هاجر أهل الجزيرة إلى إفريقيا الشمالية التي لا تفصلها عنهم سوى بحر ضيق سهل العبور، ولم يقتصر الانتقال على العرب فقط بل انتقل بعض العناصر من إفريقيا إلى الجزيرة دون أن يكون ذلك بتأثير الحاجة المادية مثل تجارة العبيد بقدر ما كانت بمحض إرادتهم إلا في بعض الحالات القليلة.[1] وقد نبغ عدد منهم في العصر الجاهلي في قول الشعر مثل عنترة بن شداد. وإذا المغرب فترة طويلة من الزمن بعيدا عن النفوذ الخارجي وكان الأتصال بينه وبين الجزيرة محدودا فان ذلك يعود إلى صعوبة بيئته الجغرافية التي وقفت حائلا أمام دخول العناصر البشرية داخل أراضيه. فالصحراء التي تقع في شماله كانت حاجزا أمام العرب إذ منعتهم من التوغل إليه كما أن نهر النيل لم يكن من السهل عبوره، كما أن العرب لم يكن لهم دراية بأرض المغرب، ولان السكان

---

[1] - أنظر احمد نجم الدين فليجة، إفريقيا دراسة عامة وإقليمية مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ص 27-29

الأصليين يظهرون كثيرا من المقاومة اتجاه الشعوب التي ترغب في الدخول إلى بلادهم.[1]

وإذا كان موطن العرب الأول هو الجزيرة فإنهم لم يبقوا قابعين فيها خلال الزمن ولم تحصرهم حدودها الجغرافية داخلها ولم تمنعهم من الانتشار في مناطق أخرى، وقد كانت الهجرة من الجزيرة إلى أطرافها نوعين، أحدهما موسمي، مثل تنقل الرعاة الذين يطلبون عناصر الحياة فيدخلون بلاد الرافدين أو بادية الشام، ولا سيما في فصلي الصيف والربيع، ثم يعودون إلى منازلهم في الجزيرة، بينما تميز النوع الثاني من الهجرة بالدوام حين ترحل قبائل كلها إلى أراضي جديدة على ضفاف الدجلة والفرات أو قرب بردي، أو حوران، أو الجولان أو وادي النيل، أو تجتاز إلى إفريقيا. وتؤدي هذه الهجرات دورا بالغا في إنشاء المدن وتساهم في ترقية الإنسان في مجالات متعددة. [2]

وإذا كانت شبه الجزيرة خزانا للهجرات البشرية باختلاف دوافعها طيلة العصور الطويلة فانه ينبغي أن نذكر في البداية أن هجرتين كبيرتين حصلتا فيها، وتعتبر الأولى حادثة أساسية جرت

---

[1] - أنظرعبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المجلد السادس القسم الاول11 دار الكتاب اللبناني ص 26

[2] - أنظر أنور الرفاعي ، الإنسان العربي والتاريخ دار الفكر 1971 ص 16، 17

في القرن الأول للهجرة الموافق للقرن السابع الميلادي قام بها الجيش والحاكمون الأمويون، وقد أسست هذه الهجرة في افريقيا الشمالية هيئات إدارية وأقامت جماعات من الجند في سبيل حراسة المواقع الحيوية، ولا يقل عدد القادمين عن مائتي ألف مقاتل واستوطنوا العواصم والمدائن والقرى واغلبهم ينتسب إلى القحطانيين، وقد نزح منهم قسم إلى الأندلس وبقي جزء وافر في إفريقيا ولا سيما القيروان.[1]

أما الهجرة الثانية وهي التي قام بها الهلاليون في القرن الخامس الهجري الموافق للحادي عشر الميلادي إلى إفريقيا، وتمثل هذه الهجرة الطور الأخير والمشهور من اغترابهم.

وإذا حاولنا أن نتناول الأسباب التي جعلت قوم الهلاليين يغادرون بلادهم الأصلية ويقيمون في إفريقيا نجد أن هذه الهجرة الثانية انطلقت من شبه الجزيرة العربية التي يقسمها العلماء عادة إلى الحجاز التي تشمل مكة والمدينة واليمامة ونجد والعروض واليمن، ويزيد ابن حوقل بادية العراق وبادية الجزيرة (بين الدجلة والفرات) وبادية الشام.[2] وينقسم سكانها من الجانب الاجتماعي إلى

---

[1] - أنظر محمد المرزوقي، منازل الهلاليين في الشمال الإفريقي، سيرة بني هلال، أعمال الندوة العالمية حول السيرة الهلالية الدار التونسية للنشر 1990 تونس ص 19.

[2] - أنظر ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، الطبعة الثانية القسم الأول ص 19.

جماعتين إحداها تمارس النشاط الزراعي كالنخيل، وتطلب الجماعة الأخرى الرزق بالرعي. ومن المعروف أن الصحراء تستحوذ على قسط كبير من مساحة الجزيرة حيث تسيطر النباتات الضارة فيها على غيرها وتزحف الكثبان الرملية عليها وتتميز بجفاف شديد وارتفاع درجات الحرارة وانخفاض كميات الأمطار وإستمرار الرياح والعواصف، وتغطي المراعي بالحصى وحبيبات الرمل، تترتب عنها موت الكثير من الماشية.

ومن هنا تنتقل هذه الجماعة غالبا بين البلدان المجاورة التي يرحب أهلها كثيرا بقدومها ويعيرون اهتماما بالغا بشؤونها، والسبب في ذلك يعود إلى أن هؤلاء العرب صالحون للتجنيد في وحدات عسكرية يسخرونها في الوقت المناسب في سبيل قمع حركات التمرد التي يقوم بها السكان.

ويرجع نسب العرب الذين يعيشون في الجزيرة إلى بني هلال وبني سليم وبني زعبة ورياح. وقد كان بنو هلال يقيمون في إقليم الطائف وجبل غزوان بينما شغل بنو سليم القسم الشمالي الذي يمتد بين المدينة وتيماء في حدود رمال دفود ووادي القرى وكانت

أماكن الهلاليين وأوديتهم ومياههم شائعة مثل بيشة وتربة ووادي جلذان ومياه البقعاء ومن أيامهم يوم الوندة وهي بالدهناء[1]

وكان اسم هلال طاغيا على القبائل المتنوعة ويتمثل السبب في ما كان لهم في ذلك الوقت من نصيب وأفر في الزعامة إلى جانب سهولة هذه التسمية في النطق بها. [2]

وعندما جاء العصر الاسلامي ظهرت حركة التمرد التي قامت بها القبائل العربية ومنها الهلاليون في القرن الأول. وقد رفضت تسديد عشور الزكاة بعد زمن من موت الرسول (ص) وانظم بنو هلال وبنو سليم إلى الخصوم المعاديين للمسلمين في حرب الخندق وتحالفوا مع اليهود وقريش. وخاض بنو هلال حروبا متعددة ضد الجيوش الإسلامية التي هزمتهم وفرضت عليهم دفع الضريبة باستمرار. [3] ويدل هذا الموقف على أن رؤساء القبائل لم يجدوا من مصلحتهم الاستجابة لدعوة الدين الجديد إلى إلغاء الوحدة القبلية.

---

(1) - أنظر عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة دار العلم للملايين الجزء الثالث بيروت 1968 ص 1221.

(2) - أنظر عبد الحميد يونس، الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي مطبعة جامعة القاهرة 1956 القاهرة ص 62

(3) -Georges Marçais, les arabes en Berberie, édition Archat paris, page 64, 65.

ولما انطلقت حركة القرامطة في شرقي شبه الجزيرة العربية، انظم بنو هلال وبنو سليم إليهم ولم يكن لهؤلاء العرب البدو من غرض في ذلك إلا رغبة في العصيان وخروج على النظام في الدولة العباسية، والفاطمية، وحيث ساد في هذه المرحلة التفاوت الحاد بين الناس في الثروة والتعصب في الدين والتسلط في ممارسة السلطة، وأعلن القرامطة دعوتهم واندفعوا إلى العنف الدموي وخاضوا حروبا دامت خمسة عشر سنة، وقد وجدت دعوة القرامطة إقبالا كبيرا عند الهلاليين إذ استطاع أن ينضم إلى صفوفهم عدد وافر من زعمائهم بفضل نظام يقوم أساسا على الأخوة [1] ومن المعلوم أن القبائل العربية التي عاشت زمنا طويلا خارج المدن تقدس الزعماء التقليديين الذين خاضوا القتال في سبيل الجمع الغفير الذين يعانون من الجوع ولا سيما أن بعضا من هؤلاء الزعماء قد فشلوا في الحصول على العضوية في الطبقة العربية التي سيطرت على السلطة الأموية. [2]

ولما انهزم القرامطة وكان الغالب في نزوح العرب عن بواديهم ودخولهم المدن والإقامة فيها والعيش في أكنافها أن يكون

---

(1) - أنظر مصطفى غ[illegible] القرامطة بين المد والجزر دار الأندلس الطبعة الأولى 1979 ص 7، 8.

(2) - أنظر عارف تامر، القرامطة أصلهم ونشأتهم تاريخهم حروبهم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ص 24

بأمر من بعض الخلفاء أو الأمراء ليكونوا لهم سندا قويا عند الحاجة يوفرون لهم المراعي الخصبة ويقدمون لهم العطاء الغزير ويضمنون لهم الحماية، وهذا هو النهج الذي سلكه العزيز بالله الفاطمي حين نقل بني هلال وبني سليم إلى صعيد مصر ولم تمضي إلا فترة وجيزة حتى اكتظت الصحراء الشرقية بهم ولم يبق لهم عدد بالحجاز أو الشام أو البحرين، ولبثوا في مصر زمنا وانضمت إليهم جماعات أخرى من الأعراب، وكانت الغاية من هذا العمل تتمثل في التقرب إليهم لأن الفاطميين كانوا يعتزون بالانتساب إلى قريش ويسعون في سبيل الاستعانة بالعناصر العربية في حروبهم وتدعيم قوتهم واستغلال العصبية فيهم. [1]

وعندما نتحدث عن الأسباب التي دفعت الهلاليين إلى الرحيل إلى إفريقيا فإننا نعني كذلك الأزمة الشديدة التي عرفتها مصر في هذه الفترة، وقد مر الشعب المصري بحالة من البؤس في ظل الحكم الفاطمي وكانت بسبب السياسة المالية التي لم تكن تقدر ظروف مصر إلى جانب حب الفاطميين وجشعهم في جمع الأموال

---

[1] - أنظر عبد الفتاح مقلد الغنيمي، موسوعة تاريخ المغرب العربي، مكتبة مدبولي، الجزء الرابع، الطبعة الأولى 1994 القاهرة ص 146، 147.

حيث كانوا يحتجزون الأموال ويقومون بها في التجارة أو شراء العبيد حتى يعود عليهم بالنفع. [1]

وترجع هذه الأزمة أيضا إلى طمع الأمراء وتطلعهم إلى السلطة وتنافسهم الحاد على المناصب التي استغلوها في سبيل تحقيق مصالحهم الخاصة، وقد أصبحت سلطتهم على درجة كبيرة من الضغط وعجزوا عن السيطرة على مقاليد الأمور في البلاد، ولم يستطيعوا أن يقوموا بالأعباء الملقاة على عاتقهم وتوطيد الأمن داخل ربوع مصر وتوفير الراحة والاستقرار للسكان فتدهورت الشؤون العامة وانتشرت النزاعات والفتن بين الناس.

ويعود سبب هذه الأزمة في مصر أيضا إلى نقص فيضان النيل، وقد ظلت منابع هذا النهر سرا غامضا لم تتكشف إلا منذ منتصف القرن الماضي بفضل الرحلات التي قام بها العلماء، وقد كان قياس ارتفاع المياه أمرا هاما منذ وقت قدماء المصريين وتغير منسوب مياه النهر عبر العصور، وأثبتت الوثائق أن مستوى مياه النيل قد انخفض باستمرار وأدى إلى تعذر ري الأرض وحدوث مجاعات متلاحقة في الفترة قبل الميلاد، وفي أوائل العهد العربي كان النيل يبلغ نهاية ما تدعو الحاجة إليه، وقد كانت حياة مصر

---

[1] - أنظر م ن ص 47.

متوقفة على مستوى الفيضان فتبور الأرض وينتشر الوباء والمجاعة إذا انخفض مقدار المياه ويعم الرخاء إذا ارتفع منسوب النيل. ويتبين من هذا انه على قدر منسوب المياه تكون درجة الوفرة ومستوى أسعار المواد الغذائية، والأزمة الكبيرة التي حدثت في عهد المستنصر بالله الفاطمي في القرن الحادي عشر الميلادي كانت نتيجة نقص منسوب مياه النيل عن بضع سنوات.[1]

ويعتبر عبد اللطيف البغدادي شاهد عيان زار مصر في أواخر القرن الثاني عشر ووصف الحياة البشعة التي كانت سائدة فيها في مجالات متعددة، ويرى أن الأزمة في مصر قد حدثت في عام ألف ومائتين الميلادي وأصاب القنوط الناس جميعا من زيادة النيل، وتغيرت أحوالهم نحو الأسوء.

وبد الجفاف يهددهم والجوع يخيم في كل مكان ونزح الغالبية من الناس تحت وطأة هذه الآفات إلى البلدان المجاورة كالشام والمغرب والحجاز واليمن لتامين الغذاء والأمن، ولم يضطر الرجال والنساء الذين ينتمون إلى الطبقة المحرومة لتناول الجيف الكلاب والبعر فحسب ولكنهم أكلوا صغار الجنس البشري، وكان الجوع الذي عانى منه هؤلاء الناس البسطاء في مصر من الضراوة

---

(1) - انظر عبد الفتاح محمد وهيبة، الجغرافية التاريخية بين النظرية والتطبيق، دار النهضة العربية 1980 ص 245، 248، 249، 250، 251.

ما جعلهم ينبشون القبور ويأكلون الأموات، ويبيعون لحومهم في كل أنحاء مصر. [1]

وقد تجردت المساكن والدكاكين والقرى التي كانت تشتمل على عشرة آلاف نفس تقريبا من أهلها، وفي السنة التالية من الأزمة لم يصمد المعوزون في وجه هذه المجاعة العنيفة فانخفض موت هذه الزمرة لقلتهم وانحطت أسعار القمح لان الذين يستهلكون هذا المورد صاروا محدودين وأصابت الأزمة المدن في نشاطها الزراعي والتجاري حيث بارت الأراضي الخصبة لان السكان عجزوا عن القيام بخدمتها وكادت الفئة التي يمارس أفرادها كما جرت العادة في المدينة الحرف والصناعات التقليدية تنقرض. [2]

ويعد المقريزي المؤرخ الذي أكد بدوره هذه الأزمة التي ساهمت بشكل حاسم في إضعاف مصر في هذه الفترة ونقل الهلاليين إلى إفريقيا. فهو يرى أن مصر في هذا العهد كانت تعتمد على المحصول الزراعي الذي تأثر تأثرا شديدا بالطقس الحار. وكانت النسبة الكبيرة من السكان تتألف من الفلاحين الذين كانوا يمارسون العمل الفلاحي في سبيل الحفاظ على بقاء العائلة. غير أن

---

(1) ـ أنظر عبد اللطيف البغدادي، الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعانية بأرض مصر، 1810 باريس ص 119، 157

(2) ـ أنظر عبد اللطيف البغدادي، الإفادة والاعتبار ص 157

مياه غير أن مياه النيل توقفت عن الجريان وتعطلت الأراضي من العطاء وأدى المردود الزراعي الضئيل إلى رفع أسعار الحبوب ولا سيما القمح، وازداد الوضع في مصر انهيارا، الأمر الذي أدى إلى ظهور الوباء والجوع اللذين كانا سببا مباشرا في موت عدد وافر من الناس بمختلف أعمارهم ومراتبهم. [1]

إن العلاقة التي كانت تضم المجاعة إلى الوباء الذي كان يطلق عليه في العهد القديم اسم الطاعون معروفة، وقد كان هذا المرض الخطير في الغالب مزيجا من التيفوس والدوسنتاريا والجدري والآثار التي تنجم من سوء التغذية. [2]

ولقد اضطر أهل مصر ليأكلوا أنواعا من الحيوانات الأليفة التي حرمتها الديانة الإسلامية كالكلاب والقطط. وهاجم الموت السكان وشمل كل فئاتهم الفقيرة والغنية على السواء، ولم تكن السلطة قادرة على حماية رعاياها من الهلاك، وعندما تعذر بقاء الإنسان على قيد الحياة بسبب ندرة القوت خرج حشود من أهل مصر ولا سيما النساء إلى الشوارع يشكون الفاقة ويطلبون من قادتهم أن يوفروا لهم ما يسدون به رمقهم، وكان الخوف يفشوا في

---

(1)- أنظر المقريزي، إغاثة الأمة تكشف الغمة وتاريخ المجاعات في مصر دار ابن الوليد ص 23

(2) - أنظر روبرت لافون- جرامون، التاريخ، ترجمة نادية القباني شركة ترادكسيم 1977 جنيف ص 87، 88

نفوس الناس كلما عزموا على الرحيل إلى مكان معين في مصر، إذ كثيرا ما يصابون بالأذى في البوادي والمدن لان سبلها عامرة بالجماعات التي تمارس الاحتيال والإغارة والنهب في سبيل الحصول على موارد العيش، وقد كان جمع غفير من الأفراد يغتصبون أموال غيرهم ويسرقون الحيوانات والممتلكات التي يعثرون عليها عند المسافرين.

وقد بلغت الأزمة حدا في مصر أجبر الخليفة المستنصر على بيع قطع من الأثاث الثمين الذي كان موجودا في قصره من اجل لقمة العيش.[1]

ونلمس عند أي فلاح وصفا دقيقا لبلاد مصر التي لم تؤمن بقاء سكانها من الانقراض، ويرى أن الأرض غمرها القحط الشديد وانتشرالجوع المفرط والغلاء والوباء الخطير فيها إلى حد لا يصدقه العقل.

وقد أدت هذه الحوادث إلى أن يصبح أكل الجيف في صفوف الناس أمرا شائعا، واضطروا كرها إلى بيع فلذات أكبادهم.

---

[1] ـ أنظر أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مركز الموسوعات العالمية الجزء الرابع والخامس والسادس والسابع بيروت ص 238، 428، 47، 131

ولقد قتلت هذه المصائب ثلاثة أرباع من أهل الإقليم واخرج أهل مصر في اليوم الواحد ألف وخمسمائة جنازة وكانوا يحفرون القبور الكبيرة ويدفنون فيها جمعا غفيرا من العباد. [1]

ولعل للعامل السياسي دورا في هجرة الهلاليين إلى إفريقيا، ومن المعروف أن الدولة الفاطمية كانت إمبراطورية ذات شان عظيم في العصر الوسيط وأسست كيانا سياسيا قويا بمصر دام قرنين من الزمن، وكانت للعائلة الفاطمية منذ البداية صفة مزدوجة، فقد كانت حكما سياسيا من ناحية وجماعة دينية تدعو إلى مذهب الشيعة من ناحية أخرى. ومع ذلك ينبغي الإشارة إلى أن الأغراض الاجتماعية والسياسية هي التي تركز اهتمامها عليها بالدرجة الأولى[2] وان كانت تؤكد دائما بقوة على دورها بوصفها قوامة على السلطة الدينية في إفريقيا، وقد كان هدف الخلافة الفاطمية يرمي أساسا إلى إخضاع أقطار المغرب كلها وتوحيدها تحت إرادتها ويتمثل غايتها في تأسيس نوع من الإمبراطورية العربية بديلا عن الإمارة الزيرية وذلك من اجل حماية الدعوة الشيعية التي

---

(1) - المقريزي، إغاثة الأمة ص 24.

(2) - أنظر احمد أمين، ظهر الإسلام المجلد الأول دار الكتاب العربي الطبعة الخامسة 1969 بيروت ص 189

عرفت تقهقرا كبيرا بسبب انتشار المذهب المالكي في اغلب ربوع المغرب وإقبال أهلها على اعتناقه بالقدر الوافر.

كما أن الفاطميين كانوا يدبرون حركات التمرد في أقطار المغرب ليحافظوا على مواقعهم فيها حيث استغلوا الخلاف القديم بين القبيلتين البربريتين المتمثلتين في ضهاجة وكتامة حول القيادة السياسية.

وإذا نظرنا إلى الحكم الفاطمي من الزاوية الاجتماعية وجدنا انه قام على أصناف من الضرائب الباهضة التي ألحقت ضررا فادحا بسكان إفريقيا مثل العقار والخراج، كما أن الفاطميين قد اضطهدوا عددا كبيرا من العلماء بالمغرب الذين اعتنقوا المذهب السني.

وهكذا حرص الفاطميون على تامين ضمانات لهم في إفريقيا بتنصيب قبيلة صنهاجة على راس الإمارة في القيروان، وكان من شأن هذه القبيلة البربرية الدفاع عن مصالحهم الحيوية والحفاظ على ملكهم من غارات زناتة البدوية. وقد شهدت العلاقة بين الفاطميين والزيريين تطورا حاسما منذ وصول المغربي باديس إلى قمة السلطة في إفريقيا وذلك عندما اخذ هذا الأمير القرار الخطير

المتمثل في نقض طاعة الفاطميين وتحويلها إلى العباسيين سنة 443هـ.

وقد رأى الفاطميون في هذا الموقف فرصة سانحة لاستغلال قوة الهلاليين في مقاومة الدولة الزيرية في القيروان ولا سيما أن هؤلاء الأعراب كانوا يميلون دائما إلى إثارة الشغب في بلاد مصر. وظل الفاطميون ينتهزون الفرص التي أتاح لهم المغربي باديس من اجل تقليص عدد الهلاليين والتخلص منهم وإنزالهم في إقليم جغرافي محدد دون أن يكلفهم ذلك عناء الحرب معهم بعد أن ضايقوهم فترة طويلة من الزمن، وقد تلقت دعوة الفاطميين استجابة واسعة من الهلاليين بعد أن أصلحوا بين القبيلتين بني زغبة ورياح اللتين وقعت بينهما عداوة كبيرة.

وتقدم اليازوري لمشايخهم وطلب منهم أن يتولوا أعمال إفريقيا نيابة عن الفاطميين، وقد حمل معه الهدايا القيمة والجوائز الثمينة لأمراء العرب و تحملت الدولة الفاطمية ديات القتلى بين الطرفين ووهب للعرب المدد والعدد [1] وأذن لهم بعبور النيل غربا بعد أن كان محرما عليهم، وقطع بنو هلال وبنو سليم النهر الكبير في جموع حاشدة، وهكذا نظر الفاطميون إلى الهلاليين على أنهم

---

(1) ـ أنظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر الجزء 9 ، 1965 بيروت ص 566

جماعات يجب ترويضها بالتضليل والخديعة وشاهدوا بالفعل رحيلهم عن مصر رحيلا جماعيا ولم يصدقوا أعينهم.

ونلمس في الخطة التي رسمها الفاطميون رغبة واضحة في تقسيم الدولة الزيرية إلى إمارات وتوزيع مجموع المقاطعات والأقاليم بطريقة تعسفية على القبائل العربية وتحويل شيوخها وأعيانها إلى موظفين إداريين منضبطين[1]

وقد نزح الهلاليون إلى إفريقيا دون أن تكون لهم رغبة في تقديم يد المساعدة للفاطميين الذين يتطلعون إلى تحقيق أهدافهم الاجتماعية والسياسية في افريقيا ولا سيما أن الخلافة الفاطمية وعدتهم بتحسين وضعهم البشري الذي دفعهم إلى قطع مسافات طويلة. ولذلك يمكن القول أن الهلاليين لم يضمروا بغضا لصنهاجة ولكنهم رحلوا طلبا للرزق، ثم إن الهلاليين لم يكونوا أبدا نوابا على الفاطميين في تدبير شؤون الدولة الزيرية، إنهم بدون شك هزموا الأمير المغربي باديس واحتلوا إمارته القوية غير أنهم لم يتمكنوا من إعادة السلطة الفاطمية ولم يمارسونها، ولذلك فشل الفاطميون في تأسيس دولة عربية تابعة لهم بإفريقيا بواسطة الهلاليين وظلت غايتهم حلما لم يتحقق.

---

(1) -Georges Marçais, les arabes en berberie, page 82

أحداث نجد وأثرها في الهلاليين

ظلت التغريبة في حديثها عن رحيل الهلاليين إلى الغرب وأسبابه متحررة من الرؤية التاريخية وأكثر وضوحا منها لأنها حصرتها في العوامل الطبيعية والاجتماعية، ولو أن المؤرخين متفقون على مشاركتها الفعالة في حركة الإنسان على سطح الأرض فان الإشارة إلى هذه العناصر التي ساعدت على هجرة الهلاليين إلى الغرب تكاد تكون منعدمة.

يعتبر القوت في المرتبة الأولى في ترتيب الحاجات الأساسية حسب درجة ضرورتها للإنسان، وهو بهذا المفهوم يشكل جزءا مهما من شروط المعاش للهلاليين والمقصود بالقوت في سياق هذه الدراسة هو الموارد الأساسية التي توفرها الطبيعة من أجل تجديد طاقة الكائن البشري، كمياه الشرب وثمار الشجر ومنتوجات الحيوان. بدأت التغريبة في تناول المعاش في نجد بوصفه مسالة حيوية، إذ تعود بنا إلى الفترة الغابرة حيث كانت ارض نجد مثمرة، وقد وردت كلمة الخصوبة في التغريبة بصيغة التفضيل "أخصب بلاد العرب"[1] كما انحصر مدلولها من حيث العطاء في حدود التنوع والوفرة الذين يميزان نجد أكثر من سائر

---

[1] - تغريبة بني هلال ص 02.

البلدان العربية الأخرى. إنها "كثيرة المياه والغدران والسهول والوديان" [1] وقد كانت نجد المهد الأول للهلاليين ومنهم الشعراء، وكان مفهوم الوطن هو الذي شغل حيزا كبيرا من قصائدهم.

إن الدور الذي تسنده التغريبة إلى الشعراء يكاد ينحصر في وظيفة تمجيد الوطن، وقد كان حب الوطن سببا في تماسك القبيلة، إذ كانت بلاد نجد "يذكرها شعراء الزمان بالأشعار الحسان وتفضلها على غيرها" [2] غير أن مرحلة الاستقرار التي عرفها الهلاليون في الماضي البعيد لم تستمر بسبب عدم توفر مقومات الحياة، وبما أن الهلاليين جماعة بدوية لم يوجهوا اهتمامهم إلى سبل التغلب على الأزمة الطبيعية بقد ما فضلوا الحل القديم الذي يتمثل في الهجرة خارج البلاد الأصلية. ومن هنا جعلت التغريبة الطبيعة القاحلة وما أنجر عنها من أخطار أساسا للرحيل إلى الغرب ولجأت إليها لتبرير شرعيته. تصف التغريبة وضع الهلاليين في مرحلة معينة من حياتهم في بلاد نجد التي تأثرت بالجفاف، الأمر الذي ساعدها على تكوين فكرة واقعية عن الأزمة بعيدا عن المبالغة والدعاية وتضخيم الحدث.

---

(1) - م، ن ص 02

(2) - م، ن ص 02

وقد استغرق القحط سبع سنوات بأسرها في بلاد نجد، في أول سنة أخذت الأرض اللون الأسود، والسنة الثانية ازدادت أوجاع أهل نجد وآلامهم. والسنة الثالثة يبس النبات وصار الشجر حطبا مطروحا على سطح الأرض، والسنة الرابعة فرت المطايا من البوادي وتنازعت كل وحوش البر، والسنة الخامسة انقرض النخل جميعه وانتشرت المجاعة في كل أرجاء نجد والسنة السادسة شعر الهلاليون بالإهانة وهدر كرامتهم وحرمتهم، والسنة السابعة اضطر الهلاليون إلى البحث عن حل سريع لهذه المعضلة. [1]

إن العنصر الأساسي الذي صنع الأزمة في بلاد نجد معروف يتمثل في الجفاف، والأزمة من هذه الزاوية في التغريبة هي تشخيص لوضعية اجتماعية يأخذ بالحسبان الأرض الجرداء والمناخ الحار والسكان الذين يعانون من الجوع.

ويدل الجفاف بالمعنى الشائع على الأرض الخربة التي تفقد كل ما من شأنه أن يبعث فيها الحياة كالماء و النبات والحيوان، وليس الجفاف في بلاد نجد ظاهرة طبيعية فحسب ولكنه تدمير لحياة الهلاليين في الوقت نفسه. وقد عبر انجراف التربة والمناخ في بلاد نجد تعبيرا ملموسا وكانت آثاره عليها واضحة جدا. وكان

---

[1] - أنظر تغريبة بني هلال ص 08.

المحيط الطبيعي أكثر تأثيرا عند الهلاليين لأنهم بدو يجهلون الأسباب التي تؤدي إلى حدوث ظواهره ولا سيما الجفاف ويشعرون بانعدام الاطمئنان ومن هنا يمكن القول أن التغريبة رفعت من شان العامل الطبيعي على حساب العامل البشري في تقرير مصير الهلاليين وتحديد مستقبلهم.

وتتحدث التغريبة عن الجفاف في بلاد نجد بمقدار تطوره في الزمن، وهي تميز بين ثلاثة أنماط من الزمن، يتمثل الأول في الزمن الموضوعي الذي حدد المدة التي استغرقتها المجاعة وحصرها في سبع سنوات، ويتعلق النمط الثاني بالزمن التاريخي الذي أشار إلى أن الأزمة جرت في السنة الستين وأربعمائة بعد الهجرة. [1] وارتبط النمط الثالث بالأبدية حين سجل زيد بن مانع هذه الأحداث في الديوان، ويعتبر التدوين الوسيلة الحسية التي لجا الهلاليون إليها، وقد كان العرب يسجلون أيامهم وأخبارهم وأحداثهم ويضبطونها في الأوراق كما سمعوا بها أو شاهدوها. إن تدوين الأحداث تقوم على أساس تقدير الناس لها والخوف من تزييفها وتشويهها، إن الرواية قليلة الجدوى لأنه يطرأ عليها التعديل والزيادة والنقصان، وصاحبها معرض للموت والانقراض. بينما

---

[1] - أنظر م، ن ص 08.

الكتابة ظاهرة تقاوم الزمن، إذ أن دورها في الحفاظ على الأحداث طويل الأمد، والأبدية إذن تعني "صفة من صفات الخبرة التي تقع فيما بعد الزمن الفيزيائي و خارجه"[1]

سجل السلطان حسن بن سرحان الحوادث التي حصلت في بلاد نجد في الكتاب، فالسلطان حسن لم يدون هذه الحوادث معتمدا على روايات الناس بل جال في مختلف أرجاء نجد. وهذا ما يجعل ملاحظاته ذات قيمة عالية لأنه دون ما شاهدته عيناه من ظواهر.

لم ترق هذه الأحداث إلى مستوى الرمز لأنها واضحة ومباشرة ومع ذلك إكتسبت عمقا وشمولا وظهرت ببعدها الإنساني غير مرتبط بظروف مؤقتة، أو ضيقة.

إن إستخدام الكتابة في سبيل تسجيل الأحداث يعطينا فكرة دقيقة عن أهمية الكارثة التي حلت ببلاد نجد، ذلك أن الهلاليين لم ينظروا إلى الأزمة على أنها ظاهرة طبيعية بالمعنى المألوف ولكنهم اعتبروها شهادة بالدرجة الأولى. ويتحدد دور الجفاف في التغريبة على انه ظاهرة ذات آثار خطيرة، وتبدو المجاعة في التغريبة أشد تميزا وإن كان ليس من الميسور رسم الحدود بين المجاعة والجفاف فيها. وقد كانت المجاعة في بعض المجتمعات

---

[1] - أنظر هانز ميرهوف، الزمن في الأدب ترجمة أسعد رزوق مؤسسة سجل العرب القاهرة ص62

القديمة التي قامت على التباين في الثروة تصيب زمرة معينة من الناس البسطاء. واختلف الأمر بالنسبة للبيئات البدوية التي تتصف بنيتها الاجتماعية بالخاصية الجماعية. إذ تضم هذه الجماعة قسما كبيرا من العائلات التي تعيش من الرعي وتربية الماشية وتربط هذه الجماعة عادة بانعدام الثقة تجاه العالم الخارجي وشعور قوي بالتضامن على الغالب، لقد كان الهلاليون مهددون دوما بسبب المجاعة لأنهم يعيشون من القوت الذي يتحصلون عليه في اليوم الواحد ولا يملكون مدخرا ماديا لان وجودهم قائم يوما بعد يوم بفضل محصول الطبيعة. وإذا تمكن الهلاليون من البقاء على قيد الحياة، رغم المجاعة فإنهم تأثروا تأثرا شديدا من استمرارها مدة طويلة متمثلة في سبع سنوات.

والمجاعة مشكلة قديمة يعزى انتشارها إلى نقص طاقة الإنسان على إنتاج الثروة من الطبيعة، وتحدث المجاعة عندما يكون الغذاء في بلد معين مفقود أو متوفر بمقدار ضئيل، ويعد الجفاف السبب الأساسي الذي يسبب في المحصول الزراعي الرديء، وينحصر معنى المجاعة البيولوجي في الحاجة الملحة إلى الطعام، وتفرض المجاعة سلوكات غريزية تتميز بها مثل فقدان الشهية فالإنسان المعوز لا يحس بحالة الجوع بقدر ما تبدو في

شكل من الخوف بسبب النقص في موارد العيش يعتقد انه بحاجة ماسة إليه.[1]

ومن عواقب المجاعة موت عدد كبير من العباد وهجرة جمع غفير منهم خارج بلادهم الأصلية.

من الواضح أن التغريبة لم تختر العدد سبعة اعتباطا، إذ تمثل أيام الأسبوع الوحدة الأساسية لتقدير الزمن، ثم أن العدد سبعة ورد بكثرة في الطقوس الدينية التي مارسها الإنسان عبر العصور، وقد كان حضور هذا العدد كثيفا في الدين الإسلامي حيث تكرر فيه أربعا وعشرون مرة. وقد ارتبط معناه الخاص بالسموات والسنوات والأيام والليالي والأبحر والسنابل، كما نال العدد سبعة قسطا وافرا من اهتمام القصص الشعبي منذ العهد القديم حيث اقترنت بعض الكائنات الوهمية والحيوانات الخيالية كالغول بالرؤوس السبعة، وولع أصحاب السحر والشعوذة بهذا العدد فاستخدموه في عزائمهم.[2]

---

[1] -**Encyclopaedia universalis volume 6 édition à paris film d'art France page 894**

[2] **- أنظر عبد المالك مرتاض، الميثولوجيا عند العرب المؤسسة الوطنية للكتاب 1989 الجزائر ص 72**

ولقد أعارت التغريبة اهتماما خاصا بالسلوك النفسي الذي ارتبطت العائلة الهلالية به تجاه مشكلة المجاعة إذ ولد الإحساس بالجوع في البداية عند أفرادها بمجملهم حالة قلق وانزعاج وشعور بالألم بعد مرور زمن طويل على عدم القدرة على إرضاء الحاجة إلى الطعام، وكان الدافع المباشر إلى هذا السلوك النفسي متمثلا في غريزة الحفاظ على بقاء الجنس. وهذا ما نلاحظه عندما اجتمع المشايخ والشبان وقصدوا مضارب الأمير حسن بن سرحان واخبروه بان الجوع قد اشتد بهم لان المأكولات قد انقطعت من بلاد نجد، وان طالت عليهم هذه الحالة ينقرضون من عدم توفر القوت.[1]

والواقع أن السلوك النفسي الذي سيطر على الهلاليين في حالة المجاعة انطوى على الخوف من الموت. إن الحقيقة التي تأكد منها معشر الشيوخ والشبان من الهلاليين واضحة جدا "إن لم نتدارك الأمر في الحال انقرضت جميع بني هلال وفقدت المواشي والأموال".[2]

وتمثل فكرة الموت إذن النواة التي تنجر عنها أحداث القصة في بلد نجد، إن كل الرجال والنساء والشبان من الهلاليين مطاردون

[1] - أنظر تغريبة بني هلال ص 02

[2] - م، ن ص 02

بالخيبة والعجز اللذين نجما عن الخوف من الموت، إن كل أفكارهم وعواطفهم تدور حول هذا المحور الوحيد، وارتبط هذا اليقين بمفهوم الزمن الذي يجري دون العثور على حل سريع للمجاعة، وإذا نظرنا إلى الأطوار التي مر بها الهلاليون في بلاد نجد، نجد أن المرحلة الحاسمة هي التي بلغت المجاعة في السنة السادسة حدها الأقصى من الإنتشار والحدة فيها. وذلك بعد أن نضبت التربة وأخذت الموارد في الاضمحلال وفرت الحيوانات لأنها لم تستطع الدفاع عن النفس. وصار الهلاليون في حرمان من كل ما يؤمن كغاية العيش لان عددهم كبير جدا.

ولم يفقد الهلاليون أسباب المعاش فحسب ولكنه نزلت بهم هذه الكارثة الطبيعية إلى أدنى من قيمتهم البشرية ومنزلتهم الحقيقية في الحياة، وهو المعنى الذي دلت عليه عبارة "وسادس سنة ذلت هلال وعامر" [1] في التغريبة.

ويمثل التضامن أهم موقف اجتماعي نشا بين أفراد القبيلة ضد المجاعة التي هددت صغارهم وكبارهم ولا يمكن أن نتصور وجود هذا التضامن بدون فهم الطبيعة العميقة التي تتميز بها البيئة البدوية. إن الناس في البادية يعرفون بعضهم بعضا معرفة تامة ولا

---

[1] - أنظر تغريبة بني هلال ص 08

يدرك احدهم الأخر من جانب خاص يتعلق بسلوكه بوصفه أبا لعائلة أو جارا أو عاملا أو تابعا لدين معين، بل يدرك من حيث هو يمثل كائنا شاملا لأنه لا يمكن أن تغيب ناحية من شخصيته على أفراد يتبادلون العلاقات باستمرار فيما بينهم وتعتبر هذه المعرفة التي تتناقص مع تجزئة الإنسان في المركز الحضري الكبير أساسا مباشرا للمواقف الاجتماعية.[1]

الأصل في القبيلة أنها تؤلف كلا واحدا لا تنفصل القيادة عن العامة، ومن هنا كان الشعور بالمسؤولية عنصرا أساسيا في العمل في سبيل الحفاظ على وحدة الجماعة وتوازنها، إذ نظم رؤساء القبيلة وهم حسن بن سرحان ودياب وأبو زيد والقاضي بدير زيارات بين الغداة والعشي مفاجئة ومتسترة إلى جمهور غفير من الرجال والنساء والشبان والأطفال وأحاطوهم بالرعاية وزودوهم بالمؤن وعاملوهم بدون تمييز في الرتبة.[2]

وتقدم التغريبة تعبيرا عن هذا الشعور بالمسؤولية نموذجا محصورا في نطاق عائلة واحدة تنتسب إلى الأمير مفرج بن نصير[3]، ولقد اختارت التغريبة عن قصد هذا الصنف من العائلة

---

(1) - أنظر بيار لارول، الطبقات الاجتماعية، ترجمة جوزيف عبود كبه منشورات عويدات الطبعة الثانية 1980 بيروت ص 75

(2) - أنظر تغريبة بني هلال ص 03

(3) - أنظر تعريبة بني هلال ص 03

التي تحتل مرتبة مرموقة في الهرم الاجتماعي، ويعزي هذا التصور في رأينا إلى سببين ينبثق الأول من أن موقع هذه العائلة يجعلنا نتوقع أن أفرادها في مأمن من الخطر و يكمن السبب الآخر في أن المجاعة ذاتها بلغت من الخطورة درجة كبيرة.

وقد كان قدر عائلة الأمير مفرج بن نصير الغامض، والخاضع لتقلبات الحياة في الصحراء باستمرار أن وجدت نفسها مقيدة بالمجاعة، ومهما كانت ظروف هذه العائلة فانها لن تستطيع التملص من واجب فرضته عليها تقاليد الضيافة، إذ "أن القيم لا يمكن ان تنفصل أيضا عن نمط محدد من المعيشة والإنتاج وقد كان الكرم على سبيل المثال القيمة الأساسية في منظومة الصحراء"[1] ولقد اضطر الأمير مفرج بالفعل أن يبيع ابنته الثريا مقابل عشاء أربعة ضيوف[2]، والذريعة التي تقدمها هذه العائلة لتبرير هذا الموقف يتمثل في غياب الحافز المادي لاستقبال وفد القبيلة الهلالية، وجعلت التغريبة من سلوك هذا الأمير احد مميزات العرب الأساسية وهي وضع البيت تحت تصرف الضيف، ولابد من التمييز فيما يتعلق بظاهرة بيع الجنس البشري بين الرجل والمرأة على الأقل من ناحية الفائدة المرجوة، ويكمن معنى هذا الاختلاف

---

(1) ـ أنظر برهان غليون، اغتيال العقل، موفم للنشر 1990 الجزائر ص 269

(2) ـ أنظر تغريبة بني هلال ص 04

في الخصائص العضوية التي يتميز به كل منهما. إن حدث بيع المرأة الذي ركزت التغريبة عليه مفعم بالدلالة، ولعل المرأة هي المخلوق البشري الأول الذي تعرض للبيع في العهد القديم، إذ تقدم المرأة المباعة عددا من الخدمات يجنيها السيد منها، ثم إنها تزخر بالقدرة على إنتاج طاقة الشغل وإعادتها كلما دعت الحاجة إلى ذلك، كما أن الإصرار على عرض المرأة للبيع هو موقف يدل على أنها مصدر للمتعة الجنسية، ولقد كانت المجاعة تجبر غالبا الجماعة البدوية على بيع أفرادها ولا سيما المرأة لأنها كانت عاجزة عن إنتاج المحصول الزائد على الضرورة الذي تواجه به الأزمة الطارئة عليها كالجفاف. [1]

وتجمع الثريا حالتين معا إحداهما تمثل الواقع الذي غلب عليه البؤس وعانت منه عائلتها وترتبط الأخرى بالرمز الذي يدل على دورها المنقذ لهذه العائلة نفسها من العار الذي يدل على فقدان الشعور بالكرامة البشرية، ليس المهم هنا أن تكون مشروعية البيع قائمة على ما تحمله للعائلة من حماية تفيدها في إبعاد خطر الموت من المجاعة.

---

[1] ـ أنظر فاطمة المرنيسي، نساء الغرب، دراسة ميدانية ترجمة فاطمة الزهراء ازرويل الطبعة الأولى 1985 مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ص 37، 38

وعندما تتحدث التغريبة عن بيع المرأة البدوية فإنها لا تعني بالضرورة ازدهار الرق الخاص بها، لأنه إذا كان الرق ظاهرة شائعة عند الغالبية من الشعوب ومنها العرب فانه يختلف من حيث تطوره الاجتماعي ودرجته، وهو بقدر ما ازدهر عند الجماعات البشرية التي أدركت الطور الزراعي نجده عند تلك التي مارست النشاط الرعوي محدودا جدا، لا تستخدم العبيد إلا من اجل بيعهم من جديد وذلك لان رعاية الماشية تتداخل تقريبا مع الأعمال المنزلية.

وإذا كان الهلاليون قوم مثل غيرهم من العرب يؤمنون بالقضاء والقدر وظهروا عاجزين وتابعين للطبيعة التي كانت سببا في بؤسهم فإنهم مع ذلك رفضوا الخضوع للعاقبة السيئة، وإذا لم يستطع الهلاليون التحرر من الطبيعة لأنهم بدو رحل فإنهم ظلوا معنيين بحقهم في الوجود ومتعلقين به، واعتبروا الهجرة الوسيلة الوحيدة التي تمكنهم من الارتقاء إلى الحالة الإنسانية.

إن التغريبة لا تتحدث عن الهجرة إلى الغرب بواسطة الشعر منفصلا عن أسبابها الموضوعية، وهذه الحقيقة تدركها بمجرد أن نطلع على الأشعار التي انشدها البطل الهلالي كلما واجه أحداثا لم تكن بالحسبان، ومهما تباينت مواقف الشعراء الهلاليين واختلفت

أساليبهم في التعبير عن الهجرة فإنهم اتفقوا على أسبابها. لقد تركز الشعر في حديثه عن أسباب الهجرة في المرحلة التي رحل الهلاليون إلى الغرب حول الأمراء الثلاثة المسجونين في قصر خليفة الزناتي. [1] بينما انحصرت بعض الأبيات القليلة جدا في العوامل الجغرافية كالجفاف والمجاعة. [2]

وقد استعان الشعراء بكلمة "الأولاد" للضغط على الخصم العنيد كالسلطة الحضرية. وتكرر لفظ "الأولاد" مرارا في أبيات الشعر [3] لأنه من صلب العاطفة البشرية وأشد تأثيرا في النفوس، وتقدم هذه الكلمة دليلا قاطعا على أن الهلاليين لم يدخلوا الغرب بإرادتهم.

الدوافع الشخصية

كان من الصعب على العرب فراق أرضهم والإبتعاد عن ذويهم وأهلهم ولذلك كانت الرحلة بالنسبة إليهم شاقة علاوة على أن ينتهي بهم الأمر إلى الحياة بين أناس لا يعرفون أدبهم وحسبهم. فقد زخر الأدب العربي بالأحاديث والأشعار نظمها أصحابها للرد على ما قد يثبط العزيمة عن ترك الأهل والوطن.

---

(1) ـ أنظر تغريبة بني هلال ص 66، 72، 203، 204

(2) ـ أنظر م، ن ص 18

(3) ـ أنظر تغريبة بني هلال ص 66، 72، 203، 204

وقد كانت الهجرة إلى الغرب موضوعا للحوار بين أبى زيد وزوجته إلا أن هذا المشروع ليس مستقلا عن القبيلة بعد أن ظهرت الهجرة خلاصا من قيد المجاعة وعدم القدرة على حلها، ومن المؤكد أن فكرة الهجرة لم تنشأ عند الهلاليين إلا عندما كان الغرض الأساسي من الذهاب إلى الغرب هو البحث عن حياة أفضل، فلم يكن لهم مجال للاختيار بين مغادرة الوطن الأصل أو البقاء فيه.

إن القرار بتنفيذ هذا المشروع مرتبط بالأخبار المتوفرة والمتعلقة بظروف الهجرة والإمكانيات المتاحة للريادة، إن المسافة الطويلة التي تفصل بين بلاد نجد وبلاد الغرب تفرض شروطا موضوعية محددة سواء أكانت بشرية أم مادية، إن أبا زيد وزوجته يدركان أهمية القرار غير أنهما يواجهان صعوبة البت في الأمر، وقد وجدا أبو زيد نفسه في مواجهة مهمة خطيرة لم يسبق لها مثيل وهي الريادة وأبو زيد لا يستطيع أن ينقض هذا المشروع أو العمل الصعب لان الأمر يتعلق بحياة القبيلة أو موتها، ومن هنا وجد أبو زيد وزوجته أنفسهما في وضعية أو حالة الصراع، ويحدث الصراع غالبا عندما "يتدخل العائق بين القرار والارتياح الذي

انتظره من تنفيذ هذا القرار إلى حد إهمال القيام بالعمل"[1] ورغم أن المجازفة جزء أساسي من ملامح البطل الهلالي فان التغريبة تحصر العائق في ذهاب أبي زيد إلى الغرب بمفرده، للدلالة على الشيء المجهول والخضوع لإرادة غير محدودة. ولقد حصل هذا الصراع في باطن الشخصيتين، وارتبط الصراع كذلك بعلاقتهما بأعيان القبيلة وساداتها، حيث اعتبرت زوجة أبي زيد أن الريادة غير منوطة بمسؤولية فرد واحد ولذلك دخلت كحليف لزوجها ولجأت إلى حيلة لتخليصه من هذا المأزق، إذ اقترحت عليه أن يرافقه يونس ويحي ومرعى باعتبارهم أبناء رئيس القبيلة. [2] إن مراجعة القرار متوقف على أعيان القبيلة، وإذا ظل الهدف ثابتا فان سبيل تحقيقه تغيرت، والقرار الجديد ليس حصيلة الشخصية المجردة المتمثلة في القبيلة بقدر ما كان حسن بن سرحى صاحب هذا القرار، ورغم أن الأمراء الثلاثة ينتمون لعائلة واحدة فإن القبيلة تأخذهم على عاتقهم وتتكفل بهم، وهكذا نجد أن زوجة أبي زيد التي تنتسب إلى عائلات الأبطال قد أدت دورا بالغا في توجيه القرار الذي يتعلق بحدث مهم كالهجرة يؤهلها لان تسهم في توزيع

[1] - **robert dethier et françois lambinet , hommes et organisations , éditions vie ouvrière 1972 bruxelles page 57**

[2]- أنظر تغريبة بني هلال ص 06

الأدوار داخل القبيلة، وقد نظر أبو زيد وزوجته إلى السفرة من زاويتين مختلفتين، فأبو زيد رآها من ناحية الإمكانيات الضرورية لإنجازها، بينما أخذت زوجته بالحسبان نتائجها، وبذلك تبدو وكأنها لم تر في بعلها سوى شخص منفرد ومنعزل عن القبيلة إلا أن نشاط الرحلة بكل تفاصيله المدهشة كالخطر والاغتراب والابتعاد والمغامرة بالذين يشكلون جوانب هامة منه يأخذ بفضل احتجاج الزوجة سبيلا للعمل الجماعي.

المحفزات الجاذبة

تؤكد التغريبة أن العامل الجغرافي قد أدى دورا أساسيا في جذب الهلاليين إلى بلاد تونس.

إن الحديث عن بلاد الغرب لأول مرة في التغريبة لم ينشأ من بداية هجرة الهلاليين من نجد، إذ تعود زيارة العرب إلى تونس إلى الفترة السابعة على الهجرة حيث مدح شعراؤهم خليفة الزناتي والوزراء الذين أحسنوا إليهم و انعموا عليهم ثم باعوا الجارية التي تسمى مي إلى سعدة. [1]

إن الإشارة إلى هذه الزيارة في التغريبة يعطي انطباعا عن العلاقة الحضارية القائمة بين الشرق والمغرب منذ العهد القديم،

[1] ـ انظر تغريبة بن هلال ص 20

وقد كان الشعراء والمداحون المتجولون في القرون الوسطى يحملون في طياتهم انشغالات القبيلة و يعبرون ساحات الصحراء، وينتهي بهم المطاف إلى النزول في قصور الأمراء والملوك، ويقفون في بلاطاتهم من اجل تبليغ الرسالة. ويبدو لفظ الغرب العنصر الغالب في التغريبة الذي أعطى هجرة الهلالين مدلوله الأسطوري، غير أن الأسطورة في التغريبة لا تتحدد باعتبارها نوعا أدبيا بمعناها الاصطلاحي الذي ينحصر في «القصة التي تمثلها الشعائر» [1] بقدر ما تشير إلى مجموعة من المفاهيم الثقافية الأساسية التي تدل عليها. ويقتصر مفهوم الغرب في معناه اللغوي على «الذهاب والتنحي عن الناس» [2]. ويمثل الذهاب إلى الغرب النقطة التي لا عودة بعدها. إن حل مشكلة الجوع حدث خطير جدا، ويستمد هذا الحل ضرورته من وجدان الرجال والنساء والأطفال الذين ينتسبون إلى القبيلة، ويتمثل هذا الحل في الأرض الجديدة التي تكفل لهم الكرامة. إن هذا النوع من الهجرة ظاهرة نادرة في البادية، وما يزيد من خطورة هذه الهجرة إن جميع سكان بلاد نجد قد قرروا فجأة خلال عام واحد أن يغيروا موطنهم[3]، وبالرغم من

---

(1) ـ أنظر أوستن وارين، رينية ويليك، نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي الطبعة الثالثة 1962 ص 246

(2) ـ أنظر ابن منظور، لسان العرب، المجلد الأول، دار صادر 1968 بيروت ص 638

(3) ـ أنظر تغريبة بن هلال ص 08

المتاعب التي قد يواجهونها في الطريق كالعائلة والأمتعة والأخطار فان الغرب يفتح آفاقا من العيش الرغد، وقد اخضع الهلاليون في البداية منطقة الغرب إلى الريادة و التقصي و رسموا لها مسالكها حتى يجدوا طريقهم فيها بسهولة. وقد سار الهلاليون في هذا الإتجاه و تقيدوا بالخط الذي رسمته الرحلة سلفا.

وكان الغرب والحياة كلمتين متداخلتين إلى درجة يصعب الفصل بينهما، و لذالك كلما قطع الهلاليون مسافة أو توقفوا، تأهبوا للسير من جديد، إن هذا الاستخفاف بالمسافة الطويلة لم يسبق لها نظير في حياة الهلاليين، و هذا ما يفسر أيضا إلى حد كبير تغلبهم على الحواجز في الطريق.

ولعل اللون العميق الذي يتعلق بالهجرة و يدل كثيرا من الناحية النفسية هو الذي يتضمن التغيير الجغرافي للبلاد الأصلية، انه من الصعب أن ندرك مدلول الهجرة وردود الأفعال التي تترتب عنها إذا لم نفهم جيدا تمركز المكان الأول في البنية النفسية للإنسان التقليدي. والحقيقة أن مرحلة الاستقرار التي عرفها الهلاليون بنجد بدأت بوفرة الموارد الطبيعية. إن معنى الوطن ارتبط في نفوسهم بنجد، و قد كانت الخيمة حتى و لو كانت متنقلة الملجأ الأمين الذي يتوارثه جيل عن جيل و الرابطة الوطيدة بينهم و بين الطبيعة. وقد

كان الهلاليون يحملون هذه الخيمة كلما حفت بهم المخاطر تحت الرياح الباردة وحرارة الشمس المحرقة ولكنهم ظلوا مقيمين في حدود بلادهم الأصلية.

إن الهجرة إلى الغرب بالنسبة إلى الهلاليين ليست نوعا من المتعة بقدر ما كانت حدثا محزنا و مؤلما و حنينا دائما للماضي وشعورا بالعجز. و قد كانت هجرتهم مصحوبة بالقلق و الإنفعال والإحساس بالغربة، و على سبيل المثال كان حنين الجازية إلى زوجها شكر الشريف قويا. [1]

وقد إستغرق هذا الاسترجاع مراحل كثيرة من الرحلة التي قطعتها مع القبيلة.

إن حضور هذه الذكرى العزيزة في وجدانها بإستمرار يدل على أن العاطفة في أصلها موجهة دائما نحو شخص آخر من أفراد العائلة أو أفراد الجماعة التي ينتمي إليها الشخص، وهي تتركز عادة في شخص واحد بارز يكون رمزا قويا للجماعة. إن حب الوطن هو في جوهره نوع من العبادة موجهة نحو الأبطال الذين رفعوا من شانه. [2]

---

(1) - أنظر تغريبة بن هلال ص 188

(2) - أنظر يوسف مراد، مبادئ علم النفس العام، دار المعارف الطبعة السابعة القاهرة ص 168، 169

وقد قطع الهلاليون علاقتهم دفعة واحدة مع بلاد نجد والأقارب والأصدقاء الذين لا يزالون يقطنون فيها باستثناء بعض أمراء القبيلة مثل حسن بن سرحان، والقاضي بدير اللذين عادا إليها مع بعض الجنود لتحديد البلاد، بعد أن أخذ الهلاليون الراحة في بلاد الأعجام وامنوا عواقب الزمان فيها. [1] وقد إضطر حسن الجعبري وعليا زوجة أبي زيد للرجوع إلى نجد كذلك من جراء الخصومة الشديدة التي كانت الجازية سببا مباشرا فيها. [2]

ورغم أن عليا وأبو زيد كانا مرتبطين بعلاقة زوجية وثيقة، فإنهما شعرا بالمسافة الجغرافية الطويلة التي فصلت بينهما وعزلتهماعن بعضهما، ولم يبق بين الطرفين أدني حد من المشاركة التي تدل على إنتمائهما إلى العائلة نفسها، وتحققت المفارقة بعد أن إقترنت عليا بزوج أخر، وقد عادت الأمور إلى نصابها بعد أن إنتقل أبو زيد بنفسه إلى نجد ورافقت عليا زوجها إلى الغرب بعد أن ألحت عليه كثيرا رغم أن الطريق وعرة والمسافة بعيدة. [3]

---

(1) - أنظر تغريبة بن هلال ص 46

(2) - أنظر م ، ن ص 176، 180

(3) - أنظر م ، ن ص 303، 304، 305، 308، 309

وكان الهلاليون في كل مرة ينتقلون من مدينة لأخرى ينسلخون عن بعض الأشخاص الذين كانت تربط بهم صلة حميمية كما فعلوا ذلك مع الماضي بن مقرب.[1]

إن الملمح الأساسي في الوطن البديل هو الذي يلفت النظر إلى الطبيعة الكريمة التي تدل عليها عبارة (تونس الخضراء)[2] المتمثلة في مطلع التغريبة، وقد إقترنت صورة الغرب بخاصية الإخضرار التي تنفصل عن نقيضها في نجد الذي يتمثل في اليبوسة، وتدل اليبوسة على العدمية في مكان لا نجد فيه الماء والنبات والحيوان، بينما الإخضرار هو الذي يعيد الإنسان إلى الحياة.

ويبدو قسم كبير من الغرب بمكوناته الجغرافية وحين تعمد التغريبية إلى وصفها فإنها تميز بين نوعين من الخصوبة. يتمثل الأول في الخصوبة الطبيعية التي نلمسها في الأنهار والوديان والمراعي والسهول والطيور والحيوانات من كل جنس، وهذا الجانب من الطبيعة يبرز بشكل واضح من خلال مشهد القنص الذي قام به العلام بن غضبة إبن أخت خليفة الزناتي.[3]

---

[1] - أنظر م، ن ص 190

[2] - أنظر م، ن ص 20

[3] - أنظر م، ن ص 190

وأما النوع الأخر فهو الذي ينحصر في الخصوبة المكتسبة التي قامت على مجهود أهل الغرب والأدوات التي سخروها في سبيلها، ويتعلق بالبستان والروض والغيط والأشجار المثمرة كالنخل والزيتون والكرمة والزهور بأنواعها المتعددة والفواكه كالعنب والجزر والتين والرمان والجوز والتوت والتفاح والكمثري والسفرجل والكرز والمشمش، والليمون والخيار وحب العزيز[1]

إن الغرب إذن ليس مجرد موقع النشاط الخضري المكثف، بل هو الذي تبلغ الطبيعة فيه منتهاها في السخاء. إن الطموح البعيد للهلاليين يتجلى في مفهوم الطبيعة الكريمة وهي التي تقدم تصورا لتوازن الكون وتوحي للإنسان بان العالم متسامح بشكل عجيب وتقوم العناية الخفية بقيادته إلى أفضل نتيجة ممكنة.[2]

---

[1] -أنظر م، ن ص 294

[2] - أنظر مجموعة من الكتاب، نظرية الثقافة، ترجمة علي سيد الصاوي- عالم المعرفة العدد 223 1997 الكويت ص 68

ونقصد من هذا المدلول الأسطوري أن الهلاليين يقدمون الغرب باعتباره البديل الوحيد الذي يخلصهم من الشر ومن اجل ذلك يظهر الغرب كبلد طيب ويبدو كأنه هبة العناية الإلهية جاء ليخلص الهلاليين من آلامهم ويزيل أوجاعهم دون أن يفرض شروطا محددة عليهم، وهذه القوة الخفية هي التي ترشدهم إلى الغرب.

إن الطبيعة تعني بالنسبة لهم العالم الخارجي الذي يعيشون فيه، وكل ما يحدث فيه فهو مرتبط بقوي خارجة عن إرادتهم. إن الجفاف على سبيل المثال ظاهرة موجودة فعلا في الواقع ولكنهم يعتبرون سببه غيبيا، وكذلك الأمر بالنسبة لاخضرار الغرب الذي يذكرنا بنظرة المسلم إلى الجنة الموعودة، فكل متعة يحصل عليها الإنسان في الدنيا لا تعادلها أبدا لذة هذه الجنة التي يعجز الوصف عن الإحاطة بها.

الرحلة إلى الغرب وتنقلاتها

إن التنقلات والمسالك التي إعتمد الهلاليون عليها ليس من السهل تحديدها بالتفصيل، ولقد انطلق الهلاليون في رحيلهم إلى افريقيا الشمالية من شبه الجزيرة العربية، وانقسم هؤلاء العرب في هجرتهم هذه إلى فرعين، بنو هلال وبنو سليم الذين كانت منازلهم في العصر الجاهلي تمتد من الطائف إلى ما وراء المدينة المنورة. وتنتشر هلال في بسائط الطائف إلى جبل غزوان في ضواحي مكة، بينما تقيم سليم ما بين المدينة وخيبر وتيماء. وقد حافظ هذان الفرعان من العرب على مواطنهم بعد ظهور الإسلام وتوسعوا في غيرها.[1] وقد إنتقلت القبيلتان البدويتان هلال وسليم إلى بلاد الشام بعد أن شاركتا في الحركة الدينية السياسية التي كان القرامطة الشيعيون على رأسها ونزلوا بحلب والموصل كما فعلت ذلك ربيعة وكهلال قبلهم. [(2)]. وعندما انهزم القرامطة بسبب تمردهم العنيف والمدمر نقلهم العزيز الفاطمي إلي الجانب الشرقي من الصعيد. غير أن رحيل هؤلاء الأعراب إلى مصر لم يكن في هذا العهد فقط وإنما كان منذ ولاية عبيد الله بن الحبحاب، حيث انتقلت أفواج من سليم إليها ثم لحق بهم هلال وأحلافهم.[(3)]وقد نزلت قبيلة سليم

---

[1] - انظر مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث مكتبة النهضة الجزائرية الجزء 2 ص 147، 148

[(2)] - انظر عويس والظاهر، بنو هلال واصحاب التغريبة ص 45

[(3)] - انظر مبارك الميلي، تاريخ الجزائر ص 148

وقبائل متعددة من قيس في ارض مصر سنة 109هـ. وقد كان أمير مصر في ذلك الوقت الوليد بن رفاعة، ولم يكن بأرض مصر أحد من قيس قبل ذلك إلا من كان من فهم وعدوان. ومنذ تلك الفترة نزل بمصر مائة أهل بيت من بني عامر بن صعصعة ومن ضمنهم بنو هلال. [1] والجدير بالذكر أن الهلاليين ماداموا قد سكنوا منطقة الصعيد الأعلى بمصر التي كانت مجاورة لبلاد السودان وذلك منذ عهد الفاطميين فانه من المحتمل أن جماعات منهم قد نزحوا إلى السودان في أوقات مختلفة. ولكن يبدو أن عددا من هذه الجماعات كان محدودا ومتفرقا ولا سيما شرق السودان. ولم تستطع أن تحتفظ بكيانها واندمج بعضها في جماعات أخرى وصار الانتساب إليهم قليلا. أما في غرب السودان فان الأثر الهلالي كان قويا لوجود عناصر منهم في السودان. ومن الراجح أن الهلاليين دخلوا السودان بعد التغريبة بزمن طويل وأنهم سلكوا طريق وادي النيل ثم إنحرفوا غربا على إمتداد وادي الملك إلى كردفان ثم دارفور. [2]

---

[1] - انظر المقريزي، البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب ص 65، 67

[2] - انظر عبد المجيد العابدين، دراسات في تاريخ العروبة ص 151، 152

والملاحظ أن الهلاليين لم يرحلوا كلهم إلى بلاد إفريقيا الشمالية إذ فضل بعضهم البقاء في مصر والإقامة بالحوف الشرقي شمالا وبالصعيد الأعلى في أقصى الجنوب. ولا نعرف من الشواهد ما يدل على أنهم سكنوا أيضا الصعيد الأدنى أو الأوسط. ولعل اختيارهم لمنطقة الصعيد الأعلى يرجع إلى غنى هذه المنطقة في ذلك الزمن. ومن المعروف أن وادي الخصيب لا يتسع في الجانب الشرقي للنيل إلا عند الصعيد الأعلى. [1] ومن الهلاليين الذين سكنوا الصعيد الأعلى بطون عدة منها بنو رفاعة وبنو حجير وبنو عزيز وبنو قرة وبنو عمرو وبنو عقبة وبنو جميلة. [2]

ولم يشر ابن الأثير إلى مقر الهلاليين بالصعيد المصري ونمط حياتهم الذي تقيدوا به في هذه المنطقة.

ومن الواضح أن مصر كانت منطلقا لهم نحو بلاد إفريقيا. وقد أدت السلطة في مصر دورا حاسما في تأسيس هذه الهجرة وتنفيذها. وأكد الدارسون بإصرار شديد على أن الوافدين من الهلاليين إلى إفريقيا جمع غفير وهو السبب الذي جعل البعض من الباحثين يطلقون عليهم صفات مستعارة تارة من عناصر الطبيعة

---

(1) - انظر عبد المجيد العابدين، دراسات في تاريخ العروبة ص 127

(2) - انظر المقريزي البيان والاعراب ص28

القوية "كمد البحر "[1] وتارة أخرى مستمدة من الكائنات الحية التي تحلق بارتفاع منخفض و ذات العدد الوافر. وتقضي هذه الكائنات الحية على اليابس في وقت قصير إنهم " أسراب من الجراد لا تبقي ولا تنذر"[2]، غير أن هؤلاء العلماء اختلفوا كثيرا في عددهم ،يرى عبد الله العروي أن " عدد الهلاليين لا يتجاوز على الأرجح مائتين ألف"[3] ويحصر عبد الرحمان بن محمد الجيلالي " في نحو الأربعمائة ألف شخص"[4] بينما يعتقد جورج مارسي أنه من المستحيل أن نحصر العدد المتعلق بهذه النقلات وذلك لأن هؤلاء البدو يتألفون من الرجال الذين يبلغون سن القتال وزوجاتهم وأولادهم ويذهب إلى أن عددهم كان أقل من المليون ولكنهم كانوا يمثلون كتلة متماسكة نسبيا.[5] ويرى مبارك الميلي أن "عدد من

---

[1] -Georges marçais l'Afrique du nord française dans l'histoire, édition archat paris page 168

[2] - ابن خلدون، كتاب العبر ص 31.

[3] -Abd allah laroui, l'histoire du maghreb, F.M petite collection masperd, 1976 paris 136

[4] - عبد الرحمان بن محمد الجيلالي تاريخ الجزائر العام 1953 ص 296

[5] - Georges marçais l'Afrique du nord page 168

أجاز النيل من رياح و زغبة وعدي يربو عل ألف ألف نفس"[1]
ويبلغ عدد الهلاليين الذين نزحوا إلى إفريقيا الشمالية في نظر حسن حسني عبد الوهاب بما فيهم من النساء والأطفال نحو أربعمائة ألف نسمة، [2] ويزعم الباحثان الظاهر وعويس أن عددهم كان يزيد على المليون وهو تقدير مبالغ، [3] وقد ركز المؤرخون في النهاية على أن الرقم القريب من الصواب هو الذي يتراوح بين مائتي ألف ونصف مليون.

اعتبر أندري بيرتي الهجرة التي قام بها الهلاليون إلى الغرب تتألف من قبائل متعددة وهي صورة شديدة التطابق للواقع بكل ما ارتبط بها من أمتعة و نساء وأطفال وأسلحة وحيوانات وخيم، ويتعذر في نظره أن يقطع كل هؤلاء البدو الصحراء الشاسعة بهذا العدد الضخم المتمثل في المليون. [4]

ونقصد بمصطلح المسير أولا نظام السير أو شكل التنقل الذي يدل عل الأسلوب الذي تمارس القبيلة به الرحيل إلى مكان معين. وقد اختلفت الآراء حول تحديد الطبيعة التي جرت بها حركة

---

[1] ـ مبارك الميلي، تاريخ الجزائر ص 152.

[2] ـ انظر حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، دار الفنون بتونس 1973 ص 94

[3] ـ انظر الظاهر وعويس، بنو هلال وأصحاب التغريبة ص 103

[4] -ANDRE Bertheir. L'Algérie et son passé. Edition A et j, Pieard 1951 paris, page 26

الهلاليين إلى إفريقيا الشمالية، وإذا كانت الهجرة هي الوسيلة التي تقيد الهلاليون بها في سبيل تأمين قوتهم وتحقيق غايتهم في الحياة الكريمة فان جذور هذا التنقل ضاربة في ماضيهم البعيد، وبذلك وجب أن تكون لهم طريقة خاصة في تنقل عائلاتهم وفرسانهم وحيواناتهم وأمتعتهم.

و تعود بعض المؤرخين أن ينظروا إلى هجرة الهلاليين إلى إفريقيا الشمالية بوصفها حركة بشرية غفيرة وطارئة وعشوائية.

وقد ظلت الهجرة عند العرب منذ العهد القديم قائمة على ضبط حركتها بالعرف. إن هذا النظام الصارم هو الذي حافظ على وجودهم وميز هويتهم عن سائر الجماعات الأخرى، فهم لا ينصرفون إلى أهوائهم وحدها ولا ينقادون إلى الفوضى الناجمة عن فقدان النظام الشرعي ومن المؤكد أن الهجرة لم تكن دائما فرصة يحرص البدو فيها إن يخرجوا عن قانون القبيلة الذي يبلغ رضاهم به حدا كبيرا لأنه شرط بقائهم.

وإذا حاولنا أن نحدد ملامح هذا الركب النازح عن الوطن العربي وجدنا في البداية حالة التأهب والاستعداد مستمر في القبيلة التي تعزم على الهجرة لمواجهة كل الصعوبات التي يمكن أن تعترض سبيلها. ويحتل الفرسان المقدمة من الموكب لأنهم هم الذين

يوكل إليهم توجيه حركاته، وتتبعهم النساء ذات المولد الشريف والنسب الأصيل اللواتي كن داخل الهوادج العالية والفسيحة. وتميل هذه الهوادج بأقمشتها الساطعة إلى سطح الأرض، ثم تخل الفصيلة من الجمال التي تأخذ على عاتقها الأعباء الثقيلة بمجموعها، فتحمل أكياسا كبيرة ذات الجنبات المنتفخة والمحدبة والمشحونة في الغالب بالحبوب أو التمرة الرطبة، وعلى ظهورها الأوتاد والصناديق والماعون وكل ما ينتفع به الأعراب من أدوات البيت أو الخيمة في الصحراء، وتضاف الدواجن كذلك إليها، وفي الأخير يقبل القطيع المقسوم إلى زمرات، يسوقها الرعاة والعبيد ويحرسها سرب من الكلاب. [1]

وتتجمع القبيلة العربية في مكان معين و تستهلك مواردها الطبيعية وتستقر فيه مدة طويلة أو تستأنف مسيرتها بعد انقراض عناصر الحياة فيها.

والجدير بالإشارة إلى أن هجرة الهلاليين إلى إفريقيا لم تحدث دفعة واحدة لان هذه الحركة لا تتطابق مع حياة القبيلة ومتطلباتها، بل كانت في الحقيقة عبارة عن موجات متتابعة.

---

[1] - Georges Marçais les arabes en berberie page 83

إن تطلع الهلاليين إلى الأراضي الخصبة المتوفرة بإفريقيا والأوصاف المثيرة للخيال التي قدمها لهم وكلاء أو مفوضوا أو مندوبو الخليفة الفاطمي حرضت كل من يلتقون بهم، وهو السبب الذي أدى بالضرورة إلى ازدياد عددهم في طريقهم إليها. [1]

وتمثل مدينة برقة المحطة الأولى التي نزل الهلاليون أفواجا وأقاموا فيها، [2]وقد وجدوها خالية من السكان بعد أن أباد المعز أهلها من زنانة [3] وكانت كثيرة المراعي، ولقد استطاعت جماعات من العرب أن تنال خيرات في برقة لم تعهد بها من قبل، وعبر هؤلاء العرب على إعجابهم الكامن في أعماقهم بأرضها التي كفلت لهم العيش الرغد أو أغدقت عليهم نعمها فنسجوا حولها قصصا خارقا للمألوف وأطلقوا عليها أوصافا خيالية شملت كل بلاد افريقيا وكان لها أثر بليغ في نفوس إخوانهم الذين مازالوا ساكنين بالصعيد ،ولا شك أن "اتصالا ما كان قائما بين عرب العدوتين الغربية والشرقية " [4]. ومن المعروف أن برقة أقدم مدينة تقع في شمال غرب ليبيا.

---

[1]- Voir même Référence page 88

[2] ـ انظر ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار المغرب مكتبة صادر الجزء 1 بيروت ص 417

[3] ـ انظر ابن خلدون ، كتاب العبر ص 132

[4] ـ عبد الحميد يونس ،الهلالية في التاريخ و الأدب الشعبي – ص 69

ويرى ابن حوقل أن برقة تحتل مرتبة متوسطة من حيث حجمها الجغرافي وهي تقع في بقعة فسيحة يمكن للإنسان أن يطوفها في يوم واحد ويحيط بالبقعة جبل من كل سائر جهاتها أما لون أرضها فهي حمراء ويعرف سكانها بحمرة ثيابهم ويقيم فيها طوائف من البربر. وتعد هذه المدينة برية وبحرية وجبلية ،وهي أول منبر ينزله القادم من مصر إلى القيروان، وتمتاز بكثرة الغرباء الذين يقصدونها في كل وقت ولا ينقطع العابرون عليها وذلك لأنها تنفرد في تجارة القطران و الجلود والتمور. وتتميز كذلك بأسواق تباع فيها الصوف و الفلقل و الشمع و العسل والزيت وضروب من البضائع الصادرة من المشرق أوالواردة من المغرب و أسعار موادها الغذائية الرخيسة [1] ، ويرى اليعقوبي أن مدينة برقة تقع في مرج واسع وتربة حمراء شديدة الحمرة وهي مدينة عليها سور وأبواب حديدية وخندق أمر ببناء السور المتوكل على الله".

والدليل على أن الهلاليين لم يهاجروا إلى إفريقيا في وقت واحد أن إبن خلدون يفرق بين الهلاليين الذين دخلوا برقة بتحريض اليازوري أو الجرجرائي (الجرجاني) قبله وبين أولئك الذين أقاموا ببرقة قبل ذلك على عهد الخليفة الفاطمي. وتندرج ضمن تقويم

---

(1) ـ انظر أبو القسم ابن حوقل النصيبي، كتاب صورة الأرض ،مطبعة بريل القسم الأول ، الطبعة 2، 1938 ص67،66

الهجرة التي قام بها الهلاليون إلى إفريقيا المدة الزمنية التي قضاها هؤلاء في الطريق ، ويبدو أنه "استغرق بلوغهم برقة أمدا ليس قصيرا لعله يتجاوز ثلاثة أعوام " [1]

وقد عرف عدد المهاجرين من الهلاليين إلى برقة ارتفاعا كبيرا حتى أن السلطة الفاطمية فرضت على الذين يبتغون إجازة النيل أن يدفع كل شخص منهم دينارين ، وأخذ كل من كان قادرا على تسديد هذه الضريبة في الرحيل إلى برقة حتى ضاقت بهم ، وقد كان بنو سليم هم العنصر الغالب الذي استقر فيها، وحصرهم ابن خلدون في "هيب من سليم وأحلافها رواجة وناصرة وغمرة" [2]

وسار الهلاليون إلى طرابلس حيث حل فيها عدد كبير منهم[3]، وهي مدينة بيضاء من الصخر الأبيض على ساحل البحر ،خصبة وذات أسواق كبيرة وضياع وبوادي كثيرة ويبلغ ارتفاعها درجة أقل من برقة وتتميز بثمار متنوعة ونادرة، تحط فيها مراكب ليلا ونهارا وترد بالتجارة على مر الأوقات من بلد الروم بضروب الأمتعة ، وأهلها قوم مرموقون باللباس والأعراض[4].

---

[1] - عبد الحميد يونس، الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي، ص 69 .

[2] - ابن خلدون، كتاب العبر ص 31.

[3]- انظر مصطفى أبو ضيف أحمد، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية، دار النشر المغربية 1982، الدار البيضاء ص58

[4] - انظر ابن حوقل ،صورة الأرض ص 69.

وتحتل تونس الخضراء موقعا أساسيا في إقليم الغرب الذي قصده الهلاليون. إن مدينة تونس قديمة أزلية ذات أرض خصبة ومياه جارية وغلاتها مختلفة، وكان إسمها ترشيش في العهد القديم فلما شيد المسلمون البنيان وأحدثوا البساتين والحدائق والأسوار صارت تحمل اسم تونس[1]

وتوجه الهلاليون بعد ذالك إلى القيروان وهى أكثر المدن قدما وشيوعا، وقد شاركت في هذا الزحف زغبة ورياح وذلك سنة خمسة وأربعين.[2]

ومن المعروف أن القيروان مدينة حديثة شيدها الفاتحون وكانت قاعدة إفريقيا في صدر الإسلام وتقع في صحراء تصلح لجمال العرب، وهى اليوم تابعة لبلاد تونس ، والقيروان من أجمل مدن المغرب وكان عليها سور عظيم فهدمه زيادة الله بن الأغلب لما ثار على عمار بن مجالد.[3]

إن الهجرة التي شهدتها تونس بمختلف مدنها مثل فاس والمهدية وصفاقس قد مهدت الطريق للهلاليين في سبيل الدخول إلى الجزائر.

---

(1) انظر م ، ن ص 73

(2) - انظر ابن خلدون ، كتاب العبر ص 33.

(3) - انظر البعقوبي، كتاب تقويم البلدان ص 114.

إن الجهات التي دخل منها الهلاليون إلى الجزائر لم تكن متماثلة، بل كانت مختلفة

حسب المناطق الجغرافية والخصائص التي تميزت بها، وقد وجد ولج الهلاليون إلى الجزائر من جهات ثلاث تتمثل الأولى في السواحل منها نواحي باجة فانتشروا على ضواحي القالة وعنابة وقسنطينة والقل وجبال بابور. إن تقدمهم في هذه الناحية أسبق منه في سواها وتتعلق الجهة الثانية بالهضاب ما بين الأطلسين التلي والصحراوي حيث تستقر فيها السلطة الحمادية، فجاءوا من نواحي الأربس وانتهوا إلى الساحل وجبال البيان. أما الجهة الثالثة فهي التي يمكن أن نحصرها في الصحراء حيث تقيم قبيلة الزناتة بخيامها. وقد تقدموا إليها من ناحية سبيبة إلى تبسة وانتشروا جنوب الأوراس على مقربة من الزاب وانتهوا إلى مزاب وجبل راشد. [1]

وهكذا دامت هذه الهجرة من نجد والصعيد إلى الغرب نحو نصف قرن من الزمن. [2]

---

[1] - انظر مبارك الميلي، تاريخ الجزائر ص 150، 151

[2] - انظر م ، ن ص 150

الريادة والبصمات الهامة

تربط الرحلة في التغريبة في وقت واحد بالمظهر الموضوعي المتمثل في الطبيعة وبالرجوع إلى المظهر الذاتي،[1] المتعلق بالقبيلة أو الرواد. وتعد الطبيعة منطلق الرحلة نحو الغرب من بلاد الحجاز وهي مسقط راس الهلاليين إلى العالم المنبسط ما وراء حدودها، وتركز الطبيعة على الجانب المادي في حين تقوم القبيلة على الجانب الاجتماعي. إن الطبيعة والقبيلة هما العنصران الملازمان للرحلة. وتمثل الطبيعة الفضاء الذي ينتقل الهلاليون فيه ويواجهون العوائق والعقبات ويستمدون منه موارد العيش. إن عدم تجاهل التفاعل بين الطبيعة والقبيلة يجعل الرحلة لا تظهر وكأنها قائمة من الأزمنة أو وثيقة مدونة تتوفر فيها الأدلة أو الأخبار. وليست الرحلة تخيلا أدبيا لأن عرض حياة القبيلة في جانبها الأدبي المحض لا يكون محيطها الطبيعي إلا زخرفة وزينة أو مشهدا مسرحيا. ومع ذلك فان للغرب الذي يمثل الطبيعة الكريمة أو الأرض في ذروة عطائها نصيبها من التعجب والإندهاش يحرك خيال الهلاليين الرومانسي ويدفعهم إلى الرحلة. كما أن الرحلة في التغريبة لا تقتصر على حياة القبيلة وحدها فتتحول إلى تاريخ بل

---

(1) - **Claude lévi - strauss, tristes tropiques, librairie PLON,1955 paris page 185**

هي وصف للظروف التي واجهها أفرادها من حيث أنهم يؤلفون جماعة. و تختلف رحلة الجماعة والريادة عن بعضهما من حيث البعد الزمني، غير أنهما يخضعان إلى تقنية واحدة، فالهلاليون يتنقلون بصفة مستمرة ويلتزمون بالإقامة في كل بلد مدة من الزمن تتراوح بين أيام وشهور. وتنقسم الرحلة نحو الغرب إلى نمطين، يتمثل الأول في الريادة التي يشرع في تنفيذها عدد محدود من الأمراء، ويتعلق الثاني بانصراف مجموع الهلاليين من الحجاز إلى الغرب من غير رجعة. إن إلتفات التغريبة إلى الريادة يمثل جانبا مهما في تحقيق الهدف المرغوب من الرحلة، فتعد الريادة من هذه الزاوية مدخلا أساسيا للزحلة، وذلك لأن الهجرة المقررة لم تنشا من الفراغ بل تظل ذات صلة وثيقة بالمجهودات السابقة لها. وتنطلق من المشكلات التي تنبثق من الريادة وأهمها اعتقال يونس ويحي ومرعي، ويكون للريادة دور هام في تحفيز أفراد القبيلة على الهجرة والاستجابة لها، وتذليل الحواجز والعراقيل المتعلقة بالمسالك والطرقات.

إن الريادة أمر صعب يتطلب كثيرا من العناء والجهد والشجاعة، والخبرة والتدريب ولهذه الأهمية كتب الأمير حسن

تاريخ الريادة في الدفتر[1]. إنطلق الأمراء الأربعة المكلفون بالريادة وهم أبو زيد ومرعى ويونس ويحي من موقع جغرافي مفصول عن منازل القبيلة بمسافة يستغرق قطعها ثلاثة أيام، [2] وتقدم التغريبة هذا الحديث الهام من حياة القبيلة من خلال مشهد الوداع الذي يثير انتباه الرجال والنساء ويترك أثرا عميقا في نفوسهم، وقد أخذ مشهد الوداع مظهرا غيبيا حين تضرع الجموع بالدعاء إلى الخالق يلتمسون منه العون والتوفيق والسلامة، [3] إن الرواد الأربعة يعبرون بالريادة عن الحركة والفعل والحدث الخارق للعادة، فملامحهم البدينة غير محددة ولا نعرف عنهم سوى بعض الخصال كالشجاعة والفطنة ونجهل أعمارهم، وفيما يخص وضعيتهم العائلية والطبقية فان أبا زيد متزوج أما يونس ويحي ومرعي فهم عزاب ولكنهم جميعا ينتسبون إلى السلالة النبيلة. إن انطلاق الريادة إذن هو الاهتزاز الأول والهزة الانفعالية القوية، بحيث يتطوع الفرسان الأربعة ويندفعون إلى المغامرة ويتحملون كل الأخطار، فهم قبلة أنظار أفراد القبيلة لأنهم سيتجهون إلى عالم مجهول عصي على النفوذ. وفي هذه اللحظات بالذات يتحول الرواد

---

[1] - انظر تغريبة بني هلال ص 80

[2] - انظر م ، ن ص 06

[3] - انظر م ، ن ص 09

الأربعة من الناحية النوعية من الشخصيات البارزة، أو الأساسية إلى الأبطال الذين يتميزون عن غيرهم بالفضائل أو الأفعال الخارقة. فيتلبسون دورهم جيدا ويأخذون الأمر على عهدتهم وبالمقابل يحظون من عائلاتهم والقبيلة بأسرها بالهتاف والتهليل.

ينطلق الأمراء الأربعة من بلاد نجد ويتوجهون إلى بلاد الحزوة والنير التي يحكمها الملك الدبيسي ابن مزيد، يقيمون عشرة أيام فيها، يطلع الرواد على المعدات العسكرية وعدد القوات المسلحة،[1] بلغ الرواد بلاد العمق بعد أن ساروا تسعة أيام، وخضع تنقلهم إلى مرحلتين زمنيتين حيث يخلدون إلى الراحة في النهار ويقطعون البراري في ظلام الليل[2] والمراد بالنهار الوقت الذي تثير الشمس فيه الأفق فيأخذ النهار مفهوم الظرف غير المناسب للحركة وشيوع الهدوء والسكينة والطمأنينة في حين يشير الليل إلى الوقت الجاري بين غروب الشمس وشروقها أو يدل على الحال الموافق للتحرك والزحف والنشاط، ويحدث انقطاع في الرحلة إذ يعرض الراوي علينا قصة متعلقة بمملكة مغامس التي اغتصبها عبده سعيد[3] وذلك بفيض من التفاصيل. وتظهر هذه القصة وكأنها

---

(1) - انظر م، ن ص 10

(2) - انظر م ، ن ص 10

(3) - انظر م ، ن ص 10

عملية ترمي إلى تحويل انتباهنا عن موضوع الرحلة أو تسلية أو إستراحة قبل إستئناف الطريق إلا أن الرواد لا يبقون محايدين بل يؤدون دورا مهما في صناعة الأحداث الباقية من القصة. ولذلك لا ينزلون إلى مرتبة الشهود ولكنهم يندفعون إلى إنجاز عمل عجيب فيتجاوزون العراقيل ويتجنبون الفخاخ والمكائد والخدعات وينجحون في إستئناف الحياة الزوجية والعائلية وإصلاح نظام البلاد. ولم يكن القصد متمثلا في القصة ذاتها بقدر ما هو التعبير عن خصال الرواد وقدراتهم على نشر العدل والإحسان والحفاظ على حقوق الضعيف. يواصل الأمراء طريقهم بسرعة ويصلون إلى مكة المشرفة وقلوبهم متلهفة على زيارة المقام. [1]

إن الرواد أبطال ولكنهم مخلوقات تعبد القوة الإلهية مثل غيرهم من الناس، وتمثل زيارة المقام الحماية من كل القوى الشريرة التي يمكن أن تعترض سبيلهم، إن حياة الرواد والقبيلة التي ينتمون إليها مبنية على قناعة أن " الكون ليس مملكة الخطيئة والمعصية والذنب بل يعود إلى النظام الذي أراده الإله"[2] واللجوء إلى القوة الإلهية في الرحلة ليس عابرا أو زائلا بل يرتبط في كثير

---

[1] - انظر م ، ن ص 17

[2] **Erich kohler, l'aventure chevaleresque, idéal et réalité dans le roman courtois Gallimard 1974 page 182**

من الأحيان بالحدث والفعل ويشير الأبطال إليها بواسطة بعض أسمائها وصفاتها و وظائفها.

ويجتمع الرواد في بيت شكر الشريف بن هاشم وهو زوج الجازية ويعلمونه بخبر خروجهم عن الوطن. إن اتصال الرواد بهذه العائلة ونقل خبر الرحلة إليها دلالة رمزية على أن إحدى مكوناتها لن تتمتع بصفة الدوام بحيث نجد الجازية تنتمي إلى نوعين من العائلة تؤدي في كل منهما دورا مختلفا، فهي زوجة شكر الشريف وأم للأولاد وأخت الأمير حسن بالولادة الذي تلتحق به للذهاب مع القبيلة إلى الغرب. وهكذا تحصر الجازية أدوارا كثيرة حول ذاتها منها الزوجة والأم والأخت والعشيقة.

وإستأنف الرواد طريقهم ونزلوا في بلاد العجم فدخلوا عليها وداروا في أسواقها، رغم الأهمية الكبيرة للوظيفة الإدارية والسياسية التي كانت تحدد مفهوم المدينة فان السوق وليس قصر الحاكم أو الوالي هو الذي كان يؤلف قلب المدينة. فقد كان السوق وليس القصر المركز الطبوغرافي لمعظم المدن. وحتى في تلك المدن التي كان القصر بالنسبة لها بمثابة النواة الأصلية فإن القصر هرب من مجاورة السوق المزعجة بسبب الإكتضاض ونداءات الباعة وذهاب الناس وإيابهم. ولا يتعلق الأمر بكون المشرفين على

التجمع أو التكتل الحضري كانوا عاجزين عن حل قضاياهم مع سكانه ونقل الممرات التجارية المزعجة إلى مكان بعيد ولا سيما حالات معروفة هدمت فيها أحياء كاملة لبناء القصر طالبين من أهلها حمل أمتعتهم والرحيل حيثما شاؤوا ولكنه لم يحدث أن قاموا بهذه التجربة مع الأسواق، إذ كانت قدرتها المعاشية أقوى من السلاح. [1]

رحل الرواد من هذه البلاد ومشوا الليل والنهار حتى بلغوا مدينة التركمان فدخلوا على ملكها الغضبان ومدحوه بالقصائد. [2]

إن لكل مدينة أو مملكة أبوابها وحراسها ونواهيها ومستبعديها. ولذلك يكون الشعر وسيلة للاتصال والتخاطب والتبادل والتكسب، وقد استغل الرواد التقليد الذي يقضي بان يعيش الشعراء في كنف السلاطين حيث يفتخرون بخصالهم ويثنون عليهم بالتملق والمجاملة والإطراء وبالمقابل يقدم الملوك لهم الجوائز ويحموهم من مصائب الدهر. وهكذا تخطى الرواد حدود بلاد التركمان سالمين وغير مصابين بأذى وتوجهوا إلى بلاد العراق حيث كان الخفاجي عامر ملكا عليها. [3] وقد لجأ الرواد هذه المرة كذلك إلى

---

[1] انظر بولشاكوف، المدينة العربية في القرون الوسطى ترجمة ايمن أبو شعر دراسات في تاريخ الثقافة العربية القرون5-15 دار التقدم 1989 موسكو ص 201.

[2] - انظر تغريبة بني هلال ص 17

[3] - انظر م، ن ص 17

طريقة التعبير بالشعر، ولم ينغمسوا في عالمهم الداخلي بل تأملوا محيط بلاد نجد الطبيعي ووصفوا الأحداث التي عرفها كالجفاف والمجاعة وتأثر قومهم بها. [1] انطلق الرواد إلى مدينة الشهباء التي كان الأمير بدريس يتولى أمورها، إنتهز الرواد فرصة الهدنة التي اتاحها لهم الخزاعي وزير بدريس أمير حلب فجددوا طاقاتهم بالتزود بالمؤن من السوق ثم مروا على حماة وحمص وطرابلس والشام التي كان الحاكم عليها شبيب التبعي ابن مالك ابن حسان حتى أشرفوا على القدس الشريف فأقاموا بها يومين ومنها ساروا إلى غزة ومدحوا مالكها الشركسي ابن نازب وأقاموا عنده عشرة أيام ثم جدوا في المشي حتى وصلوا إلى العريش ومدحوا الملك البردويل ابن راشد وأقاموا عنده ثلاثة أيام ثم ودعوه وذهبوا إلى مصر و مدحوا كذلك الملك الفرمند بن متوج وأقاموا عنده ثلاثة أيام ثم قصدوا بلاد الصعيد ومدحوا الماضي بن مقرب. [2] وتظهر الوظيفة الإستشهادية حين يثبت الراوي المصدر الذي استمد منه معلوماته المتعلقة بشخصية الماضي بن مقرب المعروفة بالجود والكرم فيقول أن المؤرخ المشهور ابن خلدون ذكرها في كتابه

---

(1) انظر م، ن ص 18

(2) انظر تغريبة بني هلال ص 19

العبر. [1] يغادر الرواد البلد وهنا يقوم الراوي بعملية سردية وهي السابقة التي تتمثل في إيراد أحداث آتية أو الإشارة إليها مسبقا يطلق عليها النقد القديم اسم سبق الأحداث، [2] حيث يسعى إلى التمهيد لتونس وهي النقطة التي تصل إليها الرحلة وذلك بالحديث عن سعدة وجمالها وأدبها وشغفها بمرعي ومعرفتها بضرب الرمل والنظر في أحوال الرواد وأخبارهم وتوقعها بالأمور التي ستجري[3] والملاحظ أن هذا التنافر الزمني القائم بين ترتيب أحداث الحكاية وترتيبها في النص القصصي يرد في النص القصصي التقليدي سواء أكان كتابيا أم شفاهيا وهذا يدل على انه جزء أساسي من الأسلوب القصصي. [4]

وصل الرواد إلى تونس وقت الظلام فباتوا خارج المدينة وفي اليوم التالي تأملوا مبانيها وحصونها وأبراجها وقلاعها وأنهارها وخيراتها. وبما أن للريادة بعدا عسكريا يفترض تغلب الجماعة القوية على الأخرى فان الرواد أخذوا في تحضير خطط ومجموع التدابير والترتيبات المعتمدة بقصد تنفيذ مشروع الحرب.

---

(1) انظر م ، ن ص 19

(2) انظر سمير المرزوقي، جميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة تحليلا وتطبيقا الدار التونسية للنشر، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ص 80.

(3) انظر تغريبة بني هلال ص 20، 21

(4) المرجع نفسه ص 79 ،80.

فالرحلة من هذه الزاوية هي قبل كل شيء تعمير بكل ما تحمل هذه الكلمة من دلالة على استقرار الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والحيوانات في مكان لم يكونوا فيه في السابق. ويرتبط هذا التعمير بطابع محدد متمثل في خلق سلطة جديدة تابعة للمملكة الهلالية. وقف السلطان خليفة الزناتي على الخبر اليقين من المنجمين فيما يخص مراقبة الرواد السرية وميلهم إلى غزو تونس وتخريبها.

وبعد مفاوضات طويلة مع أرباب المجلس استقر الرأي على إعدامهم بالشنق، غير أن تدخل سعدة حال دون تنفيذ الحكم بسبب تعلقها بمرعي، واقترحت حبس الشبان الثلاثة في قصرها وإرسال أبي زيد إلى بلاده طلبا للمال والفدية مقابل تسريح الأسرى. وإذا حاولنا لن نكشف عن دوافع هذا الموقف من الرواد المحصور في قتلهم إنطلاقا من فن التنبؤ بالأحداث تبعا لمراقبة الكواكب نجد أن كل جماعة بشرية تعتمد على مفهوم العدو المخصص الناجم قبل كل شيء على وجود الحيوانات المفترسة التي أحاطت إقامات الجماعات البدائية ومكان معيشتها وهددتها وبعدها يأتي وجود القبائل المعادية فالبشر يميلون باستمرار من خلال علم الكونيات والأساطير التي ترتبط به إلى تصور العالم على أنه مسلم للقوى المعارضة والصراعات العنيفة.

إن معظم القصص الأسطورية والخرافية تروي النزاعات الضخمة الجارية بين الآلهة والجان والأغوال والعفاريت. كما أن السلسلة المتوالية من الظواهر الطبيعية يكون التعبير عنها في الأساطير بأنها صراع حاد بين الأعداء الذين ينتصرون وينهزمون بالتناوب. ويبدو العالم الاجتماعي مؤلف من الروابط المكملة أو الإقصائية. إن كل الجماعات تميل إلى كراهية ومقاومة الذين يختلفون عنها بالمعتقد أو العرق أو اللغة أو الآداب. كما تنزع إلى إضطهاد الذين يبدون لها أنهم ينتمون أو يجمعهم نسب أو مصاهرة مع الجماعات الأجنبية، ولذلك تقتضي كل حياة اجتماعية العدوانية الموجهة، وتترتب هذه عن ضرورة تحويل الاندفاعات الهدامة الداخلية من هجراها إلى الموضوعات الخارجية عن الجماعة. وهكذا وفي جميع العصور غير الزعماء النبهاء اتجاه الغضب والسخط وعدم الرضاء الصادرين من رعيتهم ضد الجماعات المجاورة لهم. إن بعض اضطرابات الضمير كالشعور بالنقص وعقدة الذنب وعقد الإخفاق والخيبة تسعى إلى البحث بغموض عن المسؤولين الذين تتمكن من اتهامهم وعقابهم وكذلك بالنسبة للجماعات فإنها تكون في حاجة إلى قذف غرائزها الشريرة وتوتراتها وانفعالاتها الشديدة الداخلية على غيرها من الناس. إن

تحديد العدو المشترك الذي يستقطب الأحاسيس والعواطف السلبية جزء من الوقاية العقلية لكل جماعة بشرية، وتبلغ هذه السلبية ذروتها في الحرب الداخلية أوالخارجية التي توفر منفذا كبيرا[1] وتتأكد الرغبة في العيش في الأراضي الجديدة والواسعة والخصبة من خلال طواف أبو زيد مرة أخرى بعد إطلاق سراحه في سهول تونس ووهادها وقصورها وعزمه على تخليص الشبان من الإعتقال، وقد ظهر الغرب بالنسبة للرواد عالما شاسعا ومألوفا وليس مصغرا أوغريبا، فهو بلد معبور منذ أن زاره الشعراء العرب قديما ومدحوا السلطان خليفة الزناتي وقدموا الجازية هدية له، كما أن الغرب عالم داخلي تتطلب من الرواد الشجاعة والصبر والحكمة والفطنة.

العودة عنصر أساسي من الريادة وهي متوقفة على نجاح الكشافين في المهمة المعقدة التي تقع على عاتقهم، والريادة لا تعبر عن العودة بطريقتها الخاصة وإنما تكون العودة نتيجة لتطور الأحداث والشروط التي يفرضها في كثير من الأحيان الغالب.

قطع أبو زيد البراري مدة عشرين يوما حتى اقبل على أرض الصعيد وأخبر الماضي بن مقرب بالأحداث التي تعرضوا

---

[1] **Gaston bouthoul, les mentalites, presses universitaires de France, que sais-je 1981 paris page 50,51,52,53**

لها في تونس، بقى بضيافته نحو يومين وبعد ذلك سار عدة أيام حتى وصل نواحي حلب، سلم خطابا مكتوبا إلى تاجر قاصد بلاد الغرب لنقله إلى العلام وزير السلطان الزناتي يعلن فيه قدوم الهلاليين إلى تونس ويحدد عدد فرسانهم " بأربع تسعينات ألوف" ويشبه هذه الجيوش الغفيرة بالجراد. إستخدم الإغراء والتضليل والرشوة بتحويل جزء من أملاك الغرب وثرواته إلى العلام مقابل التواطىء المتعمد. أخذ أبو زيد طريقه إلى نجد ودام سيره خمسين يوما ودخل إلى نجع بني هلال.

انطباعات شخصية هلالية مشهورة

إن رجوع أبي زيد الهلالي من بلاد الغرب أول خبر أساسي وصفته التغريبية بالبشرة.[1] عرض أبو زيد أحداث الريادة شفاهيا على أعيان القبيلة.[2] وترتبط فائدة هذا التقرير بالطابع النادر والشاذ لما سيقدمه من أخبار ومعلومات وما يتعلق خصوصا بمزاج الكشاف وانطباعاته، وبمعنى الآثار والبصمات التي تركت الريادة في حواسه وقلبه وعقله أو التعبير عن شعوره وتخيله. وردت انطباعات أبي زيد في قالب شعري قصصي. إن دخول الشعر في القصص الشعبي جوهري لأن الأحداث تدور عليه. وقد

---

[1] انظر تغريبة بني هلال، ص29.
[2] م ن ص29.

تعود العرب أن يسجلوا أحداثهم شعرا منذ العهد القديم، فالحادثة لا تعد صادقة عندهم إلا إذا وردت على لسان الشاعر. إن العرب لا يصدقون القصة ولا يستخرجون منها العبر والتجارب إلا إذا تناولها الشاعر الجوال، ولذلك نلاحظ أن كل المؤلفات التي تعير اهتماما بالخبر تلجأ لإثبات صحته وصدقه إلى طريقين، الأول هو رفعه إلى قائله بواسطة سلسلة من النسب والثاني هو الإشارة إلى مضمونه وما تعلق به.

ثم إن الشاعر ينتسب إلى زمرة محدودة من الناس تعد أكثر علما بأمور العيش والأنساب والعلاقات داخل القبيلة وخارجها.

وقد كان الشعر البدوي الشفاهي وسيلة شاملة لتثبيت المعلومات عما جرى وما كان يجري في الماضي، وعبارة عن نمط خاص للذاكرة الاجتماعية mémoire sociale. وحتى كلمة الشعر ذاتها كانت تعني في البداية (المعرفة) (الدراية) وقد أدى الشعر وظيفة مماثلة لدى شعوب عديدة ممن لم تكن لديها لغة كتابية. وكان الشعر البدوي وسيلة هائلة لتكوين ونشر المفاهيم والتصورات الاجتماعية والثقافية العامة بين القبائل العربية، ومع ذلك فإن الشعر وحده ليس كافيا لرسم صورة الحياة البدوية وخاصة التاريخ.

إلا أن الشعر هنا لا يساهم في تفسير تجربة الريادة بقدر ما يوضح وجهات نظر الرائد أبي زيد ليجعلها مقبولة عند القبيلة. تتحرر رواية السفرة من كل مواضعات الأدب حتى يقترب الرائد من مهمته الحقيقية وهي أن يعبر بأمانة عن الأحداث. ويتطلب خطاب الريادة الفصل بين المغامرة الفردية L'aventure Individuelle والمتخيل L'Imaginaire والحدث في حد ذاته L'événement. تدل المغامرة على المحنة والتجربة والسعادة المفقودة والبحث عن الهوية والخطر والتحدي. إن مغامرة الرواد ليست تعبيرا عن الحدث الطارئ والمفاجئ أو المبادرة الخاضعة للصدفة وهو الذهاب إلى بلاد الغرب بسبب الطبيعة العنيدة فقط (الجفاف، المجاعة) وإنما هي تعبير عن السمو والصعود نحو المثال (الفوز بأرض الميعاد والحلم بالانتصار على زناتة) وهي كذلك تعبير عن عزة النفس والكرامة والشرف (تخليص الأمراء الثلاثة من السجن).

ليس القصد من المغامرة في التغريبة هو الضياع والاتجاه نحو المجهول بل هو شعور أبي زيد بذاته وإثباتها بكل جدارة ولذلك تعبر المغامرة عن خصال أبي زيد ومحاسنه كالشجاعة والبسالة والشهامة. ليست انطباعات أبي زيد صورة مطابقة للواقع

إذ لجأ إلى المبالغة والغلو في سرد أخبار الريادة، ولذلك يشكل المتخيل القصصي أحد المكونات الأساسية للمغامرة الفردية. إن تركيز الراوي أبي زيد في مطلع المقطوعة على تقديم قصة من أعجب الأخبار دليل قاطع على توظيف المتخيل العجيب L'imaginaire merveilleux والمقصود به أن تكون المادة القصصية مستمدة من عالم غريب حافل بالأحداث. ويعني العجيب في أصل التسمية أثرا أدبيا يحدث لدى السامع حالة هي مزيج من المفاجأة والإعجاب، وقد كانت البلاغة الكلاسيكية تقصر العجيب على تدخل ما هو فوق الطبيعة في القصة وتعتبره مجموعة من الطرائف ولذلك اعتبر العجيب عندها خارجا عن التصديق والتسليم، ويرتبط العجيب باللا مفكر فيه l'impensable واللامعقول l'irrationnel.[1]

ومن الأخبار الغريبة والشاذة في سياق الحديث عن الريادة التي تحمل السامع أو القارئ على الانتباه والإصغاء ذهاب أبي زيد في اتجاهات اليمين واليسار في بلاد الغرب بأسرها وبلوغ الحرب حد العنف يقطع الأجسام الجامدة والصلبة كالحجر والصخر

---

[1] - أحمد الجوزة : تنوع المتخيل القصصي في مجموعة (طائر الخزف) مجلة المسار 2004 ص91

باستعمال السيوف والتأكيد على العشق بصفته مصدر الحياة الأمراء الهلاليين وتحررهم من الموت في عالم مغلق وخاضع لسيطرة سلطة أرستقراطية ومستبدة. وتدخل كل هذه الأمثلة في تكوين الأخبار العجيبة بإضفاء الصبغة المثالية والسحرية عليها وإشارتها إلى بناء العلاقات الطبيعية والممكنة المتعذر بينها.

إن للمتخيل مضمونا دلاليا ولكنه متعلق بنية وقصد ولذلك يمكن لكل شيء أن يتحول إلى متخيل حتى ولو كان الأمر معنيا بشيء واقعي، لأن المتخيل مطروح بصفته مضمونا محسوسا

غائبا. إن المتخيل المحدد بهذه الصفة هو الذي يكشف عن الممكنات. ما الذي دفع أبا زيد على تخيل بعض الظواهر في أحداث الريادة ؟ أتاح المتخيل لأبي زيد أن يفصل قبل كل شيء عن الحالة الحاضرة وعن الواقع المباشر، وقد شعر الحاجة إلى الهروب بواسطة الذكريات والأحلام، وقد خلق أبو زيد آراء وانطباعات واعتقادات وجعلها شرعية وصدقها وبررها من حيث إن علاقتها بالمتخيل خاضعة لاحتياجات وانشغالات غير قابلة للانفصال عن طبيعته البشرية. وبموازاة سيرة أبي زيد في الريادة المتعلقة بالعمل الجاد كالحصول على المعلومات الضرورية عن المدن والقرى والإصرار على البقاء، والتعرف على المسالك والتفاوض مع

السلطة يفتح المتخيل بابا لدائرة العمل المجاني. إذ إن أبا زيد بحاجة إلى الاستراحة والانبساط والتراخي والانفراج واطمئنان البال وذلك عندما خرج من المغارب وأرضها وبقى عند

الماضي أبي الجود مقدار يوم وليلة بعيدا عن ضغوطات أحداث الرحلة. إن انقطاع أبي زيد عن نشاطه الريادي وأخذه مكان ضمن عائلة الماضي أبو الجود فرصة للهروب من الحياة الشاقة، ويتحول هذا المكان والزمان إلى مصدر للمتعة والحزن والكآبة والتنفيس وإشراك الغير في عالم الريادة.

إن القصة العجيبة التي يستعين بها أبو زيد تجلب بطريقة غير مباشرة نصيبا من الحقيقة. إن الغريب والعجيب يؤديان إلى إدراك الأشياء وفهمها والحصول على النظام والدلالة حتى ولو أن التفسير مستحيل، فالمتخيل لا يحقق احتياجات الحساسية فقط وإنما يميل إلى التحقيق على مستوى الأفعال بإعطائها أسس ومبررات وغايات. ما الذي حرض أبو زيد على الخضوع واحترام أوامر القيادة وأعراف القبيلة ؟

إن رحيل أولاد أعيان القبيلة إلى بلاد الغرب يوشك أن يظهر وكأنه تعسف ومعرض للعدول لولا ارتباطه بالمتخيل الذي يحيل إلى بعض مفاهيم الأسطورة الثقافية كالأرض الخضراء. إن

أبا زيد فارس شجاع وقوي وهو يؤدي دور الشخصية الخارقة للطبيعة ويواجهه أفراد القبيلة الذين يجهلون الدوافع والبواعث الحقيقية، يتأثرون بمظهر هذه الشخصية وحركاتها وأقوالها وانفعالاتها ويؤمنون بقوة البطل التي تتوقف مع ذلك على سذاجتهم وسرعة تصديقهم. كما أن أفراد القبيلة المقيدين بظروف عيشهم القاسية كالجفاف والمجاعة قلما يجدون أحسن من هذه المبالغة والإفراط والتفخيم. يستخدم المتخيل بالفعل من أجل تزويد الناس بالذاكرة وذلك بتقديم قصص تعيد بناء ماضيهم وتبرر حاضرهم. إن الرحلة إلى الغرب غير مفصولة عن الحلم بأرض الميعاد الذي يجعل بدوره تاريخها شرعيا.

ثم إن التطلع إلى الهدف يؤدي حتما إلى التحالف بين السلم والحرب وبين الخير والشر وهو الأمر الذي يدفع الهلاليين كذلك إلى خلق أعراف من أجل بلوغ غايتهم كالسلطة والحق والتضامن والفروسية والتضحية بالنفس. كما أن المتخيل يجهز أفراد القبيلة ومنهم الرواد بالأمل والرجاء و الانتظار والقيام بأعمال تصنع مجدهم وتقرر مصيرهم. إن القبيلة بدون وساطة المتخيل يتحول وجودها إلى هيكل ثابت. إن الرواد يلتمسون في أحلامهم أهدافا لأفعالهم الحاضرة والقادمة، هكذا نجد أسطورة الأرض الكريمة

(تونس) تساعد الرواد على رسم لأجزاء الرحلة وخطة عمل في سبيل تغيير حالة القبيلة في الحاضر. إن أبا زيد ليس متهما بتحريف الحقيقة وتزويدها بوضع متخيله تحت تصرف الذاتية المستسلمة ولكن متخيله مثير للانفعالات والعواطف والتأثرات إذ أنه كلما خبر الأهل والأقارب والأصدقاء بأحداث الريادة تذرف العيون بالبكاء، وتؤدي هذه الانفعالات إلى تصديق حقيقة التصورات

والتمثلات بدلا من نظام الواقع الموضوعي. وإذا كان للمتخيل نصيب في تعبير أبي زيد عن أحداث الريادة فإنه لا يؤدي إلى الحقيقة الموضوعية ومن ثم هل تحيده هذه النتيجة عن الكراهية والانتقام ؟ إنه من الضروري على أبي زيد الرجوع إلى مبدأ الواقع ومتطلباته وقيوده وعدم الخضوع إلى الهذيان والهلوسة. ولا سيما موضوعات الموت والحبس والعشق والحرب التي تحدث عنها أبو زيد تعد من المتخيلات الغنية والقوية. إن هجرة الهلاليين إلى ما وراء الجزيرة العربية حدث ارتبط بالمعاناة والمشقة والحلم بالانتصار والتحرر من العبودية المفروضة من الطبيعة العنيدة، وميلاد تاريخ جديد في فضاء جديد لم يتم على حساب التراث القديم وأسلافهم. وبعبارة أخرى إن رحيل الهلاليين إلى بلاد الغرب

واستقرارهم فيها لا يتطابق في المتخيل الجماعي مع تدمير الأب الروحي كما حصل ذلك في أمريكا الشمالية التي استوطنتها جماعات من المنقلعين بعد القهر الكنيسي، وبالعكس حافظ الهلاليون على البنية الأبوية المتسلطة وأدمجوا في متخيلهم أبطالهم وفرسانهم ومعاركهم في حين تبرز بلاد الغرب بصفتها شخصية مغذية ورمز الأمن والرخاء والخصوبة وزيادة الخير.

أما حدث الريادة فإنه واقعي ومحسوس يتمثل في زيارة الغرب بعناية وسبر أغواره و فحص وضعه ودراسته. ورغم أن الحدث شامل باعتباره متعلقا بالقبيلة بأسرها وخطير إلا أنه ليس الحدث الخام هو الذي عبر عنه أبو زيد. إن الحدث الخالص أو الموضوعي لا تتأثر به القبيلة إلا عندما يعرض الراوي القيم للخطر (تهديد حياة الأمراء الأربعة). وإذا كانت الريادة تتكون من أحداث فليس الحادث محل اهتمام الرائد بقدرما هو تغيره كالتغير من الموت إلى الحياة (تهديد الأمراء بالشنق وتخليصهم بعد ذلك) ومن الحرية إلى الحبس (اعتقال الأمراء الثلاثة). إن الحادث هو التغير سواء أكان مفاجئا أم بطيئا، صغيرا أم كبيرا. ليس صدفة أن يتحدث أبو زيد أحيانا بصيغة الجمع عن قبيلته كلها ويعتبر نفسه جزءا لا ينفصل عنها.

وصارت أراضينا بأوشم عار وصرنا فضيحة بين كل قرومنا

وانـي سأخبرهم بما قد صــار بأني راجع إلى بلادي وأرضنـا

فما الشور والتدبير فيما صار وهــا أنا أخبرتكـم فيمـــا أرى

إلا أن أبا زيد ينفصل عن القبيلة أحيانا أخرى ويحتل مكان الصدارة بواسطة ضمير الأنا.

ولي قصة من أعجب الأخبار يقـول أبو زيــد الهلالي سلامــــة

وفي رجعتي قاسيت هموم كبار وفــي سفرتي للغرب حتى أرودها

درت ميامنهــا ودرت يســـــار دخلت إلى الأرض الزناتي ودرتها

إن الحدث في القصة المروية ليس مؤرخا بمجمله بمعنى من بداية الريادة إلى نهايتها بل ارتبط جزء من الرحلة وهو الخروج من أرض المغارب بقياس الزمن الطبيعي المحدد "بعشرين ليلة زايدات نهار".

إن الهلاليين عبارة عن قبيلة معنية في المقام الأول بالصراع من أجل الظفر برزقها من الطبيعة. كان الميزان أو المقياس لحياتها إنسانيا ولذلك لم يصبح تسجيل الحوادث أمرا مهما وهي تؤرخ أحداثها المهمة في أغلب الأحيان بوضعها مقادير عشوائية تقريبية من الزمان. إن الدلالة الإنسانية للزمان تعني شيئا أكثر من مجرد الأرقام، ويميز المجتمع القبلي تاريخه عادة بالسنة

التي استولى قادته على الحكم أو حسب مراحل العمر وباستخدام الجسم البشري وإحياء الاحتفالات والطقوس والأعياد ومواسم الصوم ومناسبات بذر الحبوب والحصاد والصيد والهجرة وتعاقب الفصول. ومن خصائص الثقافة البدوية استخدام شكلين للزمن هما الزمن الطبيعي والزمن التاريخي، وقد مر تشكل مفهوم الزمن التاريخي بطرق مختلفة، كان الشعر يشير إلى إحداها : من وصف شيخوخة الانسان (باعث الشيب والعجز) إلى وصف الفناء بمعنى من وصف الدور البيولوجي (الولادة، سن النضج، الشيخوخة، الوفاة) إلى فكرة دورة مماثلة عن التنظيم الاجتماعي الذي يمر عبر المراحل : الظهور، القدرة، الانهيار. لم يكن التصور عن الماضي مرتبطا بعد بالمحور الزمني للوجود وهو لم يكن بالطبع مرتبطا بفكرة الحركة والتطور سكونيا بطبيعته وارتبط بالإدراك المكاني للوجود التاريخي فهو منفصل بالنسبة لنا زمنيا وبالنسبة لهم مكانيا[1]. وإذا كان زمن الريادة في التغريبة غير معروف فإنه مركز على الماضي والمستقبل في صيغتين أخريين هما الذاكرة Mémoire والانتظار l'Attente باعتبارهما يمثلان الحاضر

---

[1] مجموعة من المؤلفين، دراسات في التاريخ الثقافة الغربية القرون 155، ترجمة أيمن أبو شعر، دار التقدم موسكو 1982، ص 112-113.

الفعلي. وفي الموروث القبلي وفي الشعر بشكل خاص تناقل مضمون الذاكرة المثبت فيها وعملية تكراره بالشكل الشفاهي (بمعنى الذاكرة) (التذكر) بمساعدة الكلمات التي تشتق من جذر"ذكر" تذكر، وهذا الجذر بمثل هذه الدلالة مذكور في أقدم الآثار اللغوية السامية وهو يعبر أيضا عن فعالية آلية الذاكرة ونتيجة هذه الفعالية دون التسليم بأي شكل كلامي ولا مضمون محدد ودلالته الرئيسية هي توجه الوعي إلى الماضي. غير أن مصطلح ذكر يتعلق بالدرجة الأولى بمعلومات مستقاة من الذاكرة المديدة عن حوادث ماض بعيد مما يميزه على سبيل المثال مصطلحات من مثل نبأ أو خبر اللذين يدلان على الأكثر على الأخبار جرى في ماضي غير بعيد أو في مرحلة زمنية ملتصقة بشكل مباشر بلحظة التحدث[1].

أما فيما يخص المكان فإن الحدث محصور في موضع محدد وهو بلاد الغرب ولم يهتم أبو زيد بوصف المكان كما نجد ذلك في كتابات الرحالة ودراسات الأثنوغرافيين بقدر ما ركز على الرحلة وما ترتب عنها من أحداث ومواقف.

[1] أنظر : المؤلفون، دراسات في تاريخ الثقافة الغربية، ص 114 – 115.

وتثير انطباعات أبي زيد مسألة خطيرة تتعلق أساسا بثقة الراوي في التاريخ المعيش La confiance de l'informateur dans l'histoire vécue.

و بعبارة أخرى هل تصدق القبيلة رواية الريادة بكل جوانبها استنادا إلى شاهد واحد Un seul témoin. إن الشاهد العيان يقوم بوظيفة مرجع للمعلومات، إذ عندما بات بإمكان قسم صغير من المجتمع فقط أن يشارك في الحدث فإن شاهد العيان قد حاز على أهمية كبيرة بشكل غير عادي وغير وارد في الماضي. إن حملة المعلومات التاريخية في المجتمع القبلي كانوا هم أنفسهم أفراد القبيلة، نقل أبو زيد معلومات عن الأحداث وشاهدها بعينيه، ومع ذلك يبحث عن مصداقية لاكتشافه في تجارب الآخرين.

علمت محله خوف لا احتار   أخذت حشيش الأرض بيدي دفنته

على خيلهم بالعسكر الجرار   حتـــى إذا جاءت هــلال وعامـــر

فأخبرهم عما جرى لي وصار   يقولوا فما هذا الحشيش الذي هنا

وهــذا دليلي يا عرب أجهـار   أقــول لهــم إني وصلت إلى هنا

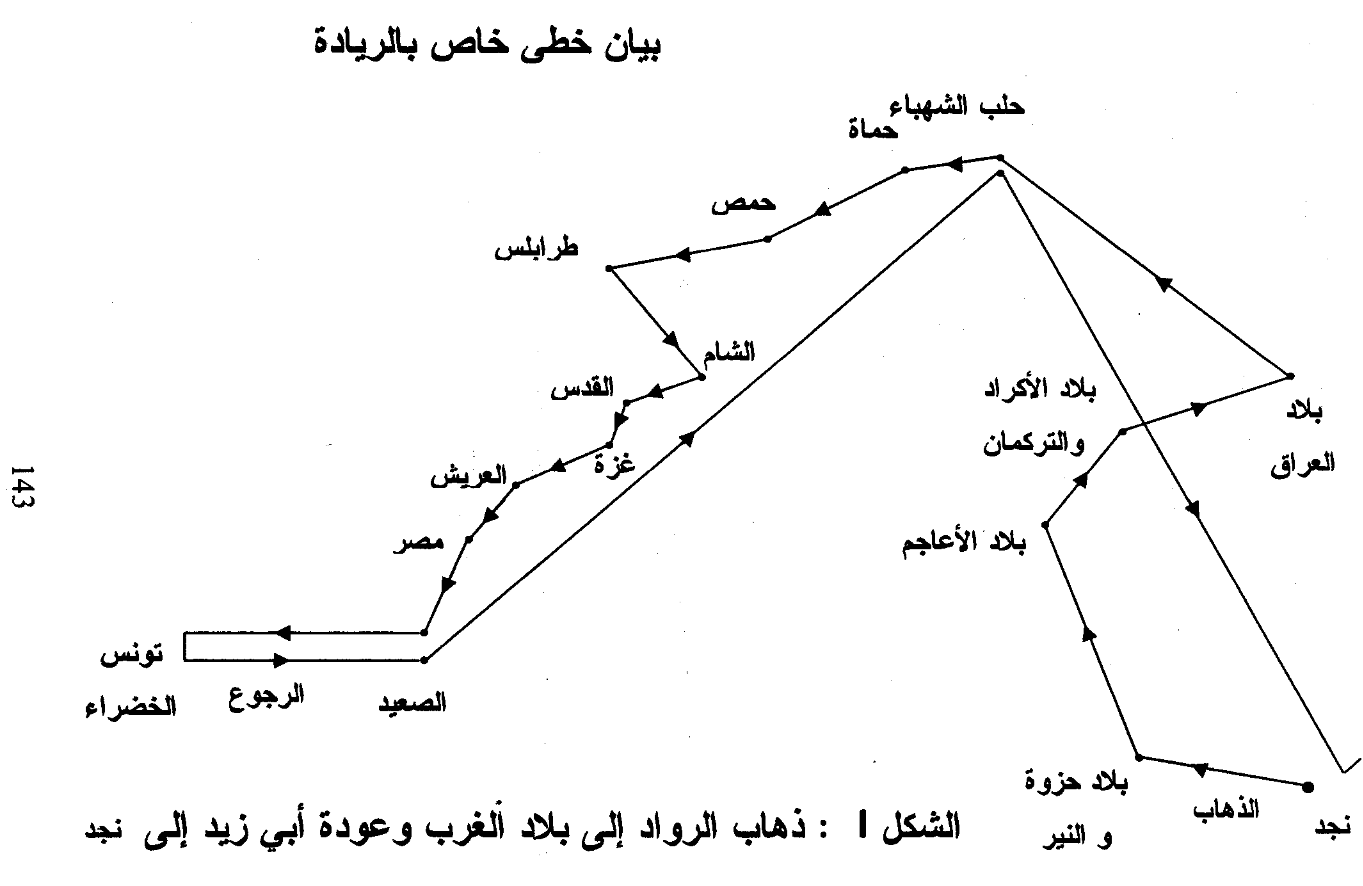
واستخدم أبو زيد مقولبات stéréotypes وهي سلوكات وعبارات متميزة بتكرار تلقائي لنموذج سابق مجهول تعوزه الصفات الفردية، ويتصف بقدرة عجيبة على التكيف مع الوضعية الحاضرة. إن القبيلة تعيش الواقع طبقا لمقولبات وهي لا تفهم الأحداث التي تحيط بها إلا من خلال السلوكات المكررة. فالرائد لا يقدم انطباعاته للجماعة إلا إذا كان ملما بأقوالها وأفعالها النمطية إذ أن لهذه المقولبات قوة تفوق الواقع أو الحادث نفسه. إن حدث الريادة في حد ذاته مجرد من المعنى ولا يستمد قيمته ووزنه سوى من خلال السلوكات المكررة، وقد استخدم أبو زيد مجموعة من المقولبات منها لي قصة من أعجب الأخبار - دليلي - الله أكبر- الفضيحة - جزاها الله - سلم على - أخبرهم بما صار - أخبرتكم بما جرى.

لم يستطع الراوي أو زيد وصف كل ما جرى من أحداث في بلاد الغرب ولكنه لم يجد نفسه مجبرا مثل المؤرخ على الاختيار من بين مجموعة من المعطيات التي يجب أن يرتبها لتفسير المشكلات الأساسية، بل إن الراوي سرد الأحداث التي انفعل بها. وإذا كان مبدأ الاختيار عند المؤرخ ينطوي على خطورة لأنه قد يؤدي إلى تغيير الحقيقة فإن طريقة الرواية هي التي تدفع

أبا زيد إلى الحذف والتعديل والزيادة. إن المؤرخ والراوي يتفقان على أن الأحداث كلها تخضع لأسباب محددة ولكنهما يختلفان حتما في طبيعتها. إن الراوي أبا زيد يؤمن على سبيل المثال أن تعلق سعدة بمرعى يمثل سببا مباشرا في نجاة الأمراء الأربعة من الإعدام في حين يعتبر المؤرخ هذا السبب عابرا وبسيطا في المكان والزمان.

أنظر تغريبة بني هلال ص30 – 31.

بيان خطى خاص بالريادة



الشكل 1 : ذهاب الرواد إلى بلاد ألغرب وعودة أبي زيد إلى نجد

رحلة القبيلة إلى الغرب ومكابداتها

بدأت التغريبة في حديثها عن رحلة القبيلة إلى الغرب ببيان الأزمة النفسية التي اعترت الهلاليين الناتجة عن الأولاد الثلاثة المحبوسين والمحكوم عليهم بالعقوبة المتسببة لحرمانهم من الحرية والذين يتوقف إطلاق سراحهم على تنفيذ الشروط المفروضة على القبيلة إلى جانب الجفاف الذي قضى على عناصر الحياة في بلاد نجد و جعلهم يبادرون ببيع فلذات أكبادهم ليطعموا أنفسهم من شدة المجاعة. ولا تختلف هذه الرحلة عما تعود عليها أجدادهم من ارتحال و من ثم ليست هذه الرحلة نمطا مستجدا في حياتهم بقدر ما هي سلوك يحدده العرف الاجتماعي المستمد من البيئة التي يعيشون فيها.

ويتميز الإعداد للرحلة الجماعية بعدد من القواعد البسيطة التي يسهل على كل فرد من القبيلة تطبيقها، منها تقويض الخيم وجمع الأمتعة. و يشارك في هذا العمل الشاق الرجال والنساء على حد سواء. ويخضع الاستعداد للرحيل إلى نظام صارم حيث تركب الزوجات والأخوات والبنات اللواتي ينتسبن إلى عائلة الفرسان والأمراء النبلاء أمام ضعون بني هلال و تتمثل في الجازية وريمة وعدلاريا وسعد الرجا و بدر النعام وجوهرة العقول ونجمة السحور

وزين الدار وعليا لأنه إذا نشب الطعن و القتال فإنهن يكن في حماية الأبطال. و يرافق رحيل النساء أربعة وعشرين فارسا من الشجعان. و كان الأمير أبو زيد في مقدمة الفرسان. و تعد بلاد نجد نقطة الإنطلاق التي تنظم كل الرحلة، وارتبط الإعلان عن الرحلة في اليوم السابع برفع الرايات و الأعلام و دق الطبول، وإذا كانت اللغة هي وسيلة الإتصال الأكثر إستخداما بين الهلاليين لتبادل المعلومات و الأخبار و الخطابات فإنها ليست الأداة الوحيدة في متناولهم، إذ هم يستعينون بالرايات والأعلام والطبول وبوصفها رموزا تتوقف على الأعراف الاجتماعية.

وتعد هذه الوسائل للتعبير عفوية لا يستوجب تعلمها قواعد صلبة ومعقدة، ويستخدم الهلاليون الأعلام و الرايات والطبول في أوقات محددة من حياتهم كالرحيل والقتال الدعوة إلى التجمع. كما أن الرايات والأعلام والطبول ملك القبيلة ومعروفة عند جميع أفرادها، وتثير وسائل الاتصال هذه إنتباه الهلاليين بأشكالها وألوانها ورموزها إلى الهوية التي تميزهم عن غيرهم من الجماعات الأخرى.

سارت القبيلة إلى الغرب وهي تبدو وكأنها ظاهرة خارقة للعادة بالفرسان والأمراء والنساء والأطفال والشبان والشيوخ

والحيوانات والأمتعة. كل فرد منهم قائم بذاته وإن إعتمد بعضهم على بعض حسب روابط القرابة والمصالح. إن القبيلة تمر على مراحل محددة من الرحلة حسب ما تقطع من المسافات وما تستغرق من الزمن وهي جسد واحد متكامل حيث تتكون من أفراد يمارسون وظائف محددة كالسلطة والحرب والحراسة والتحميس والتضليل والإغراء. وهذه الوظائف تعمل كلها بتنسيق فيما بينها فان أصاب خلل واحد منها يؤدي إلى اضطراب الرحلة وتوقف حياة القبيلة كلها. ويعتبر الطريق البري دون الأنهار والبحر، الصنف المعتمد في نقل القبيلة إلى الغرب فالطريق البري أكثر تلاؤما وتكيفا مع الأشخاص والحيوانات كالخيول والجمال والأغنام. إن المسالك والطرقات غير متساوية من حيث النوعية وقدرة التنقل، فهي مكسوة بالحجارة أو الرمل أو التراب وتتوقف على المنعرجات كالمنحدرات والمهابط والوديان ماعدا حالات الطقس التي لم تشر إليها التغريبية. إن السير في الطرقات والمسالك أمر موكل إلى المرشد وهو أبو زيد الذي يمشي في الطليعة ويوقع أفراد القبيلة سيرهم على خطواته. وتكون بعض الطرقات والمسالك مفتوحة لحركة المرور كالقفار والبراري والأوعار بينما تكون البعض الأخرى تابعة للسلطات الحضرية.

الإنجازات الكبرى

استغرق الهلاليون عدة أيام في سيرهم وأشرفوا على بلاد حزوة والنيي،[1] فنزلوا ونصبوا الخيام. عزلوا الدبيسي بن مزيد عن منصبه وأجلسوا إبنه حسن بن مزيد على العرش لأنه يحب العدل والإنصاف ويمقت الجور،[2] واصل الهلاليون طريقهم ليلا ونهارا حتى بلغوا بلاد الأعجام التي يحكمها سبعة ملوك وهم خرمند وعلي شاه والصنصيل والقمقام والمغل وبندر والنعمان. نزل الهلاليون في مرج واسع كثير المياه وأطلقوا القطعان في المراعي فأكلت العشب والأشجار والبساتين والأثمار، وبعد أن أخذوا الراحة واطمأنوا على أمنهم رجع الأمير حسن والقاضي بدير إلى نجد مع بعض الفرسان لتحديد البلاد، [3] أقام الهلاليون الملك النعمان على الأعجام واعتبروه نائبا لهم يدفع الجزية في كل عام، [4] . وتوجه الهلاليون إلى بلاد التركمان وأقاموا فيها خمسة أيام بعد أن تولوا بالخلافة في الملك وذهبوا إلى بلاد العراق، [5] والجدير بالإشارة هنا أن الأمير حسن إستخدام في خطاب موجه إلى حاكمها الخفاجي

---

[1] - انظر تغريبة بني هلال ص 32
[2] - انظر م ، ن ص 45
[3] - انظر م، ن ص 46
[4] - انظر م، ن ص 57
[5] - انظر م، ن ص 66

عامر عبارة "أرض الجزاير" للدلالة على بلاد الغرب، [1] ولقد " سمى الجغرافيون العرب بلدان المغرب "جزيرة " هذا المربع الشاسع من الأراضي الإفريقية الشمالية الغربية والمحاط بالبحر من ثلاث جهات"[2] والتحق الملك الخفاجي عامر مع عائلته بالهلاليين وذهب معهم إلى الغرب، [3] فحطوا رحالهم في بلاد التمرلنك وهو لقب الحاكم عليها لان إسمها لم يرد في التغريبة وأجلسوا وزيره على العرش خلفا له. [4]

رحل الهلاليون إلى أرض حلب، [5] والملاحظ أنه كلما يخترق الهلاليون حدود بلد معين يلجا الملوك والتمرلنك إلى طريقتين للوقوف على أخبار هؤلاء الدخلاء كتحديد عدد الفرسان والتوغل في الأرض والاعتداء على إنتاجها كالمراعي وثمار البساتين، فإما أن يستخدموا وسيلة التجسس فيسندون المهمة في هذه الحالة لأشخاص تابعين لهم ومعروفين بأسمائهم، [6] وإما يضطرون إلى البحث عن هذه المعلومات والأخبار بالاعتماد على أشخاص

---

(1) - انظر تغريبة بني هلال ص 66

(2) انظر باتسييفا، البدو والحضر في مقدمة ابن خلدون، دراسات في تاريخ الثقافة العربية القرون5 15 ص341

(3) - انظر تغريبة بني هلال ص 69

(4) - انظر م، ن ص 79

(5) - انظر م، ن ص 79

(6) - انظر م، ن ص 79

مجهولين، خارجين عن الحكم أو مجرد عابرين مثل التجار، [1] أو يستمدونها من أشخاص ينتمون إليهم ولكنهم يحتلون مراتب متدنية في الهرم الاجتماعي وهم الرعاة والعبيد، [2]

تجهزت القبيلة ورحلت إلى مدينة حماة ونزل فرسانها على نهر العاصي ولم يعترضهم أحد لأن أهلها خافوا عواقب الأمور، [3] والملاحظ أن بعض الفرسان يرحلون إلى بعض المدن المجاورة للبلد الذي يقيم الهلاليون فيه بصفة مؤقتة، وقد ذهب أبو زيد مع عدد من الجنود إلى جزيرة قبرص لتحرير دياب المعتقل فيها. [4] قطع الهلاليون البراري والفلوات طالبين أرض عنتاب فوصلوا إليها بعد أيام فنصبوا الخيام ورفعوا الرايات، [5] وانتقلوا بعد ذلك إلى حمص وأقاموا فيها خمسة أيام وكانت تأتيهم الهدايا من الولاة.[6] ثم ساروا إلى بعلبك[7] ومنها إلى زحلة فطابت أيامهم لأنهم كانوا يصرفون الأوقات في السرور والطرب[8] وقصدوا مدينة الشام، ومدحوا بالأشعار الملك شبيب التبعي وولوا الأمير صقر مكان

---

(1) - انظر م، ن ص 70
(2) - انظر م، ن ص 135
(3) - انظر م، ن ص 94،95
(4) - انظر م، ن ص 98،99
(5) - انظر تغريبة بني هلال ص 104
(6) - انظر م، ن ص 118
(7) - انظر م، ن ص 118
(8) - انظر م، ن ص 118

والده بعد أن قتلوه بالحيلة.[1] واستأنف الهلاليون المسير إلى القدس الشريف ونزلوا بعد ستة أيام خارج المدينة وزاروا الأماكن المقدسة وتصدقوا على الأرامل واليتامى [2] ثم غادروها بعد عشرة أيام قاصدين غزة فنصبوا حولها الخيام وفرقوا مواشيهم في جوانب ربوعها وأكلوا من محصولها وأثمارها.[3] قد نتصور الرحلة غالبا على أنها تنقل في المكان والزمان إلا أنها في الحقيقة تندرج في وقت واحد في نظام المراتب.[4]

إن الرحلة بقدر ما تنقل الهلاليين إلى مناطق تبعدهم عن مسقط الرأس بالآلاف من الأمتار أو المئات من الأيام فإنها تساعد البعض منهم على التسلق و الارتقاء أو النزول في درجات السلم وذلك في السراء والضراء. وقد أحضر الهلاليون الفارس عقل وأكرموه على ما أبداه من القتال وقلده الأمير حسن مقام الأمراء العظام وألبسه سيفا مرصعا بالجواهر النفيسة ثم مدحوه بأبيات من الشعر.[5]

---

(1) - انظر م، ن ص 118

(2) - انظر م، ن ص 134

(3) - انظر م، ن ص 134

(4) - Claude Lévi- Strauss , tristes tropiques page 185

(5) - انظر تغريبة بني هلال ص 144

ومن الواجبات التي تأخذها القبيلة على عاتقها طيلة الرحلة بعد أن استغرقت زمنا طويلا قبل الوصول إلى الغرب هي أن تنظم العلاقات بين الذكور والإناث لأنها مصدر مستفيض للنزاعات والخلافات وحتى لانحلال النوع وفساد الأصل،[1] أن الرجل العازب لا يتمتع ضمن القبيلة بالاعتبار ولذلك قرر الأمر إقامة عرس ووليمة عظيمة لأولاد الإمارة الذين حان وقت زواجهم.[2]

تابع الهلاليون طريقهم وقصدوا بلاد العريش، رشح قوم العريش سعيد ابن أخت الملك البردويل المقتول للسلطة فأجلسه الأمير حسن على العرش وأهدى له خلعة سنية وحلة ملوكية وألبسه إياها وعين عليه الجزية وعقد زواجه مع زوجة الخال المرحوم.[3]

إن الأمراء الهلاليين يقومون بواجبات الاحترام للشعوب التي غزوا أرضها وانتصروا عليها، فهم يحطون من قدر الملوك المستبدين ويعلون من شان الملوك المتميزين بالعدل والفضيلة والتعقل، وتظهر هذه الواجبات في الرحلة من خلال تقسيم الملوك إلى كائنات قبيحة أوطيبة، ذات منزلة وضيعة أومنزلة رفيعة.

---

[1] - **Will durant, histoire de la civilisation payot, 1947 paris page 57**

[2] - **انظر تغريبة بني هلال ص 145.**

[3] - **انظر م، ن ص 162**

السليمة ويشير هذا التقسيم بدوره إلى نظام المراتب القائم على المبادئ والأصول والقواعد السليمة. [1]

ركب النساء على الهوادج والفرسان على ظهور الخيول وتوجهوا إلى بلاد مصر، وبعد أن أقاموا فيها زمنا قصيرا ابتعدوا عنها مسافة يومين لتجنب الأخطار. أمر الأمير حسن البنائين والمهندسين ببناء الجامع في ظرف ستة شهور ليكون ذكرا لهم على طول الزمان فزودوه بالفرش النفيس ونقشوا حيطانه وكتبوا على بابه بماء الذهب هذا جامع الأمير حسن الهلالي سيد العرب[2] وإذا كانت هذه المبادرة تدل على أن الهلاليين يتألفون من بعض الأفراد المتميزين استثنائيا بصفات الذكاء والذوق السليم والنبالة فإن الهلاليين منشغلون بالقوت ولذلك يتعذر عليهم أن يخصصوا جهودهم للتهذيب والإفراط في الدقة والنعومة والرقة والتلطيف وباختصار فهم غير قادرين أن يعيروا إهتماما بالفنون الصانعة للحضارة.[3]

ركب الفرسان على ظهور الخيول والجمال وجعلوا النساء أمامهم وساروا حتى وصلوا إلى مكان يقال له المخاضة، وكان

---

(1) - انظر م، ن ص 146، 147

(2) - انظر م، ن ص 175

(3) -Will durant, histoire de la civilisation page 14

الماء غزيرا في السهول والبساتين والمروج فتضعضعت الرجال والنساء وسقطت الأحمال وصاحوا خوفا من الغرق، [1] إن الرحلة تشتمل على إجراء مسار حافل بالحواجز المجهولة ويجب على الهلاليين التغلب عليها. وتتمثل هذه العقبات في الوديان غزيرة المياه وتساقط الحجر والغابات التي توحي الشك والقلق والهوة العميقة. والهلاليون مطالبون إذن بتوقع كل علامات الضعف التي يمكن أن تظهر على الحيوان أو الشخص، فهو نوع من البحث عن التوازن بين القبيلة والطبيعة.

عبر الهلاليون نهر النيل ولم تشر التغريبة إلى الوسيلة التي اعتمدوا عليها كالسفينة أو القارب أو الجسر ثم قطعوا البراري إلى أن بلغوا بلاد الصعيد. ويمثل الصعيد المحطة الأخيرة التي يتوقف فيها الهلاليون طيلة الرحلة والمنطقة التي ينطلقون منها إلى الغرب إلا أن التغريبة تجعل من الصعيد إقليما سياسيا مستقلا يحكمه رجل صاحب نسب وحسب وأصله من بلاد العرب، في حين أنه من المعروف أن الصعيد موقع جغرافي موجود في جنوب مصر ولا ينفصل عن سيادتها. ورغم أن في الفترة المعروفة بعصر الانحطاط شكل الحكام العرب لفترات زمنية طويلة ومتعاقبة طبقة منطوية

---

[1] - انظر تغريبة بني هلال ص 175

على ذاتها وغريبة عن الرعية سواء في انتمائها العرقي أو الثقافي، [1]فان الهلاليين تلقوا ترحيبا واحتراما من الملك الماضي بن مقرب وتحلل التغريبة هذا الموقف بانحدار أصله من العرب وإقامته في نجد في الزمن الماضي وتحصر أسباب هجرته إلى بلاد الصعيد بأهله وعائلته في ازدحام الرجال على المراعي. [2]

إنطلق الهلاليون سائرين إلى بلاد تونس الخضراء. إن قصة الريادة وقصة الرحلة الجماعية لا تذكران شيئا تقريبا عن الطريق الذي قطعه الهلاليون من صعيد مصر إلى تونس، ولعل سبب ذلك يعود إلى أن القصتين نشأتا في الشام ومصر، ومن هنا لم يهتم البلدان بالمنطقة الواصلة بين الصعيد وتونس وهو أمر ملحوظ في الشكلين اللذين يبينان الرحلتين. وقد أشار عدد من المؤخين والجغرافيين العرب أمثال الإدريسي وخصوصا البكري إلى طريق تجاري هام آخر هو "طريق الذهب" ويقصد الذهب القادم من السودان وعلى وجه أدق من وادي نهر النيجر. ولقد ظلت بلدان المغرب تراقب هذا الطريق وتسيطر عليه طوال ستة قرون، وكان هذا الطريق تمر من خلال الصحراء الشرقية حتى منتصف القرن

---

[1] - انظر حسين محمد فهيم، أدب الرحلات (دراسة تحليلية من منظور اثنوجرافي) عالم المعرفة العدد 138 ، 1989 الكويت ص 118، 119.

[2] - انظر تغريبة بني هلال ص 181

الحادي عشر أو الخامس عشر الهجري ثم صار مهملا كما يؤكد ذلك ابن حوقل بسبب عواصف الرمل والاعتداءات التي تتعرض لها القوافل باستمرار. ولقد منع السلطان احمد بن طولون استخدام الطريق المباشر بين مصر ومملكة غانا وفرض بهذا الموقف المسيرة عبر الصحراء الغربية المتميزة بالصعوبة القليلة بالنسبة للعبور والمرور غير إفريقيا الشمالية. إن النزاعات الغامضة التي كانت تنشب بين القاهرة ودول المغرب على غرار الحملة التي أرسلها الفاطميون ونفذتها قبائل بني هلال وسليم، تفسير ليس بالميل إلى احتلال الأراضي الشاسعة والخصبة فحسب بل برغبة مراقبة طريق الذهب في حدود الممكن. [1] دخل الهلاليون إلى تونس ونزلوا في وادي الرشاش الواقع بين جبلين ويقترن هذا النزول بجفول الحيوانات الوحشية وتفرقها من شدة الخوف والرهبة في أنحاء الطبيعة. كما يتطابق نزول الهلاليين مع نزهة صيد ينظمها الزناتة وتنفرد بعلامة الوفرة التي تتحدد بتعدد أجناس الطريدة ومثولها بين أرجل الصيادين وثقل حملها على الخيول، [2] وبقدر ما تدل وفرة الصيد ضمنيا على العيش الرغد فإنها تمثل الرمز الكبير

---

(1) - انظر إحسان سركيس، الثنائية في ألف ليلة وليلة، دار الطليعة الطبعة الأولى 1979 بيروت ص 33

(2) - انظر تغريبة بني هلال ص 190

يطلق عليه علماء البلاغة باسم التشبيه التمثيلي الذي يعبر عن الهلاليين إلى تونس بعدد وافر يقدر بالآلاف.

الشكل II : محطات الهجر ة الهلالية الكبر ة نحو بلاد

الصراع الخارجي قبل الاستقرار

الصراع الخارجي قبل الاستقرار

قبل الدخول في صلب الموضوع الذي ينحصر في الحروب التي جرت بين السلطة الزيرية والهلاليين بالمغرب في منتصف القرن الحادي عشر، يجدر بنا أن نذكر انه يوجد بين الدراسات التاريخية والأسطورية التي اقصد بها التغريبة، على الأقل في كثير من جوانبها، اختلاف في النظر إلى ظاهرة الحرب، يقدم التاريخ الحروب التي خاضها الهلاليون بالمغرب على أنها مصدر تدمير للإنسان وعمرانه، ويرى أن الطبيعة الجوهرية التي يتميزون بها تحمل بالضرورة طاقات كبيرة للقتال والتخريب، ويعملون على إنتاجها وتدعيمها باستمرار.

وقد وردت في الدراسات التاريخية مجموعة من الصفات التي أسندتها إلى العرب الذين شنوا الحملة على إفريقيا كالإعصار والحريق الهائل والجراد وان الهلاليين في حروبهم مع المعز بن باديس وغيره من أمراء المغرب كانوا كالوندال والمغول والتتار الذين الحقوا ضررا فادحا بالمشرق العربي. ويؤكد التاريخ أيضا أن الفساد الذي ساد بأقطار المغرب من جراء الهلاليين كان متفاوتا فيما بينها من حيث الدرجة، وقد كان في تونس أكثر خطورة ويسوق مجموعة من المدن التي شاع صيتها طيلة العصور

كالقيروان، ويخبرنا بان مجدها قد انزوى وبلغت من الانحلال حدا بعيدا بعد أن أغار العرب الهمج عليها وتعرض عمرانها للإتلاف، ويرى التاريخ كذلك أن الهلاليين قوم لا يتقيدون بالطاعة رغم الوسائل التي سخرها قادة المغرب لإغرائهم.

تقتضي دراسة ظاهرة الحرب التي جرت بين أمير إفريقيا المعز بن باديس والهلاليون الوقوف على بعض العوامل الموضوعية التي ساعدت على قيامها.

وقد تعرف السلطان المعز بن باديس على الهلاليين الأوائل الذين هاجروا إلى إفريقيا، من خلال بعض الشخصيات التي قادت جمعا غفيرا منهم إلى إفريقيا، حيث استقبلها الأمير بالترحيب وأظهر إحتراما ملحوظا لها وحظيت بنصيب كبير من الاهتمام بها سواء في الميدان السياسي أو العسكري، واستطاع بذلك بعض منها أن يكونوا مستشارين يتمتعون بنفوذ قوي في بلاط السلطان الزيري ولا سيما انه زوج أمراء منهم ببناته، وهذا يدل على حرص صاحب إفريقيا على توطيد أواصر العلاقات مع القبيلة العربية وتامين أفرادها على دمائهم، وانه لم يتوقع منهم الخطر.

وكان أول من وصل إلى إفريقيا الأمير مؤنس بن يحي وهو من بني صنبر بطن من بطون مرداس رياح، وحرص المعز بن

باديس على علاقته الخاصة بهذا الزعيم العربي وعمل على تعزيزها دوما.

وقد كان المعز بن باديس يضمر الحقد لإخوانه من صنهاجة ويتربص بهم وينتهز كل فرصة لإدراك تأثره منهم. وسعى المعز أن يضم مؤنس إلى صفه وان يزداد به على صنهاجة قوة. وكان من عادته أن يستشير في الأمور قبل الإقدام عليها، ولذلك التمس المعز من مؤنس النصيحة ومفادها أن يدعو قومه رياح ليجعل منهم جنودا له ويكون قويا بهم على بني عمه الحماديين، ولكن المعز لم يجد الموافقة على طلبه منه، وعلل مؤنس هذا الرفض بعدم اتفاق قومه على الكلمة وعدم انقيادهم إلى الطاعة، وحاول أن يصرف اهتمام السلطان عن هذه الفكرة بإصرار شديد ويعرفه عواقب دخول الأعراب المملكة الزيرية. ولكن أمير إفريقيا اتهمه بحب الذات والاستئثار بالسلطنة ومزاياها بالقصر دون قبيلته، ومن ثم وجد مؤنس نفسه مجبرا على الاستجابة، واتصل بقومه وانحاز إليهم وحرضهم على العدوان.[1]

وما أن وصل مؤنس إلى منازل بني رياح حتى عقد جمعية كما جرت العادة وأبلغ شيوخ قبيلته وأعيانها بالحياة في إفريقيا التي

---

[1] - انظر ابن عذاري البيان المغرب ص 417، 418

تنتظرهم لتدر عليهم أخلاف الرزق وتفتح أمامهم أبواب اليسار وهم الذين طالما لم يحتاجوا من الدنيا إلى أكثر مما يقيم صلبهم، وحدثهم "عن الأراضي الخصبة ورونق القيروان وروعة الساحة الصنهاجية ومروءة الأمير والصداقة التي يكنها للعرب عموما وبني رياح خاصة " [1]

سار مؤنس بقومه إلى إفريقيا وعندما وصلوا إلى قرية ظنوا أنها القيروان وحرصوا على هدمها ووقعت عيونهم على خيراتها فنهبوها من حينها، ولما ورد الخبر على السلطان المعز بن باديس ساءت نيته واتهم مؤنس بإغراء العرب على الفساد والعبث، وقبض على أخيه وأولاده وأهله الذين كانوا يقيمون بالقيروان. [2]

والجدير بالذكر أن قبيلة رياح ليست وحدها التي جاءت من أجل الهجوم على إفريقيا بل رافقتها قبائل أخرى مثل بني زغبة وبني عدي، واستمرت حركة الهجرة العربية لتدعيم مؤخرة جيوشهم. [3]

وقد أرسل المعز بن باديس بعض الفقهاء ومعهم مكاتبات وشروط ووصايا للتفاوض مع مؤنس ومن كان معه، وأخبروهم أن

---

[1] Georges marcais, les arabes en berberie page 94

[2] - انظر ابن عذاري البيان المغرب ص 418

[3] Georges marcais, les arabes en berberie page 98

السلطان قد أطلق سراح عيالاتهم. وقبل العرب عروض الصلح بالرضا والتأييد، واخذوا عليهم العهود والمواثيق على التقيد بالصواب والرجوع إلى الطاعة في سبيل أن يجعلوا حدا للحرب الدموية التي نشبت بين الفريقين، وأرسل العرب بدورهم شيوخا منهم، ولكن انقلبوا على المعز وشرعوا في العبث بأقاليم القيروان.[1]

إن ردود الفعل السلبية التي ظلت تسيطر على موقف مؤنس من دعوة المعز بن باديس إلى السلم كانت لا بد أن تتخذ اتجاها خطيرا بعد أن إستنفذت السياسة الإمكانية لحسم الخلاف.

وهكذا كان الانقسام بين مؤنس والمعز سببا موضوعيا لنشوء حروب متتابعة في إفريقيا، وكان كل من بني عبيد وصنهاجة يجهلون نتيجة هذه الحملة العربية.

حدثت الحرب رغم أن مؤنس لم يخدع السلطان عن حقيقة الأعراب، فقد طالما كان يؤكد له بحديثه المباشر أنهم بشر غلاظ، ولكن الصورة التي إنطبعت في نفس المعز بن باديس وذهنه عن علاقته بالعرب وعن صفتهم البدوية التي يتميزون بها اقترنت بالفائدة التي يمكن أن يجنيها منهم. وقد كان السلطان الزيري يعتبر

---

[1] - انظر ابن عذاري البيان المغرب ص 418

قبل كل شيء وصول هؤلاء البدو إلى إفريقيا بمثابة الحدث الذي يمكن أن يستغله لصالحه، كأن يستخدمهم على سبيل النفع، وكان يتصور أنه في وسع الغزاة أن يساعدوه على ضمان السلامة في مملكته بطريقة فعالة، ويتعاونون معه في مقاومة أعدائه التقليديين الذين يتمثلون في الزناتة. وبذلك يمثل العرب في نظره قوة عسكرية صالحة للاستعمال، وكان الأمر في رأيه يقتصر على كسب مودة قادتهم. غير أن المعز لم يتريث كثيرا حتى أدرك الخطأ الجسيم الذي إرتكبه المتمثل في أن القبائل العربية تتجاوب كثيرا مع الحياة التي تحيط بها المخاطر وألوان شتى من الإغارة، وأن الجهود التي سيبذلها زعماؤها في سبيل ترويض الأعراب وتعبئة عائلاتهم، مهما بلغت درجة عالية من الصدق والمثابرة فإنها تقضي حتما إلى الفشل. [1]

إن كل قبيلة بدوية تستأثر بطبيعة خاصة بها، ولكن هذه الطبيعة لا تشكل من تلقاء نفسها موضوعا للتوطين أو التانيس، إذ أن السلطة الحضرية هي التي تتدخل لتطوعها وتخضعها للقواعد بالتدريج.

---

[1] **Georges marcais, les arabes en berberie page 166**

خاضت السلطة الزيرية والهلاليون معارك كثيرة حملت أسماء مشهورة، وليس من الميسور دائما أن نقف على جميع أحداثها عندما تكون قد التهب سعيرها واختلف بشأنها بعض المؤرخين.

ولم يمض إلا زمن ضئيل على نقض المعاهدة حتى قرر المعز بن باديس خوض معركة مع العرب في جبل حيدران، وقد كان العرب أصحاب الغلبة واستولوا على القيروان وضايقوا أهلها وحاصروا أطرافها وانقطعت حركة المسافرين خوفا من غاراتهم واضطرب العمران لفرط ما ناله من شغب. ولم يذعن المعز لما حل بوطنه بل أمر بتجهيز جيش يتألف من ثمانين ألف وسار بهم حتى وصل إلى حيدران وهو جبل غير بعيد من القيروان، وقد يكون في العدد مبالغة وانحصر عدد الجنود عند العرب في ثلاثة آلاف فارس.(1)

بلغت الحرب أشدها بين المعز والهلاليين، وانهزم فيها السلطان، وقد رأت العرب جيوش صنهاجة والعبيد تمثلوا أمامهم مع المعز في جبل حيدران وهم يرتدون الملابس الواقية ففزعوا وهالهم ذلك وطلبوا من قائدهم أن يدلهم على الموضع الذي

(1) - انظر ابن الأثير الكامل في التاريخ ص 56

يطعنونهم فيه فدعاهم إلى توجيه سلاحهم نحو أعينهم وأطلق على هذه المعركة (يوم العين). وقد اتفقت صنهاجة على الهزيمة وكتمت أمرها، وأرادت بذلك أن تنتقم لنفسها من المعز والعبيد. وكانت تتوقع أن يصيب الأذى عددا كبيرا منهم ثم ترجع على العرب، انهزمت صنهاجة فعلا وقتل من العبيد خلق كثير وعزمت صنهاجة على الرجوع على العرب كما تصورت ولكنهم لم يمكنوها من ذلك والحقوا بفرسانها ضررا فادحا. [1]

ولما كان يوم النحر سار المعز بجيوشه إلى العرب وهجم عليهم وهم يؤدون صلاة العيد ولكنهم هزموه، حشد المعز جمعا غفيرا من زناتة وخرج إليهم فرجع خائبا كذلك وقتل من جنوده نحو ثلاثة آلاف، وجرا العرب بعد ذلك على الزحف إلى القيروان ونزلوا مصلاها وانتصر العرب. ولما رأى السلطان ذلك أباح للعرب أن يدخلوا القيروان للبيع والشراء ولكن العامة استطالت عليهم ووقعت الحرب بينهم. [2]

كانت الحرب بين المعز بن باديس والهلاليين ضروسة في هذه المعركة الثانية التي وقعت في جبل حيدران، وقد تخلى السلطان فيها عن ميدان الوغى بعد أن اجتاحه الهلاليون بجموعهم

---

[1] - انظر م، ن ص 56

[2] - انظر ابن خلدون، ديوان المبتدا و الخبر ص 132

الغفيرة وصارت عشرة ألف من الخيم فريسة سهلة لهم وكذلك الأمتعة والعدة والكنز الذي كان في حوزة السلطان فضلا عن خمسة عشر ألف من الجمال والبغال الذين كان عددهم من غير حساب. [1]

وتعد معركة باب تونس من أشهر المعارك بسبب آثارها الخطيرة التي نجمت عنها حيث زحف العرب إلى باب تونس فخرج إليهم السكان واستخدموا في سبيل الدفاع عن أنفسهم وسائل ضعيفة المفعول كالعصا فحملت عليهم فرسان العرب بسيوفهم ورماحهم التي اتاحت لهم أن تكلل ضرباتهم بالنجاح. وقد أعطى العدد الوافر من الأرواح التي سقطت في هذا اليوم صورة عن فضاعة هذه المعركة التي دارت رحاها في باب تونس حيث خرج أهل البلد عندما انصرف العرب ورفعوا قتلاهم وانطلقت النوائح والنوادب بكل جهة من القيروان تقشعر لها الأبدان. [2]

ضاق المعز بن باديس بالهلاليين وأحلافهم من العرب الذين انضموا إليهم ذرعا إذ رآهم يزدادون كل سنوات قوة وانتصارا في الحروب لا يثنيهم التعب ولا يصرفهم الموت عن القتال. قرر السلطان في سنة 46 هـ أن يشيد سورا ويديره على القيروان ليسد

---

[1] - انظر ابن عذاري البيان المغرب ص 419

[2] - انظر م، ن ص 423

الدروب عليهم، وقد اكتسى هذا الجدار أهمية بالغة إذ بلغ طوله بالجملة اثنين وعشرون ألف ذراعا، وإذا لم تثر هذه الحماية الجديدة القنوط في نفوس الهلاليين فإنها أخرت سقوط عاصمة إفريقيا ببضعة سنوات. (1)

تركت غارات العرب على القيروان في نفوس الناس الرعب. وطاف السلطان في شوارع المدينة ودعا رعيته إلى حراستها وتدعيم الحصون المؤقتة أو المرتجلة التي تتوفر فيها وأوصاهم ألا يسلموا في شبر أرضها إلا بعد أن يدافعوا عنها ولا تبقى لهم على صد هجوم العرب قوة. وازداد السلطان اقتناعا بان القيروان مدينة مفتوحة ضعيفة القوى ضد العدوان واحتفظ بقواته العسكرية للمنصورية لأنها تمثل موقفها محصنا، وأمر التجار والعمال الذين يقيمون فيها بالانتقال إلى القيروان، وبذلك فقدت المنصورية وظيفتها الاقتصادية. (2)

ولعل أهم نتيجة اجتماعية ترتبت عن نكبة القيروان هي التي تمثلت أساسا في جلاء السكان، ونقصد سكان القيروان وغيرها إلى مدن أخرى ومناطق نائية ووعرة من المغرب طلبا للأمن، وكان

---

(1) **Georges marcais, les arabes en berberie page 111**
(2) **Georges marcais, les arabes en berberie page 107**

بعض ذلك النزوح من تلقاء نفوس الناس،[1] وبعضه الآخر بإرادة من السلطان المعز بن باديس.[2]

إن الحرب المدمرة التي شهدتها القيروان سرعان ما أعقبها رد فعل المعز بن باديس الذي انتقل إلى المهدية وأراد أن تكون مركز المقاومة الجديدة واخذ السلطان مقدارا وافرا من الوقت للإعداد للحرب وتنظيم صفوفه، ووقعت بين القبائل البربرية وبين الهلاليين حروب كثيرة شاركت فيها زناتة وهوارة وكان النصر حليف العرب وكلفهم ذلك كثيرا من الأرواح. وبعد أن انتقل المعز بن باديس إلى المهدية أصيبت الدولة الزيرية بالانهيار وزاحمها الأعراب في كل مكان وأخذت كل قبيلة تؤسس إمارة صغيرة لها في جهة من جهات إفريقيا.[3]

ويعتبر عدد الجنود الذين شاركوا في الحروب التي جرت بين السلطة الزيرية والهلاليين النقطة التي ما زال الخلاف حولها مستعرا بين المؤرخين. ويعد العلامة ابن الرقيق الوحيد الذي قدر المقاتلين بخمسين ألف، وهو يعطي رقما إجماليا يفوق المليون

---

[1] - انظر ابن الأثير الكالمل في التاريخ الجزء الثامن الطبعة الثالثة دار الكتاب العربي بيروت ص 101

[2] - انظر م، ن ص 56

[3] - انظر رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981، الجزائر ص 198

الواحد الذي مثله الأفراد من الرجال والنساء. وقد كان ابن الرقيق مقيما في القيروان ومزودا بالأخبار والمعلومات الضرورية التي تتعلق بالحروب التي نشبت بين الطرفين السابقين. وكان اسمه مذكورا ضمن الموظفين الساميين في الدولة الزيرية، ومن هذه الزاوية يمكن أن يكون ابن الرقيق قد بالغ في تقديم عدد الأعداء وحاد عن الموضوعية التي تقوم عليها الحقيقة العلمية. بينما تميل أغلب الوثائق التي جاءت لا حقا وتناولت هذا الموضوع إلى تقليص هذا العدد الضخم حيث تشير إلى أن العرب الذين خاضوا معركة حيدران يمتلكون ثلاثة آلاف فارس. إن هذا القول الذي صدر عن العرب يزيد بلا ريب من انتصارهم جدارة ولا يوجد ما يؤكد لنا فضلا عن ذلك أن كل القبائل كانت ممثلة في هذا اللقاء الحاسم. [1]

وقد اضطرت المدن الكبيرة والصغيرة على السواء أن تدفع الضرائب أو الإتاوات للقادة الهلاليين الذين انتصروا على المعز بن باديس في الحروب مقابل الحماية تعهدوا بتوفيرها ولكن لم تكن أبدا حقيقية. [2]

---

[1] Georges marcais, les arabes en Berberie page 112

[2] Abelellah laroui, l'histoire du Maghreb page 137

وبعد كل ما تقدم يمكن القول أن الأسباب التي جعلت المعز بن باديس يفشل في مقاومة الهلاليين تتمثل في المهارة في إدارة الحرب وممارستها، والتي تميز بها هؤلاء الأعراب منذ العهد القديم والشجاعة الفائقة التي تستمد وجودها من تقاليد البيئة القبلية. وقد ظلوا ينتجعون في ظلال البداوة المرعى ويعيشون في كنفها عيشا خشنا تثير فيهم الرغبة في الحرية والأنفة والفروسية. وتتمثل أيضا في تخاذل القبائل البربرية من صنهاجة وزناتة وخيانتهم للسلطان في كل معاركه، إلى جانب الحس الحضاري الذي أدى بهم إلى التقاعس، ثم الخطأ الذي ارتكبه المعز حين كان ينفر من جنوده الصنهاجيين، وإيثاره العبيد عليهم. إن كل هذه العوامل مارست دورا بالغا في تعجيل هزائمه أمام غارات العرب.[1]

وعلينا الآن أن نعقد نوعا من المقارنة نتعرف به على نقاط التوافق والتخالف بين التاريخ والتغريبة، فيما يتعلق بموضوع الحرب.

وقد ارتبطت نشأة الحرب بين الزيريين والهلاليين بمسالة الخلاف الذي نشب بين السلطان المعز بن باديس ومؤنس الرياحي،

[1] - انظر رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته ص 198

بينما حصرتها التغريبية في رفض السلطة الحضرية في تونس إطلاق سراح الأمراء الثلاثة.

لم تذكر التغريبة أمير إفريقيا باسم المعز بم باديس بقدر ما جعلته خليفة الزياني الذي كان يخشى قدومهم كثيرا إلى بلاده.

وذكر المؤرخون معركة حيدران الفاصلة بين أمير إفريقيا المعز بن باديس وبين الهلاليين والصلح الذي وقع بينه وبينهم بعد المعركة بينما لا نجد أثرا لهذا المكان في التغريبة.

ويلفت النظر بصورة مثيرة أن يفوز الهلاليون بذلك الانتصار الباهر في حروبهم مع المعز بن باديس، لولا الانقسامات التي برزت منذ فترة بعيدة بين القبائل البربرية مثل صنهاجة وزناتة وكتامة. وما لجا إليه رؤساؤها من استخدام أساليب الخداع والمكر التي كشف التاريخ أنها ألحقت ضررا حاسما في المصلحة القومية. وهو الأمر الذي أشارت إليه التغريبية عندما جعلت سعدة صاحبة الخطة التي أدت إلى مصرع خليفة الزناتي نفسه، لما أشارت على الهلاليين بإرسال دياب بن غانم إلى أبيها لأنه اقدر الفرسان لمنازلته، وذلك بسبب شغفها بمرعي الذي كان مسجونا بالقصر الملكي.

ويصف التاريخ الهلاليين بأنهم قوم ينكثون بعهودهم وينقضون مواثيقهم إذا ابرموا الصلح، غير أن التغريبة تخالف هذه النظرة إلى الهلاليين الذين كانوا يتطلعون بالعكس إلى السلم الذي يرفع عنهم كوابيس الحرب التي يعانون منها كلما مروا على بلد معين. وقد ظهر ذلك بالفعل عندما منحتهم السلطة الحضرية حق المرور.

وتتحدث التغريبة عن السبب المباشر الذي منع الهلاليين من الاستجابة إلى الصلح الذي عرضه خليفة الزناتي عليهم، وترى أنه يتمثل في العدد الغفير المحصور في تسعين من الفرسان الذين قتلوا في الميدان وهم جلهم يحتلون منزلة عالية.

والجدير بالذكر أن التغريبة احتفظت بخبر دبيس بن مزيد أمير الحلة المزيدية الذي يحمل لقب ملك العرب المذكور في إحدى مقامات الحريري وقد توفي أوائل القرن السادس الهجري علم 529 هـ بعد أن استحوذ على كثير من مدن العراق في عهد الخليفة المسترشد العباسي، بينما أهملت التغريبة التعرض إلى الخلافة الفاطمية التي امتدت سيادتها من المحيط الأطلسي إلى الحجاز

والشام، وقد كانت بين الهلاليين وبينها حروب كثيرة تركت آثارا بالغة في مصير الفريقين. [1]

الدخول العابر

لم تتغير تخطيطات الهلاليين في الدخول إلى البلدان والانتصار على خصومهم، وقد كانوا ينزلون بظاهر المدينة أو الإمارة و يقتحمون البساتين بحيواناتهم ويستهلكون الإنتاج الزراعي، وفي هذه الفترة التي يقيمون فيها تكون الأخبار قد ترامت إلى صاحب هذه المدينة بواسطة الرعاة. ويطلب الحاكم منهم العشور التي تشمل في الغالب على المال والعتاد والحيوانات والحريم ولا سيما النساء اللواتي يتوافر فيهن الجمال. ويعتبر الملك العشور بمثابة الضريبة التي تساعد على الحصول على حق العبور، بينما يعد هذا التصرف في نظر الهلاليين إهمال واجب إنساني. إن أول دور يتطلب على الهلاليين القيام به هو أن يتفاوضوا مع صاحب البلد، ويكون هذا الدور أساسيا لأنه يجعلنا ندرك أن هؤلاء الأعراب يدخلون الحرب بدون إرادتهم.

ويقترح الهلاليون على الملك مهلة من الزمن لا تتجاوز عادة عشرة أيام أو يصانعوه وبعد ذلك يأخذون في التغلب عليه

---

[1] - انظر عبد الحميد يونس، الهلالية في التاريخ والادب الشعبي ص 163

بالقتال في الميدان أو بالحيلة التي تعددت أشكالها أو أساليبها. وقد تفضل بعض الإمارات أن تمنح حق العبور للهلاليين دون مقابل بدلا من أن تواجه خطر الحرب من جانبهم وتميل بذلك إلى سياسة المحافظة على البقاء.

خاصيات البطولة الجماعية

تعرض التغريبة الحروب التي خاضها الهلاليون من وجهة نظر خاصة بها، وهي لم تكتف بالحديث عن مشاهدها أو أسبابها بقدر ما تناولت الطريقة التي جرت بها، ولذلك تبدوا الحرب في التغريبة واضحة المعالم وتخضع لضوابط محددة، وإذا كانت التغريبة تلح على النظام في الحرب فان هذا البعد لم يأخذه المؤرخ بالحسبان عندما عكف على دراسة الغزوة التي قام بها الهلاليون على الغرب ولم ير فيها سوى عمل مخرب ومدمر يقوض عناصر العمران ويقضي على مقومات المدن. بينما نجد التغريبة تتناول الحرب بوصفها خاضعة لنظام صارم وإن اشترك فيها أفراد القبيلة جميعا. وإذا كانت الحرب أهم سمات الهلاليين في التغريبة فإنها ليست مجرد تعبير عن نزعة تأصلت في نفوس هذه الجماعة العربية بوصفها بدوية تخوض القتال بدون انقطاع في سبيل الوجود، بل إن الحرب في منظورها حق مشروع لاستعمال القوة

كلما دعت الضرورة لذلك تحافظ به على ذاتها من الانقراض وتضمن من خلاله وحدتها العضوية، ولكن هذا الحق ليس في متناول كل فرد لانه توجد سلطة القبيلة التي تتعهد بتنفيذ العرف وتبرم الصلح مع كل من ترتبط مصلحتهم العاجلة به وتحافظ على الأمن بين صفوفها.

إن الهلاليين يخوضون الحرب وفق قواعد خاصة بهم تتمثل في المفاوضات التي يجرونها مع أهل البلدان التي يمرون عليها وفي الروابط المتينة التي يعقدونها مع بعض السلطات الحضرية التي تمنحهم حق العبور. إن الهلاليين في التغريبة يقاتلون في سبيل هدف معين، إنهم يرفضون منطق السلطة التي يفرضها أصحابها عليهم من الخارج و لكن يستغلون كل فرصة تسنح لهم في سبيل الحصول على السلم.

ولسنا نتصور الحرب النظامية خالية من الظلم والمكر والخديعة والعدوان، وإنما المقصود منها يتمثل في الأسلوب الذي يكون الجنود الذين يؤلفون الجيش مرتبين وفقا له أو هي مجموعة من العمليات التي تنطوي على تنسيق والغرض منها هو توفير الشروط الضرورية والملائمة للحرب والحفاظ عليها، وتقوم كذلك على أصول ومناهج مستمدة من قيادتها.

وهذا لا يعني أن الهلاليين لم يعودوا يعتبرون أن الحرب القبلية ذات أهمية بالغة أو فقدوا اهتمامهم بها.

ومن المعروف قديما عند العرب إن العنف وحده لا يمكنه أن يجعل من الشخص شريفا أو نبيلا أو سيدا أو زعيما، وإذا حدث أن فردا من قبيلة معينة اغتال قريبا فان أعضاء العائلة لن يعتبرون سوى مجرما.

وتعبر التغريبة عن القيمة العددية للحرب الجماعية وتتجاوز في الغالب حدها المعقول سواء في عدد الجنود أو الفرسان أو القتلى أو المساجين أو المدة التي استغرقها القتال بالأيام، والاحتفالات التي تدوم أربعين يوما.

واستخدمت في الحرب حسب التغريبة، أدوات تقليدية ومتعددة منها السيف والدرع المصفح وطاقية الإخفاء والدبوس والرمح والحربة والخودة والمدفع ودرقة البولاد.

و من الواضح أن الحرب لا يمارسها الهلاليون في التغريبة اعتباطا وإنما تتوقف على تخطيطات مستمدة من فن خاص بها كانوا على علم به في أيامهم وقد كانوا ينزلون بالمضارب التي يتوفر فيها المياه ليمنعوا عدوهم منها ويقطعون بعض الطرق عليه ويحرمونه من استغلال موارد العيش في مدنه وإماراته.

تتوقف الحرب بهدنة محدودة وتتجدد كلما دعت الحاجة إلى ذلك، ويدخل الهلاليون المنتصرون مع أعدائهم المنهزمين في علاقة تعاقدية يتعهدون بموجبها أن يعترفوا بالسيادة الهلالية ويدفعون الجزية ولكنهم يحتفظون باستقلالهم ونمط حكمهم الخاص.

إن الهلاليين الذين يحركهم الوعي القبلي لا يقبلون بالمساومات وأنصاف الحلول، فالأمر بالنسبة إليهم يتعلق برفض المملكة الجائرة ومجموع القيم التي تدافع عنها وخلق مملكة عادلة قائمة على قيم تمجد الأصالة العربية.

المظهر الديموغرافي للحرب

إن المنظور الديموغرافي في التغريبة وسيلة تقدم معلومات دقيقة عن آثار الحرب، وإذا كانت الحرب بصفة عامة تنطوي على مظاهر متعددة فان القتل الجماعي حالة لا تقبل التبسيط أو الاختزال لأنها ظاهرة تفرض نفسها في كل حرب يمارسها الإنسان على سطح الأرض.

وإذا درسنا النتائج البشرية التي ترتبت عن الحرب التي خاضها الهلاليون مع الشعوب الأخرى في التغريبة فانه يمكن أن نحصرها في العوامل التالية:

1- إن العدد الوافر من الوفيات خاصية جوهرية للحرب غير أن هذا المعدل الكبير يخضع بدوره إلى التغير حسب الحالات والمراحل التي يقطعها الفرسان في المعركة. إن نسبة الخسارات ليست متساوية بين الهلاليين والأعداء الذين يواجهونهم في الحرب، وقد فقد الهلاليون غالبا الجنود فقط بينما تعرض أعداؤهم الذين انهزموا إلى احتلال البلد الذي يقيمون فيه والاستيلاء على ممتلكاتهم، كما أن الضحايا التي سقطت أكثر عددا، إذ قتل الهلاليون في المعارك التي خاضوها مع الملك الغضبان عددا ضخما من الجنود وكسبوا غنائم ذات قيمة ونهبوا الأموال وسبوا الحريم والعيال ورجعوا إلى الخيام. [1]

وقد ارتفع عدد القتلى عند معسكر الملك الغضبان في المرحلة الثانية من القتال في الميدان حيث " رجعت بنو هلال في السرور والأفراح وعساكر الغضبان بالهم والأتراح"[2].

وفقد الملك الغضبان بعد قتال استمر ستة عشر يوما مع الهلاليين عشرون ألف فارسا بينما خسر الهلاليون خمسة آلاف. [3]

---

[1] - انظر تغريبة بني هلال ص 64

[2] - انظر م، ن ص 62

[3] - انظر تغريبة بني هلال ص 63

لم يسلم العجم من الهلاليين إذ نالوا الأموال الكثيرة من خزائن الملك التمرلنك ووزعها الأمير حسن بن سرحان عليهم، [1] وإذا كانت مدينة مصر وأهلها اقل تعرضا إلى غزو الهلاليين فان ذلك يعود للشخصيات الصالحة التي تتواجد بها. [2]
وقد شمل هذا الاختلاف في عدد الوفيات الهلاليين أنفسهم وبلغ أشده حين تأخروا إلى الوراء في القتال وعساكر الغضبان تتبعهم في الصحراء. [3]

وإذا كان الهلاليون منذ البداية من رحيلهم إلى الغرب قد تغلبوا على أهل المدن فان الحرب في تونس أخذت توجها جديدا في مسارها وإذا لم يؤثر هذا الطور تأثيرا حاسما على الهلاليين برمتهم فان المجازر التي تعرض لها فرسانهم تحت وطأة الملك الزناتي قد أرهق كاهلهم.

كما يطرأ على هذا المعدل من الوفايات تغير حسب المخرج الذي تؤول إليه الحرب، ويواجه الأعداء في التغريبة دائما نسبة عالية من الخسارة المادية والبشرية وتكاد تختص بهم بدون سواهم من الهلاليين.

---

[1] - انظر م، ن ص 79
[2] - انظر م، ن ص 174
[3] - انظر م، ن ص 63

المظهر الانتولوجي للحرب:

حين كان إنتصار الفرسان الهلاليين في الحرب محورا رئيسيا في التغريبة فإن حاجتهم إلى الحفل صارت ماسة.

المشهد الاحتفالي للحرب:

إقتصر مدلول الحفل في التغريبة على الابتهاج بطابع عسكري تنظمه القبيلة الهلالية في سبيل الاحتفاء بحادث مهم يتمثل في الانتصار على العدو.

تعبر الوليمة الجماعية في التغريبة على حضور الهلاليين بوصفهم أعضاء ينتسبون إلى قبيلة واحدة، وتدل على طقس أو عادة ينفقون فيها عددا كبيرا من الحيوانات. وتبلغ هذه الوليمة حد التبذير في كثير من الأحيان وذلك في جو من الابتهاج والتمجيد للأبطال. وتعد هذه الوليمة مناسبة لتوزيع هبات القبيلة السخية وقد يتبادل الهلاليون الهدايا بينهم وبين الضيف. ويرافق هذا الحفل خرق لبعض القواعد التي يتقيد بها السلوك الجماعي، إذ يثير الرقص والطرب والشرب في هذه الوليمة في نفوس الهلاليين الحماسة والحمية الشديدتين والبهجة. ويقومون بأفعال غير عادية ويرتكبون العنف والاندفاع والهيجان. وتمتد هذه الوليمة أياما، وهي مدة زمنية ضرورية تتيح لهذا الجمع الغفير من الفرسان والرجال

والنساء والأطفال تناول الطعام والشراب. ولا تهمل القبيلة الجانب الدعائي للحرب، إن انتصار الفرسان الهلاليين وموت بعضهم حدث يجب أن يطرق مسامع كل فرد منهم. و الإحتفال بالانتصار عند الهلاليين يتجاوز حد المعقول، إذ تذبح القبيلة بهذه المناسبة الآلاف من الجمال، ولا تتوقف المظاهر الخارجية للحفل التي تدل على الإنتصار على العدو عند هذا الحد بل تأخذ الوليمة دائما قيمة حربية لان القبيلة تتصورها على أنها إكراما للفرسان الذين أحرزوا النصر على العدو وللأموات الذين سقطوا في الميدان في سبيلها.

وظائف الوليمة في الحرب:

الوليمة نوع من الأفراح والابتهاجات التي ينظمها الفرد أو الجماعة، وقد أدت الوليمة دورا بالغ الأهمية أثناء الصراع الخارجي قبل إستقرار الهلاليين في الغرب، إن للوليمة أغراضا محددة كتقوية أواصر العلاقات بين الأبطال وتجديد إتصالاتهم دوريا، والحفاظ على تماسك القبيلة وتضامن أعضائها.

وتكشف الوليمة في التغريبة عن مجموعة من الوظائف. تستوجب الوليمة في الحرب "التجمع المادي"(1) للأبطال ويتيح هذا

(1) **Gaston Bouthoul la guerre presses universitaires de France 1953 page 61**

التجمع بدوره تجاوز الصراع الدموي باستمرار بالطعام والشرب والطرب.

وتندرج الوليمة في نطاق الطقوس التي تؤديها القبيلة، وتعاش الوليمة بصفتها هبة مجانية لكل فرد من القبيلة مهما كان نسبه ومقامه، إن كل المراتب الهرمية تمارس دورها في الوليمة الزعيم والرجل والمرأة والطفل و البالغ والعبد والراعي والفارس المحارب. وتتجدد الوليمة في التغريبة على فترات منتظمة وتتخذ مظهر العادة قوامها الإنفاق أو التبذير. يذبح الهلاليون عددا وافرا من قطعان الماشية كالأغنام والطيور في جو مفعم من الابتهاج والهيجان وإثارة النفوس والشراهة في الأكل والشرب.

إن الشواهد التي تحتويها التغريبة عن الوليمة تؤكد لنا على وجود كل الخصائص المميزة للوليمة البدوية، فالتضحية بالحيوان يشترك كل الفروع القبلية في التبرع به، وهي الماشية التي تعد جزءا من الموارد أو الممتلكات التي كانت في السابق مجمعة أو متراكمة، وتمثل الوليمة كذلك فرصة للكرم والجود والسخاء من غير حساب.

وتتعدد المناسبات التي ينظم الهلاليون الوليمة فيها، و تقام في الغالب بعد الانتصار العسكري الذي يخول لأحد الأعاجم

المنهزم الجلوس على العرش لينوب عن الهلاليين، [1] وفي هذه الحالة يكون الحضور في الوليمة قاصرا على أفراد القبيلة وحدهم، ويدعو الهلاليون أحيانا إلى الوليمة بعضا من الملوك الذين يبرمون التحالف معهم مثل ما كان مع الماضي بن مقرب ملك بلاد الصعيد، [2] وتستغرق هذه الوليمة أياما أو شهورا في الغالب.

إن الوليمة في التغريبة تعبير عن التحميس الجماعي فالرقص والشرب والطرب يثيرون الحماسة والحمية، ولا نجد أثرا في التغريبة لبعض التقاليد الشائعة في ولائم الحرب، مثل هدم بعض قواعد الآداب العامة والمحرمات مثل إباحة بعض الأفعال المحظورة في الغالب كاختلاط الجنسين، كما يغيب صنف من التخذير الجسدي وإزالة الإحساس وفقدان الشعور أو جمود العاطفة أو البرودة. فالتغريبة لا تتحدث عن تحمل الهلاليين للتعب المفرط والاستسلام للإسراف والابتهاجات الفوضوية أو المرح المضطرب، والبشاشة المختلة والمشوشة والقيام ببعض الأعمال غير المألوفة واستخدام العنف.

كما لا نجد عند الهلاليين ذلك التدمير التفاخري المرتبط من جانب معين بالحرب كأن يكون أفراد القبيلة برمتهم مسرورين

---

(1) - انظر تغريبة بني هلال ص 56

(2) - انظر م، ن ص 181

وفخورين بالخسارة التي تكبدوها، إن طقوس الانتصار عند الهلاليين لا تتضمن عندهم الإبادة الرمزية. [1]

وإذا كان الهلاليون يعيرون اهتماما خاصا بالوليمة الدنيوية فإنهم يقيمون كذلك الوليمة الجنائزية، وقد ساقت التغريبة شاهدا على الوليمة على الميت وهو حسن بن سرحان المغتال على يد دياب بعد الاستقرار في الغرب. وارتبطت الوليمة الجنائزية كالعادة بالطقوس، منها الرثاء بالقصائد المحزنة والزيادة في البكاء والنحيب بالدموع الغزيرة، وقصف الرماح وكسر السيوف والقيام بمراسيم الوفاة كرفع جثة الميت وغسلها ورشها بروائح المسك والطيب ثم دفنها لان كرامة الميت مأواه الأخير. وتمارس التضحية بالحيوان دورها في الوليمة الجنائزية حيث ذبح الهلاليون الأغنام على ضريح الميت ويستخدم الراوي عبارة " ما يكل عن وصفه اللسان" للدلالة على العدد الوافر دون تحديده بالرقم، وأقاموا على قبره قبة عظيمة ودونوا عليها اسم الله الأعظم، وتختتم هذه الوليمة الجنائزية بالتعزية، [2]

---

[1] **Gaston Bouthoul la guerre page 62**

[2] - انظر تغريبة بني هلال ص 321

المظاهر الفنية للحرب:

يتمثل المظهر الفني للحرب في زينة أو حيلة الفارس، فالمعادن النفيسة في التغريبة كالسيف والرمح والطاقية والبولاذ والدرع المصفح ومغطات الرأس والترصيعات والمنقوشات كلها عناصر تشير إلى البيئة الصحراوية التي عاش الفارس فيها. ورغم وجود اختلافات واضحة بينها في الحجم والقيمة واللون فإنها ليست منعزلة عن بعضها البعض لان هذه الأسلحة متقاربة في الزمان والمكان سواء في مظهرها الحسي أو في طابعها الجمالي.

الخاصية المسلية للحرب:

إن الحرب تنزع الهلاليين والزناتة والملوك الأعاجم جميعهم من حياتهم اليومية وتضعهم في جو مادي خارق للعادة، إن البطل المجند يبتعد عن أعباء العائلة وانشغالات الحياة العادية. لا نجد في التغريبة أثرا لانغماس الأبطال في النشاطات العادية سواء الرجال منهم أم النساء، وكان الحرب تكتسب مزيدا من الأهمية مع تقليص العمل أو أن التمركز حولها أدى إلى تهميش الالتزامات اليومية، وصارت الحرب ذاتها أسلوبا للعيش. كما يغيب في التغريبة الحديث اليومي بين الأبطال وزوجاتهم وأبنائهم وأقاربهم وأصدقائهم وبين الأبطال أنفسهم إلا بعض الإشارات العارضة إلى الخصومات

الفردية مثل تلك التي حصلت بين الجازية وعليا زوجة أبي زيد وهي الحادثة التي كادت تنعكس سلبا على تماسك القبيلة وتكون سببا في التراجع عن الرحلة، إن غياب الحياة الشخصية في التغريبة دليل على هيمنة الجماعة في الملحمة.

دور الحرب في تحول القيم:

إن الحرب في التغريبة نشاط شديد الصلة بالقيم كالشجاعة والحرية والتضحية بالنفس والصداقة والإخلاص والحب. فالأبطال في التغريبة يعيرون اهتماما خاصا بالشعور بالشرف والكرامة والمروءة والشهامة. وإذا لم تكن هذه القيم سببا مباشرا في إعلان الحرب بين الهلاليين والملوك الأعاجم فان الحرب أحدثت تحولا عميقا في القيم. نلاحظ في التغريبة نوعا من التدهور الذي يصيب قيمة الحب فيحولها إلى الأنانية، إن الأبطال يعتبرون خصومهم مجرد أدوات أو وسائل من أجل بلوغ أغراضهم. ولقد إستخدم أبطال القبيلة الهلالية نساءهم كوسائل من أجل قتل الفرمند ملك مصر، واعتبر هذا الملك بدوره تلك النساء كمخلوقات ذات أجساد مثيرة للمشاعر والغرائز.[1]

---

[1] - انظر تغريبة بني هلال ص 168، 169

وإذا كان الهلاليون لم يعاملوا نساءهم كأشياء محسوسة، واعترف الملك الفرمند بحساسيتهن وحضورهن فان استغلال الأبطال للآخرين في بعض الحالات قد أخذ طاعة أكثر خشونة ووحشية وذلك عندما إعتبر أبو زيد نفسه طبيبا وقتل شبيب ابن مالك ملك مدينة الشام، [1]

ويظهر الملوك الأعاجم على أنهم أنانيون وماهرون في الحساب حين لا يعتبرون الهلاليين مشابهين لهم فيطالبونهم بالأموال والماشية والنساء مقابل حق العبور.

إن القتل الذي ظل ممنوعا في فترة السلم تبيحه الحرب وتجعله مشروعا ومفروضا على كل الأطراف المتعارضة في التغريبة. كما أن كل الممنوعات التي تحمي الأملاك والسلامة الجسدية ملغاة، إن الخطف والإغارة واغتصاب الممتلكات أصبحت مشروعة.

وقد أدت الحرب إلى انفصال الفرد عن الجماعة التي ينتسب إليها، وتتضمن التغريبة عددا من الشواهد التي تؤكد هذه الرغبة عند دياب وأبي زيد[2] إن الصديق والعدو مفهومان خاضعان في

---

(1) - انظر م، ص 131، 132

(2) - انظر تغريبة بني هلال ص 310، 334

حالة السلم إلى تنوع الاختلاف في حين يسترجع مفهوم العدو في حالة الحرب مدلوله البدائي المتمثل في الشراسة. [1]

ويمكن أن نعتبر سعدا الزناتية شخصية من هذا القبيل عندما حرضت الهلاليين على قتل والدها خليفة خليفة الزناتي سلطان تونس. ولقد كانت تسعى إلى التضحية الكاملة بوالدها من أجل خطيبها مرعي، كما أن التنافس على الأرض والسلطة اثر على نفوس الأبطال الهلاليين وأدى بهم إلى التطرف، ومن هنا أخذت العلاقات القرابية القائمة بين الأبطال الهلاليين طابعا شكليا،

ونلاحظ في التغريبة كذلك أن الملوك الأعاجم يعتبرون الهلاليين أجانب وغزاة ويقابلونهم بعدم المبالاة وخلو البال والبرودة والاستخفاف، وهكذا نجد أن القيم في التغريبة تنحط وتتحول إلى نوع من القوانين الصارمة من اجل السيطرة.

الغزوات:

يمكن تحديد الغزوة في البداية بأنها فعل التغلب على الغير بالعنف، وتقدم التغريبة الهلاليين على أنهم مؤهلون لتحقيق الغزوة على أساس الخبرة بشؤون الحرب، وقد كان انتصار الهلاليين على الخليفة الزناتي أعلى نقطة وصل إليها مدهم في تونس. وقد كان

---

[1] **Gaston Bouthoul la guerre, page 65-66**

منتصف الغرب هو المنطلق الأول لهذه الحركة العسكرية الواسعة في بلاد الغرب. وتنقسم مواقع القوة فيها إلى جهات: تتمثل في المدن وأربعة عشر قلعة. وكان الزحف إلى داخل بلاد الغرب كل فارس على حده. وقد جرى فعل الغزوة بخطة حصل الاتفاق عليها بين الفارسين، بينما تكلف العبيد بحراسة النساء والممتلكات وانقسمت حركة الغزوة من الجانب الجغرافي إلى جهات أساسية تتولى كل واحدة منها قبيلة فرعية ومن الملحوظ في هذه الفترة أن مختلف القبائل الهلالية قد خضعت لضرورة الصراع بينها وبين الزناتية.

وقد ضلت التغريبة أهم مركز للعمارة الحربية، و وصف أبو زيد القلاع بأنها كثيرة بأبوابها وحصونها المصفحة ودورها المزينة وغنية بالمحاصيل والثمار والمحاصيل.[1]

والقلعة حصن يقام في المدينة تكون وظيفتها حماية السكان من الخطر الخارجي، ورغم الشهرة التي تتمتع بها القلعة إلا أن أصلها غير واضح. والراجح أن عوامل كثيرة منفلصة ساهمت في تكوينها منها تقليد قديم فارسي قبل العهد الإسلامي ونمو الطبقة العسكرية المتميزة التي تنتسب إلى أجناس بشرية مختلفة من

---

(1) - انظر تغريبة بني هلال ص 262

السكان الحضريين، فضلا عن الشعور العام بعدم توفر الاستقرار والأمان واكب إزدياد قوة المدن وأهلها. ومهما كانت الأسباب التي أدت إلى ظهور القلعة فإنها صارت منذ القرن الهجري الموافق للعاشر الميلادي المظهر الذي ميز اغلب المدن اختلاف إقليمي في شكل القلعة. وقد نجد في بعض الأحيان القلعة قائمة على موقع مشرف جميل يجلب النظر على غرار قلعة حلب وقلعة القاهرة، ونجدها في أحيان أخرى لا تكاد تظهر بين مباني المدينة مثلما يلاحظ في قلعة دمشق، ولم تكتسب القلعة أبدا الصفة الأسطورية التي أضيفت على القصر الملكي الأول مع أن بعض المصادر المكتوبة و المخلفات الأثرية النادرة تشير إلى أن كثيرا من القلاع كانت تتضمن العديد من المرافق المنزلية. وتؤكد هذه القلعة الأهمية التي يكتسيها النموذج العسكري في تطور العمارة و ذلك فيما يتعلق بتجديدات فنية مثل إقامة العقود وتخطيط البوابات والأبراج المشتقة كلها من عمارة القلعة.[1]

وتمثل العلاقة بين الغزوة والمدينة أهمية خاصة في التغريبية، وقد سلك الهلاليون في غزواتهم الطرق التي تعودوا عليها من نصب الخيام حول المدينة وتبادل الرسائل مع السلطة

---

[1] - انظرا وليج جرابر، العمارة ، ص 387.

الحضرية التي تمثلها، ويخوضون المعارك ويحققون الانتصار على العدو ويستولون على المدينة، ويجلس قائدهم على كرسي المملكة ويستلمون الأموال. وقد يرتضون من سكان المدينة البقاء في الحكم مقابل ضريبة الجزية، إن المدن التي احتلها الهلاليون لم تكن وحدات منعزلة بل كانت مجتمعة حول مركز سياسي واحد يرأسه ناصر شقيق خليفة المقتول[1]وقد بلغ الهلاليون الهدف المقصود من الحرب و نعني به عدد المدن التي استحوذوا عليه في بلاد الغرب. استطاع دياب أن يحتل تونس وبرج الدمع وبرنيجة وعقة وطنجة والجائحة، بينما استولى أبو زيد على قابس وسوت ومغراوة والقيروان والأندلس ومركاش وزوارة.

وقد كانت الظاهرة التي أدت دورا كبيرا في تحديد طبيعة الدخول الهلالي إلى بلاد الغرب هو التقسيم، والمقصود بالتقسيم في التغريبة هو العملية التي فرق الأمراء الثلاثة من خلالها بلاد الغرب إلى حصص وذلك بتعيين نصيب كل واحد منهم ليس عن طريق الهبة أو الوصية ولكن باعتبارها الغنيمة. خضع تقسيم بلاد الزناتة في البداية إلى المشورة بين الزعماء الثلاثة واتفقوا على توزيع المدن والقلاع إلى ثلاث مجموعات متماثلة بينهم، ويتمثل

[1] - انظر تغريبة بني هلال ص 258

قسط كل واحد منهم في ثلث الغرب وتسقط من الحساب مدينة تونس لتكون لصالح دياب وحده، [1] واعتمد الأمراء الثلاثة على مبدأ الإنصاف في التقسيم بوصفه قاعدة أساسية في المنظومة العرفية للقبيلة العربية التي تعاقب كل تباين بين أفرادها لا تبرره الجدارة، وكان من المفروض أن يتيح هذا الحادث المتمثل في تقسيم بلاد الغرب للهلاليين وقادتهم أن ينتقلوا إلى مرحلة الاستقرار.

خاصيات البطولة الفردية:

ميدان الحرب:

يعتبر الميدان في التغريبة العنصر الأساسي الذي تجري فيه مشاهد الحرب، والميدان بمعناه العام هو مساحة من الأرض التي يمتد فيها النشاط العسكري.

وينقسم الميدان في التغريبة إلى نمطين يتمثل الأول في الميدان المغلق وهو المساحة المحدودة التي يمارس عليها الفارسان المبارزة، أما النمط الثاني فهو الميدان المفتوح ويمتد مظهره الرحب من الضاحية إلى المدينة ويتوغل في داخلها. ويبدو القتال في هذا الصنف من الميدان في شكله الجماعي حيث يضم مجموعات من الجنود والفرسان يبلغ عددها المئات والآلاف.

---

(1) - انظر م، ن ص 258

وبالرغم مما يظهر أن كلا من النمطين محصور داخل حدوده فان كلا منهما مرتبط بالآخر، إن التغريبة تفترض هذين النمطين بمعناهما الأكثر تكاملا، إذ بقدر ما يرتكز الميدان المغلق على قيام الحرب من خلال الدور الذي يسند إلى الفرد يؤكد الميدان المفتوح على الاستمرارية.

تماثل الفارس بعناصر الطبيعة

إن قدرات الفارس الهلالي التي تسندها التغريبة إليه في الحرب مستعارة غالبا من الظواهر القوية في الطبيعة. وتنقسم هذه العناصر القوية بدورها إلى أنواع منها ما يتعلق بالشيء الصلب كالصوان[1] وهو نوع من الحجارة فيه صلابة ويتطاير منه الشرر، والحديد[2] والجبل[3] أو قطعة انفصلت منه، [4] والقلة[5] وهي الجرة من الفخار يشرب منها، والصخر. [6]

---

(1) - انظر تغريبة بني هلال ص 10

(2) - انظر م، ن ص 35

(3) - انظر م، ن ص 42

(4) - انظر م، ن ص 85

(5) - انظر م، ن ص 85

(6) - انظر م، ن ص 153

ومن هذه العناصر القوية ما يتصل بالحيوان الشرس كالأسد[1] والصقر[2] والنمر، [3] ومنها ما يرتبط بالمادة السائلة كالبحر [4] . والمطر[5] فضلا عن العناصر الصوتية كالرعد. [6]

وتستخدم التغريبة الوسائل التي تضعها الطبيعة تحت تصرفها لتحديد زمن القتال، وقد استعملت الفترات التي تفصل شروق الشمس عن غروبها للدلالة على المدة التي إستغرقها، كوسيلة تقيس بها القتال الذي يخوضه البطل في الميدان، حيث يبدأ البطل قتاله منذ ظهور الشمس وينتهي منه عند غروبها. ومنذ مرحلة مبكرة جدا لاحظ الإنسان مرور الوقت من مشاهدته للظواهر الطبيعية المختلفة كاختلاف الليل والنهار والدورة القمرية ودورة الحيض الشهرية عند المرأة ومواسم السنة كالحصاد وسقوط الجليد وتجدد براعم أوراق الشجر واوان المطر والجفاف وفيضان الأنهار وهجرة الطيور والنماذج النجمية،[7] و قبل أن يكون الجهاز

[1] - انظر تغريبة بني هلال ص 21
[2] - انظر م، ن ص 153
[3] - انظر م، ن ص 61
[4] - انظر م، ن ص 45
[5] - انظر م، ن ص 172
[6] - انظر م، ن ص 179
[7] - انظر كريس مورجال، من المزولة الشمسية إلى الساعة الذرية، عالم المعرفة فكرة الزمان عبر التاريخ العدد 159 1992 الكويت ص 89

الذي يشير إلى مرور الوقت بدقة مخترعا كانت الشمس اقرب وسيلة لمعرفة الزمان المطلق، إن ظهور الشمس وغروبها كافيان للغالبية الساحقة من الناس للدلالة على أوقات بداية عملهم وأكلمهم ونومهم. [1]

إن الظاهرة الشمسية من خلال حركتها اليومية حول مدارها عبر السماء هي التي تدل على الوسيلة التي تضبط زمن الحرب المحصور بين النور والظلام.

حواجز الطبيعة:

إن الطبيعة هي المصدر الأول للحاجز الذي يعترض الفارس في الحرب، وقد ظل هذا الحاجز الطبيعي على الدوام معيار أساسيا في قياس قدراته، ويكتسب الحاجز الطبيعي في التغريبة أهمية خاصة لما يمارسه من تأثير على مجرى القتال. وقد تمكن دياب بن غانم من قطع الخندق الكبير الذي يبلغ عمقه خمسة أرماح ووسعه ثلاث بواسطة الخضراء، [2] وقد كان الخندق متباينا من حيث العمق والعرض، واستخدم دياب بن غانم معيارا تقليديا وثابتا لقياس الخندق. إن وحدة القياس وهو الرمح والبطل وهو دياب بن غانم

---

(1) - انظر رتشارد نوكس، الأرض السابحة في الفضاء، عالم المعرفة فكرة الزمان عبر التاريخ ص 58.

(2) - انظر تغريبة بني هلال ص 254.

يرتبطان ببعضها ارتباطا وثيقا وذلك لأن القبيلة التي ينتسب إليها دياب شعارها الرمح.

المجادلـــــــة الكلامية :

تتحدد العلاقة بين البطلين في التغريبة من خلال المجادلة الكلامية الحادة التي يجريها البطلان في ساحة الحرب. وتتمثل النقطة المحورية التي تدور حولها المجادلة في إبراز الفضائل والرذائل. ويعتمد البطلان منذ البداية على الحوار المفتوح والمباشر. ويؤدي هذا الحوار بالبطل إلى التباهي بوجود فضائل في ذاته ويرفع من شأنها على حساب الخصم الذي يواجهه في الميدان ويجعله هزأة بعد أن يبين عيوبه ونقائصه وصفاته التي تثير السخرية. ويصبح هذا الحوار مؤشرا صالحا للكشف عن خواص الشخصية الحربية كالاباء والنخوة والجرأة والقوة، بينما تبلغ هذه المجادلة بين البطلين حدا من الشدة تصل في كثير من الأحيان إلى الشتيمة كما وصف الوزير محمود خصمه دياب بولد الزنا.[1] ويتبادل البطلان كذلك القدح أو الهجاء وهو النمط الذي يغلب على هذا الحديث اللاذع في التغريبة. وقد كان خليفة الزناتي يزعم انه

---

[1] - انظر م، ن ص 36

قتل عددا كبيرا من الهلاليين الذين ذهبوا طعاما للحيوانات الشرسة كالغربان، ومثل برؤوسهم على أسوار مدينة تونس.[1]

ويؤلف التحدي القسم المشهدي من عملية القتال في الميدان، وهو دعوة للمبارزة بين شخصين أو تحريض يصدر البطل من خلاله حكما على خصمه العاجز عن القيام بالمجهود المطلوب.

وتتناول التغريبة بالوصف صورة التحدي الذي يشحذ همة الفارس إلى المقاومة وتبين الأساليب التي يرفعه بها. وبالرغم من أن البطل يمتلك الثقة بالنفس والقدرة الخارقة لرفع التحدي حتى يحافظ على سمعته وشهرته بين أفراد قومه الذين ينتسب إليهم فانه مع ذلك ينجز هذا الفعل الصعب بمجهودات فائقة.

ولم يكن البطل الهلالي هو السباق دائما إلى التحدي أو رفعه إذ ظل خليفة الزناتي على سبيل المثال متشبثا بالحياة فترة طويلة من زمن الحرب وهو الموقف الذي انزلق به إلى المثالية.

الحركة في الحرب:

إذا كانت الحركة هي العنصر الذي يمثل بجدارة الحرب فإنها ليست مقصودة لذاتها، إن الحرب لا تقاس بالحركة السريعة أو الآلية التي يقوم بها البطل في الساحة وإنما ينبغي أن تقارنها دائما مع حركة

---

(1)- انظر م، ن ص 251

العدو. وهذا يعني أن الحركة في الحرب تتمثل في العمل السريع الذي يفوق دور العدو في هذا المجال. إن الحركة في الحرب من هذا المنظور جوهرية وليست مقيدة بالمسافة التي يقطعها البطل والطرقات التي يسلكها على سطح الأرض والمطية التي يسخرها في سبيلها و إنما ترتبط بحركة العدو و إجراءاته التي يوفرها من اجل منع البطل من التحرك والسيطرة على الموقف. [1]

وقد جاءت التغريبة خالية من التفصيل في حديثها عن حركة الحرب وغلب عليها أسلوب الاستعراض المجمل وهو السبب الذي جعلها لا تقدم فكرة واضحة ودقيقة عن الحركة القتالية إلا ما تناولت أصنافها العامة كالمبادرة والمطاردة والملاحقة والدوران والمراوغة والهجوم، والاقتراب والتباعد، الاشتباك والانفصال، والإحاطة والاقتحام، والتجوال في الطول والعرض والسقوط والوقوف والرمي والاختباء والارتداد والتمدد والهروب.

وتعود أهمية الخيل في الحرب إلى الحركة السريعة التي يمارسها في الميدان، وقد اخذ الخيل في التغريبة معناه الوظيفي من أصول الحرب وقد كان من عادة الجماعة البشرية التي تخوض الحرب منذ العهد القديم أن تنظر إلى الجياد على أنها نوعان: الأول

---

[1] أنظر منير شفيق، علم الحرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر الطبعة الثالثة 1980 بيروت ص 92

يتمثل في الجواد الشائع أو العادي يصلح للحرث أو حمل الأثقال والثاني هو الذي يصنع النصر والمجد.

وتقدم التغريبة لنا الخضراء كأحد النماذج على الحركة في الحرب، إن أول ما يلفت انتباهنا أن العرب لم يطلقوا على جيادهم أسماء الإنسان، تفضيلا له على سائر المخلوقات ولكنهم كانوا ينسبون إليها صفاته أو يمنحون لها أسماء الحيوان. وتستمد الخضراء اسمها في التغريبة من الخضرة التي تدل على الشيء الطريء، الغض، الحديث العهد، كما تدل على الوعورة والغلاظة وتطلق مجازا على الإنسان الذي حافظ على قوته أو عنفوان شبابه رغم طعونه في السن، إن كل فارس من العرب يطلق على الخيل اسما خاصا يدل على العلاقة الحميمة بينهما.

وقد كان دياب بن غانم يعامل الخضراء مثل البشر، وتشهد بهذا الإخلاص القبيلة كلها وإذ رباها مهرة صغيرة إلى أن صارت فرسا أصيلا، وتلقت أصول الحرب عنه وتعلمت طبعه وظلت طول حياتها تخدمه. وكان دياب يرعاها بيده ويطعمها القديد ويسقيها لبن اللقاح دائما ويفرش لها الحرير في النوم، [1] ومن هذا التصور نستطيع أن نفهم اهتمام الملك الماضي بن مقرب بالخضراء، إذ

---

[1] - انظر تغريبة بني هلال ص 184

استخدمها ذريعة للظفر بالجازية، [1]وكانت الخضراء تعرف صاحبها دياب الذي إعتاد أن يركبها ولا تسمح لغيره أن يمتطي ظهرها. حيث أبدت نفورا شديدا من الماضي بن مقرب ورفعته عن صهوتها مقدار خمسة اذرع إلى أن وقع على الأرض واختل توازنه. [2]

وتنطلق التغريبة في مفهومها عن العلاقة الحميمة بين دياب والخضراء من الحرب، إن الخضراء تنذر صاحبها في ساحة القتال بالخطر قبل وقوعه من خلال الضرب برجليها، وإذا وقع على الأرض من فوق ظهرها وقفت بجانبه، [3] وإذا هوجم دياب من الخلف فانه ينزلق تحت بطنها ويتعلق بعنقها، [4] وإذا صاح فارس من وراء دياب تضربه الخضراء بقدميها الخلفيتين وترميه هو والجواد على الأرض، [5] وقد قفزت الخضراء خندقا يبلغ طوله خمسة أرماح ووسعه ثلاثة، غير أن الخضراء ارتبطت بحتمية في الحرب لم تستطع الانفلات من حكمها وهي الموت، ورغم أن موت الخضراء تجربة محصورة في مستوى المخلوق غير العاقل

---

(1) - انظر م، ن ص 182

(2) - انظر م، ن ص 186

(3) - انظر تغريبة بني هلال ص 184

(4) - انظر م، ن ص 59، 60

(5) - انظر م، ن ص 75

والفردي فانه دياب ارتقى بها إلى الفناء البشري العام حيث غسلها وأدرجها في الكفن وحملها إلى حفرة القبر وهال عليها التراب وذبح على القبر ألف ناقة وفرقها على الفقراء زكاة على "سلايلها" وأولادها وشيد على قبرها قبة عظيمة،[1] وقد كان من عادة العرب إذا مات حيوان احتفلت قبيلتهم بدفنه وحزنت عليه على غرار الإنسان، ولعل هذا التقليد ورثوه من العهد القديم الذي ساد فيه المذهب الطوطمي، [2] وإذا قرن دياب الخضراء بالإنسان في موتها فليس ذلك تعبيرا عن هذا الرباط الوجداني بين الإنسان والمطية فحسب ولكن ليعترف بالجميل لهذا الحيوان الأليف الذي قاد صاحبه نحو الغاية المطلوبة لذاتها وهي الحياة.

إن العلاقة بين الطير والحرب وثيقة وقد عزا العرب في العصر القديم لبعض الطير القوة كالصقر والعقاب لأنها متدربة على الصيد وتفتك بالمخلوقات الضعيفة، وقد كانت تواكب الجيش ثقة منها بما ستفوز به من جثث القتلى. واقترن هذا النوع من الطير دائما بالعدوان والدم والموت. بينما اعتبروا الصنف الآخر من الطير كالغراب رمزا للشؤم وقد لزمت تفكيرهم وتسلطت عليهم

---

(1) - انظر م، ن ص 255

(2) - انظر محمد عبد المعين خان، الاساطير والخرافات عند العرب، دار الحداثة الطبعة الثالثة 1981 ص87

تسلطا مهولا. ارتبط المشهد الدموي في التغريبة بحضور الغراب في السماء، ويندرج الغراب في رتبة من الطير التي تتميز بالقامة المتوسطة وهو ذو ريش اسود ومنقار طويل ومنسل، والغراب حيوان لا ينبئ بشيء طيب وينذر دائما بالشر القادم .

وتلجأ الحرب في التغريبة إلى التنبؤ بالغيب بواسطة الغراب وتجعل منه مصدرا للنبوءة، إن الغراب كلما كان بارزا في السماء تعرضت بالضرورة حياة الفرسان إلى الموت وهو يعلن هذا الحدث الرهيب بالصوت القبيح.

إن الحرب الجارية تبرهن في التغريبة أن القوة الحربية وحدها ليست كافية لكي يفرض البطل نفسه، ولذلك يلجا إلى الحيلة التي من شأنها أن تسهل عليه مهمته، والحيلة بمعناها العام هي النباهة أو الدهاء الذي يستخدمه الإنسان في سبيل تحقيق غاية محددة. وتمثل الحيلة العنصر المحرك لشخصية أبي زيد "صاحب المكر والكيد"[1] وتميزه عن غيره من فرسان القبيلة. وتنقسم الحيلة في التغريبة إلى أشكال منها الخديعة والمثل على ذلك عندما اعتبر أبو زيد نفسه طبيبا ماهرا وزار الملك شبيب في قصره ليداوي علته المستعصية ولم يتعذر وصول أبي زيد إلى المريض بسبب

---

(1) - تغريبة بني هلال ص 44.

التواطئ العفوي لولده المدعو ضفر. وهكذا قتل أبو زيد شبيب على فراشه[1] وجنب قومه بهذه الخديعة تضحيات في غير محلها، أما الشكل الثاني من الحيلة فهو الاستتار وقد اختار أبو زيد أربعين بنتا من بنات العرب ومن جملتهن الجازية واحضر أربعين صندوقا يتألف كل واحد منهم من طبقتين. تشمل الطبقة الأولى القماش والحرير والثانية الفرسان، وسار الجميع إلى الملك الفرمند على سبيل تقديم حقوق العبور ولما وصلوا عنده قتلوه.

ويتمثل الشكل الثالث من الحيلة في فخاخ الخطاب، وقد سعى أبو زيد إلى إقناع الملك هراس وأكابر ديوانه وحملهم على أن يقاسموا آراءه حول موضوع دياب. وقد تعددت مظاهر الحجة في خطاب أبي زيد حيث استخدم البرهان اليقيني لضرورة تحرير دياب من السجن مؤقتا، [2] بينما اعتمد أبو زيد على البرهان الجدلي حين كان يرد على مجموعة من المسائل المعقدة تارة ويوجه بعضا منها بدوره على أتباع الملك تارة أخرى من اجل التأثير عليهم وإخضاعهم لإرادته[3]

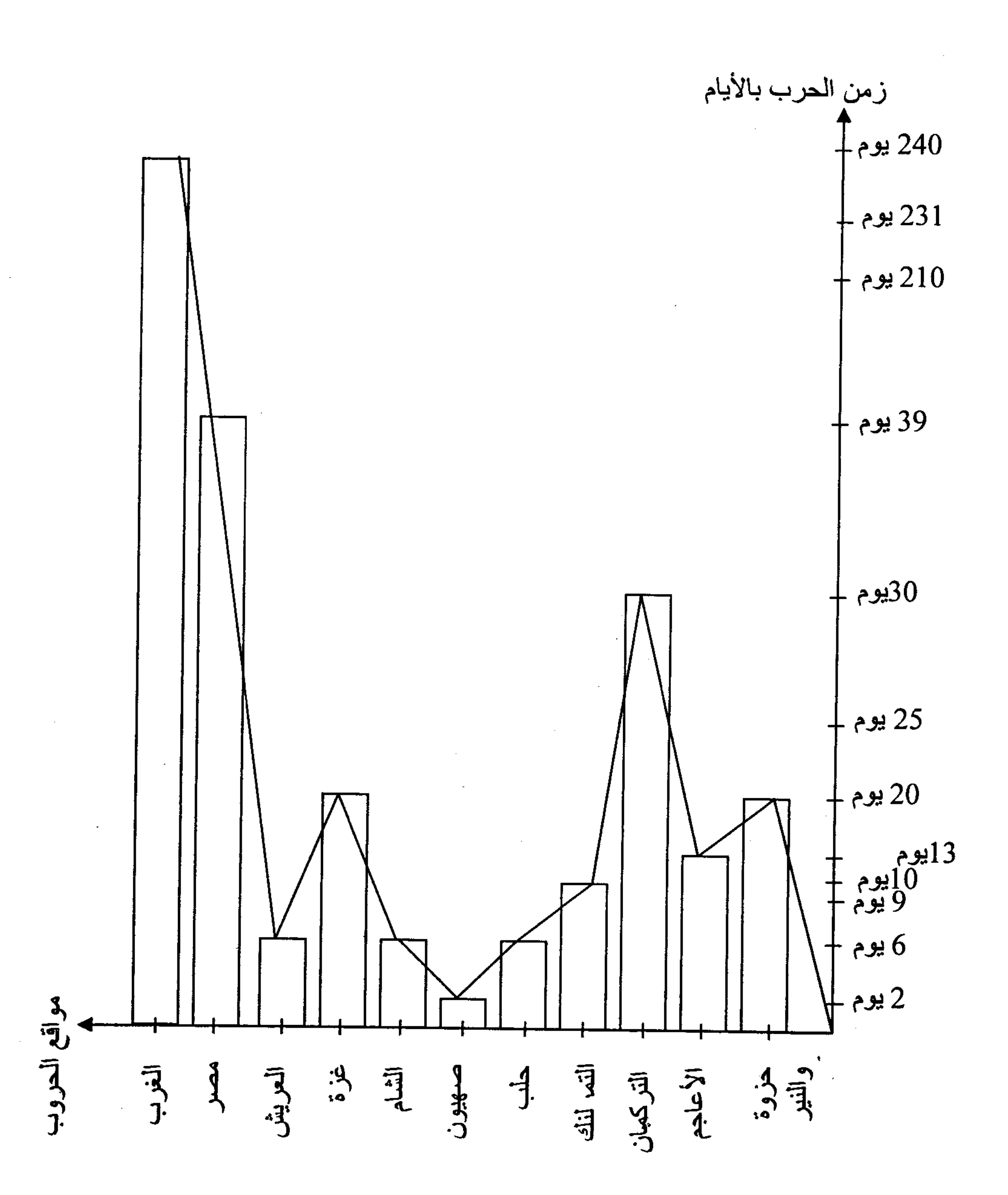
---

[1] - أنظر م، ن ص 131، 132.

[2] - أنظر م، ن ص 100.

[3] انظر تغريبة بني هلال ص102-103

تلخيص بياني لمواقع الحرب ومدتها في رحلة الهلاليين إلى الغرب



كلما إرتفع المنحنى يدل على إمتداد الحرب وهذا يعني أن للبلاد قوة حربية وإمكانيات بشرية ومادية معتبرة بإستطاعتها مواجهة العدو مدة زمنية طويلة.

وكلما إنخفض المنحنى دل على ضعف قدرات البلاد.

ونلاحظ بالتالي أن في أعلى مستوى المنحنى الذي يفوق بكثير القمم المذكورة أعلاه يدل على إستمرارية الحرب في الغرب والغاية منها هي غزو أرض الميعاد بأسرها.

جغرافية الغرب

لا يمكن أن تكون معرفتنا بإفريقيا الشمالية وافية بالغرض إلا إذا إشتملت الجانب الجغرافي.

من العقبات التي ظهرت في الحقل الجغرافي هي التي تتمثل في تحديد التسميات.

وقد قسم الرومانيون إفريقيا الشمالية إلى ثلاثة أقطار تتمثل في إفريقيا ونوميديا وموريتانيا، وأطلق العرب القدامى على المنطقة الممتدة من برقة في ليبيا حتى المحيط الأطلسي مصطلح المغرب العربي وقسموه بدوره إلى ثلاث وحدات منفصلة وهي إفريقيا والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى. غير أنه من الصعب القول أن لكل هذه الأسماء مضمونا جغرافيا دقيقا بسبب عدم توفر الحواجز الطبيعية بين حدود كل من تونس والجزائر والمغرب في ذلك العهد.

وإذا حاولنا تحديد فكرة المغرب من حيث أصله وجدنا أنه "إسم إضافي يدل على مكان من الأمكنة بإضافته إلى جهة الشرق"[1] ويدل المغرب على الموضع الذي تغيب فيه الشمس ثم أطلق

---

[1] - ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر ص 193

بالتعميم على بلد الغرب العربي وهو مذكور باستمرار للتعارض مع المشرق بوصفه الموضع الذي تطلع فيه الشمس. [1]

وقد إستخدم العرب عبارة جزيرة المغرب وتعبر هذه الثنائية التي تدل عليها الكلمتان على الأرض التي يحيط بها الماء واليابس، وقد اقترن المغرب وبلاد العرب بمصطلح الجزيرة لأنهما محفوفان بخصائص جغرافية تتمثل في الجبل والبحر والرمال.

ولعل السبب الذي جعل العرب القدامى يطلقون اسم الجزيرة على المغرب يعود أساسا إلى تعيين هذه الحواجز التي فصلت بدورها أراضيه بمجموعها عن القارة الإفريقية. [2]

ولقد قدم العلماء الجغرافيون والمؤرخون قسطا وافرا من الدراسات لتسليط الضوء على مجموعة من التسميات التي حظيت بها أقطار المغرب، ووضع هؤلاء العلماء يدهم على أسباب القصور في بعض هذه التسميات التي لا تتطابق مع الملامح الطبيعية التي ترمي إليها. وقد إنتقد البعض منهم مصطلح إفريقيا

---

[1] **Encyclopaedia universalis volume 10 lithium migrants – paris- page 288**

[2] **georges marcais, l'Afrique du nord française page 09**

الشمالية الذي يدل بالضرورة على إسم موقع خضع للغزو الأجنبي.[1]

بينما اعتبر البعض الآخر أن عبارة الشمال الغربي الإفريقي اقرب إلى الصواب ولكنها تسمية فرضتها اعتبارات سياسية، أما مصطلح بلاد البربر فانه صار مهجورا لأنه خضع لاستعمال شديد المرونة ويحمل خليفة عرقية مضمرة. [2]

ويطلق الجغرافيون على إفريقيا الشمالية كذلك اسم إفريقيا الصغرى وتمثل في نظرهم منطقة الأطلس. [3]

إذا كان من الصعب أن نلم بجميع الخصائص الجغرافية التي طبعت إفريقيا الشمالية فإننا سنتطرق إلى أهم العناصر التي تتكون منها طبيعتها ووحدتها ومناطقها وسكانها ومواردها مع التركيز على إقليم تونس باعتباره مثيرا لاهتمام خاص بدخول الهلاليين في القرن الخامس الهجري. وقد أسهم موقع افريقيا الشمالية في استمرار علاقاتها بشعوب حوض البحر المتوسط الذي كان مهدا لعدد من الحضارات العريقة منها الفرعونية والإغريقية والرومانية.

---

[1] **Michel camau tunisie, encyclopaedia universalis éditeur france, corpus23 paris page 49**
Abdelllah laroui, l'hisloire du maghreb edition François maspero

[2] **1970 paris page 10**

[3] **Georges marçais, l'afrique du nord page 09**

كما كانت علاقة إفريقيا الشمالية بالمشرق العربي قديمة ترجع إلى الألف الثانية قبل الميلاد[1]. وقد تعرضت إفريقيا الشمالية للفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي واثر هذا الحدث في سكانه تأثيرا جذريا. إذ أدت الهجرات العربية التي وفدت عليها في القرن الحادي عشر والثاني عشر إلى اختلاط قوي بينهم وبين البربر. وبالرغم أن البربر إعتنقوا الدين الإسلامي وبرز عدد كبير منهم في تعلم اللغة العربية وعلومها فان اللغة الأصلية التي تتمثل في الأمازيغية مازالت شائعة ويتركز معظم الذين يتحدثون بها في المناطق الجبلية.

تقع بلدان هذا القسم الجغرافي في أقصى الشمال من القارة الإفريقية وتمتد بين الحوض المتوسط الغربي والصحراء وبين المحيط الأطلسي والحوض الشرقي.

وتأخذ إفريقيا الشمالية مظهرا يكاد يكون فريدا في تضاريسها حيث تشتمل على هضاب عالية ومتعددة تغلب على سهولها الخصبة. إن التل في شمالها والسهوب والصحراء في جنوبها يؤلفون هياكل مادية يحافظ بها السكان الذين يعيشون فيها على تماسكهم منذ قرون متعاقبة. وتتميز بوحدة المناخ في أغلب

---

[1] انظر فتحي محمد أبو عيانة، جغرافية الوطن العربي، دار المعرفة الجامعية 1995 الإسكندرية ص 329

أقطارها. وإذا كان يميل إلى الاعتدال فان الحرارة الشديدة تكون سببا في حدوث جفاف في فصل الصيف لأن وجودها قريبا من الصحراء بينما تنتشر البرودة الحاصلة من سقوط الأمطار والثلوج في الجبال والرطوبة في سواحلها. وتتمثل حيوانات الصيد في الحجل والأرانب و الغزلان والطيور ويمارس أهل إفريقيا الشمالية تربية الحيوان كالإبل والماعز والغنم لان حاجة هذه الحيوانات قليلة إلى الغذاء وقادرة على تسلق المرتفعات.

إذا كانت إفريقيا الشمالية مدينة بخصائصها الحضارية إلى موقعها الجغرافي فان عناصرها الطبيعية قد أخذت وجوها مختلفة عبر العصور بسبب رد فعل السكان الذين يقيمون فيها منذ عهد بعيد. ويتصور سكان إفريقيا الشمالية الطبيعة على أنها نظام من القوى المجهولة التي ينبغي عليهم أن يتصالحوا معها وينالوا رضاها. إن العلاقات الروحانية بينهما تترابط في مجال الزراعة التي تحتوي على مجموعة من الطقوس والممارسات التي تفرض عليهم احتراما خاصا في سبيل الحصول على المنتوجات الضرورية للحياة. وتقوم الزراعة في إفريقيا الشمالية على القمح والشعير والذرة والزيتون والنخيل والكرم، ويعد الزيتون أول محصول من النبات يستخرج منه الزيت في هذه الأقطار، ولعل

السبب الذي دفع السكان إلى العناية بهذا النوع من الشجرة هو النقص في ثروة الحيوانات من جراء قلة المراعي.[1]

وقد كانت الأرض الصالحة في القسم الشمالي ومحصولها الزائد عن الحاجة أثرهما الحاسم في تشييد المدن التي مارست دورا رائدا في ازدهار المعرفة والتجارة.

إن المدن في إفريقيا الشمالية توقف في بنياتها بين التنظيم الحضري المحلي والغربي. وتتالف في الوسط عموما من أحياء إسلامية ذات الأزقة الضيقة والملتوية بين بيوت صغيرة التي تقع في الضاحية وأحياء أخرى حديثة تضم عمارات عالية وشوارع فسيحة ذات حركة قوية من ذهاب الناس وإيابهم.

وقد أدت الطرق البرية دورا بالغا في نقل السكان والبضائع لأنها اقل كلفة في إنشائها وذات اتجاهات متعددة، غير أن عددا كبيرا منها غير معبد حيث يصبح السير فيها أثناء مواسم المطر عسيرا لأنها تتحول إلى طين سميك أو طبقة جامدة متشققة ولا سيما فترات الحرارة الشديدة. [2]

---

[1] - انظر محمد رياض، كوثر عبد الرسول، الجغرافيا الاقتصادية، دار النهضة العربية، الطبعة الثالثة بيروت ص 286

[2] - انظر رياض كوثر عبد الرسول، إفريقيا دراسة لمقومات القارة، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية 1973، بيروت ص 352.

ظهر الرعي في إفريقيا الشمالية منذ قرابة ألف سنة[1]، ويسود مساحات واسعة منها، والرعي حرفة زاولها البدو الذين فضلوا البقاء على أسلوب العيش الذي ورثوه عن أجدادهم مثل الطوارق وبعض القبائل العربية الذين يعيشون في الصحراء ويعتمدون على الجمال بينما تحول كثير منهم إلى الزراعة بسبب الفقر والكوارث التي ألحقت بهم ضررا فادحا كالمجاعة التي تستغرق زمنا طويلا. وقد كانت الصحراء في إفريقيا الشمالية في العصور الغابرة صالحة للرعي والاستيطان حيث عرف أهلها تربية الخيول والأبقار والضأن وأقاموا فيها حضارات تمثل آثارها ورسومها المنقوشة على الصخور رجالا ونساء وحيوانات وأدوات الحرب، وعندما بدأت الصحراء تدخل عصر الجفاف أخذ سكانها بالنزوح إلى الشمال. [2]

وليست هذه الحركة الرعوية داخل أقطار إفريقيا الشمالية أمرا غريبا عليها بل إنها تكاد تكون مسجلة في ذاكرة شعوبها ومع ذلك فقد تقلصت بسبب الحرية الضيقة بعد أن فرضت السلطات الحدود السياسية. والى جانب هذه الظاهرة الداخلية توجد هجرة

---

[1] انظر محمد رياض، كوثر عبد الرسول إفريقيا دراسة لمقومات القارة ص 301.

[2] أحمد نجم الدين فليجة، إفريقيا دراسة عامة وإقليمية مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ص 14

الشغل التي يقوم بها عدد وافر من سكان المناطق الفقيرة الذين يتوجهون كل سنة إلى المدن.

ولعل أكثر التسميات الجغرافية شيوعا هي إفريقيا التي أعطت بلاد تونس صفتها المميزة.

وقد كانت إفريقيا في العهد الأول من ظهور الإسلام خاضعة لإرادة الرومان، وكان يسكنها قبائل من البربر مثل هوارة ولواتة وأوريغة ونفوسة ويفرن ونفزاوة وغيرها، ثم المهاجرين الذين وفدوا إليها. وكان العرب يطلقون عليهم جميعا الأفارقة، وكانت إفريقيا تضم مدنا وقرى وبوادي زاخرة بالحقول الخصبة. [1]

وكان الإغريق يسمون القسم الشمالي منها الذي كان يسكنه العنصر الأبيض باسم ليبو أو ليبيا بينما كان يطلقون على الصحراء اسم الأجناس السود.

وإفريقيا كلمة مستمدة من القبيلة البربرية التي تحمل اسم اوريغةAwrigha وأطلق الرومان عليها اسم أفري أو السود. وقد كانت هذه القبيلة تقيم في إقليم قرطاج. وأطلق الرومان اسم أفري

---

[1] انظر يفر (ج) دائرة المعارف الإسلامية ترجمة إبراهيم زكي خو رشيد أحمد الشنقناوي، عبد الحميد يونس، عباس محمود المجلد الثاني العدد الخامس 1936 ص 339

على أقدم مستعمرة وهي تونس وشرق الجزائر، وشمل بعد ذلك هذا الاسم القارة بأسرها في القرن الخامس عشر قبل الميلاد. [1]

وكانت تعرف هذه المستعمرة باسم ولاية إفريقيا القنصلية وهو الإسم الذي حرف فيما بعد إلى إفريقيا. [2]

ويطلق ابن خلدون اسم إفريقيا غالبا على الجزء الأوسط والشمالي من بلاد تونس ويقول انه يقابل طرابلس وبلاد الجريد وإقليم قسنطينة[3]، ويحصر ايفر حدود إقليم تونس الذي سمى بإفريقيا في أنها تحد غربا بقسنطينة وشرقا بطرابلس وجنوبا بجبال أطلس وإقليم الزاب وجزء من بلاد الجريد وليبيا الشرقية وشمالا بالبحر الأبيض المتوسط من نهر مجردة الذي يصب تجاه بنزوت حتى قابس. [4]

وقد إنطلق الفتح العربي من خلال البعثة الأولى وطرد البزنطينيين طردا نهائيا واستعادت إفريقيا الشمالية بذلك وحدتها

---

[1] **encyclopédie annuelle édition robert Laffont 1982 paris page 156**

[2] - انظر فتحي محمد أبو عيانة، جغرافية الوطن العربي، ص 330

[3] - انظر ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ص 195

[4] - انظر يفر، دائرة المعارف الإسلامية ص339

تحت كنف الإسلام. وفي هذه الفترة صار إسم إفريقيا بصيغته العربية محصورة في منطقة القيروان. [1]

وقد أطلق العرب ومصادرهم إسم إفريقيا على الإقليم الذي تتوسطه القيروان ويمتد من طرابلس حتى بجاية، [2] وتنحصر بلاد تونس في رقعة جغرافية محدودة ويقيم فيها عدد قليل من السكان.

ولعل الخاصة الرئيسية التي توصف بها بلاد تونس منذ العصر القديم عن غيرها من بلدان إفريقيا الشمالية هي التي تتمثل في سلسلة من السهول الخصبة.

القسم الأول من السهول في بلاد تونس الذي تحتل الصدارة هو الذي يقع على ساحل البحر، وتظهر هذه السهول في شكل متتابع ومنظم.

ويشغل القسم الآخر من السهول الجانب الشرقي منها، ويقسم خليج قايس السهل الشرقي إلى قسمين الشمالي ويعرف باسم الساحل والجنوبي ويعرف باسم الجفارة الذي يعتبر كبيرا جدا ويمتد في تونس وليبيا على السواء. وقد بدت سهول تونس الخصبة الصالحة لاستهلاك المراعي منذ العهد القديم قطب إنجذاب بلاد

---

[1] **Grand dictionnaire encyclopédique tome 1 1arousse 1982 page 167**

[2] **ـ انظر فتحي محمد أبو عيانة، جغرافية الوطن العربي ص 330**

البربر الشرقية ومطمح أنظارها، حيث ظلت هذه السهول هي التي فتحت إفريقيا الشمالية بأسرها على حضارات متنوعة وتشكيلات إمبراطورية. إذ كانت سهلة البلوغ من المسالك البرية والبحرية، وكانت هذه السهول بنفسها منفذا إلى إفريقيا الشمالية العميقة. وتعتبر موارد المياه في تونس تقليدية حيث يتميز شمالها بالمياه السطحية التي تجري طيلة السنة بينما يعتري الجفاف منطقة الوسط وتوجد في جنوبها أودية موسمية تنحصر فيه مجاريها السطحية المنحدرة من هضاب مطماطة. [1]

ويمثل الزيتون أهم شجرة مثمرة ذات أهمية قصوى في تونس ويبلغ عددها نحو ثلاثين ملايين، [2] ويظهر ساحل جنوبها في العصر القديم وكذلك في العصر الوسيط كمصدر لزيت الزيتون. [3]

ويوجد في تونس نمطان من الحياة يؤلفان إنقطاعا بين الساحل المتمدن والريف الذي يقع في مؤخرتها. وقد عرفت مدن تونس ولا سيما القيروان ازدهارا بالغا بفضل التبادل مع الشرق

---

(1) - انظر سامر مخيم، خالد حجازي، أزمة المياه في المنطقة العربية عالم المعرفة العدد 209 1996 الكويت ص 80، 82.

(2) - انظر فتحي محمد أبو عيانة، جغرافية الوطن العربي ص 100.

(3) - انظر م، أ كوك، التطورات الاقتصادية ترجمة مجموعة من الأساتذة عالم المعرفة الجزء الأول الطبعة 2، 1988 الكويت ص 314.

العربي وقد صارت تونس مقاطعة من الإمبراطورية الأموية التي وضعتها تحت سلطة المحافظ الذي قام بتعيينه الخليفة في دمشق وحمل لقب الأمير، واستقرت العاصمة السياسية والدينية في هذه الفترة في القيروان.

الطبيعة المنتعشة والنشيطة

يشكل الهلاليون والطبيعة عاملين متداخلين. وقد كان أثر الطبيعة في موطنهم قويا جدا عليهم إذ إستطاع الجفاف أن يعدل من صفات النبات والحيوان تعديلا دام زمنا طويلا. وجعل من الموارد التي يستهلكوها ناقصة أو منعدمة تقريبا. وتبدوا أهمية تأثير الطبيعة أكثر إذ أخذنا بالحسبان ما ترتب عليها من مشكلة الهجرة إلى مكان بعيد. ولاشك أن الهلاليين حملوا معهم صفاتهم الذهنية وميولهم العقلية التي إكتسبوها من بيئتهم الأصلية عندما رحلوا إلى بلاد الغرب.

وأن واحدا منهم على الأقل أو البعض منهم يختلف عن مجموع القبيلة. ومن ثم كانت بلاد الغرب الواحدة موطنا للقبيلة بأسرها ولكن أعضاءها يختلف بعضهم عن البعض في الذوق والمزاج والتعبير الفني والرغبة في الحصول على الثروة والميل إلى العيش المشترك.

وتتوزع الطبيعة في بلاد الغرب بين الفضاء والمكان والطبيعة العذراء والموقع والإقليم والضاحية، وليست هذه الوحدات الجغرافية مستقلة بذاتها بقدر ما هي متصلة بعضها ببعض. ومع ذلك لابد من التمييز بين الفضاء من حيث هو مساحة غير محدودة يتنقل الهلاليون عليها والإقليم من حيث هو رقعة من الأرض التابعة لسلطة أو مدينة محددة وبما أن الجغرافية تعبير محسوس عن البناء الإجتماعي فإن أقاليم الغرب ترتبط بصفات متعددة. يعد الإقليم الطبيعي من أعرق المفاهيم الجغرافية. وهو يتمثل في الوسط الذي لم تلحق به بصمة الإنسان ويتعلق بالمناطق غير اللائقة للنشاطات الزراعية وتربية الماشية، ويستأثر الإقليم الطبيعي في بلاد الغرب إهتمامنا من خلال مشهد صيد مثير للإندهاش والإستغراب حيث ترد غزارة الطريدة تعبير عن هروبها من عدد الهلاليين الوافر وليست حدثا عرضيا.

ويحيل الإقليم الطبيعي إلى الجانب الطبوغرافي الذي يدل على وصف الأشكال الجغرافية بتفاصيلها الدقيقة. فيحدد الوصف الطبوغرافي موقع النزول واسمه، «ونزلوا في واد اسمه واد الرشاش وكان ذلك الوادي بين جبلين»[1] لقد تحكم في اختيار

---

[1] ـ تغريبة بني هلال ص 190

الموقع ما يتمتع به من تحصين طبيعي يساعد على دفع الخطر الخارجي. وتوحي التغريبة بفساحة الإقليم الطبيعي وتشعب مسالكه ولذلك تشير إلى الخبير في طرق البلدان وأراضيها الذي كلفته السلطة الزناتية للكشف عن هؤلاء العرب والإتيان بالخبر عن حقيقة أمرهم[1]. إن الإقليم الطبيعي غير مكشوف ومغطى بالنباتات الخضراء كالأعشاب و الأشجار ويسيطر على الإقليم الطبيعي الملاذ والملجأ refuge dominant وهو مكان الحماية والاختباء و الهرب و بعيد عن الناس ومنعزل يساعد الهلاليين على مشاهدة الغرباء. كما يتغلب على الإقليم الطبيعي الرصد prospection dominante[2]. فهو مكان المراقبة و النظر و الريبة والحذر والمظنة و عدم الثقة والارتياب. «انزلوا في هذا الوادي واحذروا من كيد الادعاي»[3].

إن النساء الهلاليات أكثر ارتباطا بالملاذ و الملجأ من الذكور الذين يميلون إلى الرصد. أما الإقليم الزراعي فإنه يقدم للهلاليين القوت إلا أن هذا الإقليم الحيوي يشكل خطرا عليهم باعتباره مجاورا للمدينة وخاضعا للحراسة. ورغم أن حياة الهلاليين متوقفة

---

(1) – انظر تغريبة بني هلال ص191

(2) – انظر شاكر عبد الحميد، التفضيل الجمالي. عالم المعرفة العدد 267 – مطابع الوطن الكويت ص391

(3) – تغريبة بني هلال ص 200

على الإقليم الزراعي والرعوي فان عيشهم لا يقتصر على إنتاج الأرض بل يسدون رمقهم بواسطة الموارد المعروضة في السوق. وهنا يعرض السرد القصصي حياة الهلاليين في موضعهم الاجتماعي إن العلاقات بين الهلاليين ومحيطهم الاجتماعي محصورة في المدينة وضواحيها.

وتتأكد بين المركز والضاحية المسافة بين السلطة والتبعية. إن تحرك الهلاليين في الفضاء الجغرافي محدد بممارستهم الاجتماعية و يختلف هذا التحرك بين الفضاء العائلي (الخيمة) والفضاء الرعوي (البساتين والمروج والحقول) و الفضاء المدني (القصر و المعبد و السوق) كما ينقسم تحركهم إلى فضاء الذكور (الصيد و الخيل و الحرب) و فضاء الإناث (الخيمة).

وإذا حاولنا أن نبحث عن اثر الظروف الجغرافية في الهلاليين بعد استقرارهم بالغرب فان ذلك يستوجب منا تحديد الفضاء الجغرافي من المنظور الاجتماعي. انه «بمثابة المجموعات (الأماكن) والخاضعين (البشر) الموزعين على مساحة من الأرض المتضامنين بعضهم بعضا بعلاقات متبادلة متعددة»[1]

---

(1) – **Jacqueline, Bonnamour, géographie rurale position et méthode Masson 1993 paris page 69**

ويترتب عن هذا التعريف أن المكان جزء غير منفصل عن الفضاء الجغرافي. وهو يحمل كذلك مدلولا إجتماعيا بصفته يمثل «المستوى المحلي وعلاقة الفرد و الجماعة بمحيطها المباشر و المعيش في الحياة الخاصة وتعقد الحياة اليومية»[1] لم تقم القبيلة الهلالية في البداية إلا عندما رغب أفرادها أن يعيشوا معا تربطهم آمال ومصالح واحدة. إن تأقلم الهلاليين مع ظروف الطبيعة في الغرب يتم بواسطة أسلوب العيش. ويخضع أسلوب الحياة إلى مفهوم محدد. فهو «مجموع العادات التي تضمن الجماعة وجودها. بممارستها»[2].

إن الصيد و الزراعة و الرعي أنماط من أسلوب العيش. وتشمل هذه النشاطات عددا من العناصر تتمثل أساسا في الوسائل كالقوس و السهم اللذين يستخدمهما الهلاليون و الزناتة لاصطياد الطيور و الوحوش البرية ثم إن أسلوب العيش ليس محصورا في الملبس و المأوى و الطعام بل يشمل جميع النشاطات التي يمارسها الهلاليون في حياتهم ويرتبط الهلاليون بالحياة الرعوية وهي أسلوب من العيش قائم على الاستغلال الواسع للمراعي. ويجب هنا أن

---

(1) – Groupe d'auteurs. La geographie sociale Masson 1984 paris page 90

(2) – Max derruau, geographie Humaine. Armand colin 1991paris page 09

نميز بين ثلاث أصناف من الحياة الرعوية.البداوة التي تدل على تنقل الهلاليين بأسرهم وإحتكاكهم بالزناتة الذين يمارسون الزراعة. ويتمثل الصنف الثاني في ارتياد قطعان الماشية الكلأ في مواضعه.

إن قطعان الهلاليين تتنقل بمقدار ما تستهلك الأعشاب في المروج وتجر معها الزعيان و العبيد. أما الصنف الثالث فهو متصل بالنشاط الرعوي في الجبل الذي لا نجد أثرا له في التغريبة. ولعل السبب يعود إلى أن الهلاليين دخلوا إلى الغرب من السهول و الصحاري. وبما أن البيئة الخارجية لا تفرض طرازا معينا من العيش فإننا نلاحظ في بلاد الغرب وجود أسلوبين من العيش أحدهما رعوي والآخر زراعي. إلا أن إدخال عنصر جديد يؤدي بالضرورة إلى إضطراب أسلوب الحياة فيها. إن دخول الهلاليين بقطعان الماشية الوافرة المتكونة في أغلبها من الجمال قلب أوضاع الغرب.

إن الصلات بين الهلاليين والطبيعة في بلاد الغرب لم تنشا من مجرد تحول القبيلة البدوية والرعوية إلى سلطة غازية بل كانت نتاجا لعوامل جغرافية وإجتماعية. وقد إتفق أعيان القبيلة على تقسيم بلاد الغرب فيما بينهم وتفرقوا عبر أقاليمها الواسعة منفصلين عن وحدة القبيلة الأصلية. ورغم أن السلطة البدوية والرعوية تستمد

كيانها من القبيلة باسرها وليست مفروضة بالقوة من الخارج فان هذا التشتت ينقص القبيلة من تماسكها ويؤدي بها إلى فقدان التضامن. ويستخدم الهلاليون الطبيعة بمكوناتها الزراعية و الحقلية لأغراضهم وأما القوة التي تؤثر فيهم فإنها تتمثل في مصالحهم الفردية. وتكشف التغريبة عن الطبيعة المغرية في بلاد الغرب عندما تضع العائلة الزناتية قطعة ارض مثمرة وشاسعة تحت تصرف دياب على سبيل هدية مسممة وقاتلة. وتبرز هذه الثروة العقارية الاختلاف الاجتماعي القائم بين الهلاليين والزناتة. إن تربية الماشية كالجمال و الغنم لا تتطلب العناية بها غير عدد قليل من العبيد في حين يقتضي الغيط مجموعة كبيرة من العبيد من أجل أعمال البستنة على نطاق كبير وذلك لتلبية حاجات السيد العائش في البذخ والبيع في أسواق المدن. كما أن هذه القطعة المثمرة يتناقلها صاحبها بالوراثة.

ويرتبط الهلاليون بالطبيعة من خلال حاجاتهم إلى عناصرها الحيوية وجهودهم لتلبيتها وإشباعها. إلا أن الرغبة في مواردها ليست واحدة عند شخصيات القبيلة. وقد استحوذ دياب على قطعة الأرض في حين رأى أبو زيد أن هذه القطعة الثمينة ينبغي أن تكون من نصيب أمير القبيلة حسن بن سرحان. إن المرتبة

الاجتماعية العليا التي يحتلها حسن هي التي كانت سببا في النزاع. وهذا يعني أن المثل والقيم تتدخل في استغلال الطبيعة. وهكذا ظهر التناقض بين الإنتاج الزراعي و التملك القبلي بصفته تناحرا بين الطبقة العليا التي يمثلها حسن و أبو زيد و القاضي والجازية والطبقة الدنيا التي ينتسب إليها دياب. إلا أن هذه الحاجات التي تحولت إلى رغبات تتحقق بالضرر و التلف. وتكون الخسارة في كثير من الأحيان فريدة من نوعها حيث «جمع بني زغبة ليلا وحضر ثلاثمائة ثعلب ودهنها بالزفت و الكبريت وأشعل النار في أذنابها وأطلقها بين زرع بني هلال وكان أيام الحصاد فأشعل الزرع»[1]. ومتعذرة إصلاحها وبدون تعويض. ويكشف هذا الصراع على باطن الشخصيات ومادتها البشرية وكل ما يدفعها إلى العيش كالشهوات و القدرات و العلاقات مع الغير.

تعطي التغريبة أهمية كبيرة للطبيعة المحيطة بالشخصيات. ونلاحظ تمييزا قاطعا بين الطبيعة و الموقع. إذ أن الطبيعة موجودة لذاتها في حين لا يوجد الموقع إلا بالنسبة للهلاليين. وتضم الطبيعة في بلاد الغرب عددا من المواقع المختلفة. فالطبيعة حاضرة في كل ربوع الغرب إلا أن بعض أنحائها فقط يحمل اسم الموقع. إن

---

(1) – تغريبة بني هلال ص 295

المشهد عنصر ضروري لتكوين الموقع ولكنه ليس كافيا ويتألف المشهد من كل ما يثير الانتباه ولا يكتسب القيمة الموقعية بصفة تلقائية وآلية.

ويتحدد مفهوم الموقع على أنه «الإحكام الظاهر والملموس للعلاقات بين الأوساط المادية والجماعات البشرية وأشكال نشاطاتهم الحسية»[1]. ويثير الموقع فكرة الجاذبية التي يتمثل مقابلها في اللغة اللاتينية séducére ويدل معناه على وضع يكون الإنسان فيه مدفوعا بالقوة إلى مكان معين[2] وتنقسم جماليات الطبيعة في بلاد الغرب إلى مشاهد طبيعية ورمزية وعمرانية. وبما أن للهلاليين انشغالات متعلقة بالبحث عن المأوى والمرعى والأرض المثمرة والكشف عن الخطر فان استجابتهم لهذه المشاهد أو المناظر أمر فطري. كما أن تفضيل الهلاليين لهذه المواقع خاضع لتحقيق عملية البقاء بالدرجة الأولى.

المشهد الطبيعي:

إن المشهد الطبيعي هو منظر شامل وعريض وكامل. وقد وجد الهلاليون على سبيل المثال في وادي الغباين أنواعا من

---

(1) – **Groupe D'auteurs. géographie sociale page 90**

(2) – **انظر ادجار قيبر، التشويق والرغبة في ألف ليلة وليلة مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب. المجلد12 العدد 4 الجزء 1-1994 القاهرة ص99.**

الزهور والورود ورائحتها منتشرة في كل مكان والمياه الصافية الباردة تجري وتنساب وتسقي الأشجار و الزروع والشلالات تصب من أعلى مكان إلى ذلك الوادي فتشكل مناظر طبيعية جميلة فاسروا بهذا المكان الذي ظهر وكأنه جنة رضوان. [1] من الواضح أن تفضيل الهلاليين لهذا الموقع الطبيعي مرتبط بالإمكانات المتاحة أمامهم. إن وجود الماء يعزز التفضيل لهذا المشهد الطبيعي وكذلك الحال بالنسبة إلى وجود الزرع والأشجار فيه. إن كل هذه العناصر الحيوية تعزز بقاءهم واستمرارهم في الحياة.

كما نجد في التغريبة مشهدا طبيعيا قائما على تركيب رمزي مبني بصفة مقصودة للتعبير عن سيادة المملكة المطلقة. وهو الشأن بالنسبة للغيط الذي يمثل الملكية الخاصة بالعائلة الزناتية الحاكمة. ويضم هذا البستان الغدران التي تدهش البصر والقصور العامرة والأشجار الفاخرة والأثمار المتنوعة والطيور المنشدة والمياه الغزيرة[2]، وإذا كانت الطبيعة تهيج الخيال الرومانسي ويكون لها نصيب من العجب والمجد اللذين يرتبطان بالمغامرة

---

[1] ـ انظر تغريبة بني هلال ص 200.

[2] ـ انظر م، ن ص 294.

والسفر والريادة والاستكشاف فان الطبيعة في هذه الحالة ليست نهاية في حد ذاتها بل تشكل نقطة الانطلاق نحو المجهول. [1]

وبما أن الغرض من الريادة إلى بلاد الغرب متمثل في معرفة مواقفها واستغلال إمكانياتها المتنوعة فإنه من الضروري النظر إلى الموقع هنا من ناحية مظهره الديناميكي باعتباره متعدد الأنظمة المكونة من تركيبات طبيعية واجتماعية ومعاشية. وبما أن الموقع لا يكشف عن الواقع ولا يدل على المعنى بمعزل عن الفرد والجماعة فإن أبا زيد يستمد من مواقع مدينة تونس معطيات يوظفها في بناء مشروع الرحلة، حيث "ذهب وجعل يدور البلاد ويطوف في المدائن حتى اشرف على وادي الغباين وتلك الأماكن فوجدها كثيرة المياه والنبات متسعة البراري والفلوات تصلح للحرب والقتال ومرعى النوق والجمال ثم سار من هناك إلى قابس ومنها إلى عين دروس فوجدها أحسن محل لامتلاك تونس. وقد تعجب من خيرات البلاد وكثرة ما فيها من الإيراد ثم طاف جميع البلاد وعرف السهول والوهاد ورجع ليعرف أحوال البلاد"[2] .

---

[1] – **John Dewey démocratie et éducation. Nouveaux horizons paris page 254**

[2] – **تغريبة بني هلال ص 27**

إن تركيز أبي زيد في مشاهدته للمواقع على ملامحها وخصائصها تجعلنا نقسم هذه المواقع إلى أربعة أصناف. الوسط الجغرافي المتمثل في تضريس الأرض. ونمط الإنتاج كالزرع الصالح للرعي وبنية الموقع التي تحدد المسالك والطرق القابلة لامتلاك تونس. أما أسماء المواقع الطبيعية فإنها في الغالب من أصل عربي وتندرج ضمن أصناف من العناصر الجغرافية ذات العلاقة مع المادة المائية مثل وادي الرشاش. وتمثل كلمة وادي كل مجرى المياه الصغيرة أو الكبيرة، الظرفية أو الدائمة. ويتكون الاسم الموقعي من عنصرين الأول جنسي أو نوعي يكشف عن جوهره الجغرافي والثاني خصوصي يحدد الشيء المعين.

المشهد العمراني:

تبرز التغريبة جليا سمات الموقع المديني وجاذبيته، ويقوم جمال هذا الصنف من الموقع على الصقل والصنعة والمهارة الفنية. اعتمد الهلاليون إلى حد كبير على التأمل المؤدي إلى اكتشاف خصائص المدينة العمرانية التي كانت تمارس عليهم نوعا من الإغراء. وقد سار الأمير يونس إلى مدينة حلب وصار يتأمل في أسواقها ومبانيها المزينة وقلاعها الحصينة ودخل الرواد إلى مدينة تونس وصاروا يتأملون مبانيها المتينة وأبراجها الحصينة وقلاعها

القوية وسار أبو زيد إلى مدينة الكوفة وأخذ يطوف بين الزقاق والحارات والأسواق ويتأمل فيها. كما أثارت بلاد مصر أعجاب السلطان حسن بن سرحان لكبرها وما فيها من المباني الجميلة[1].

وإذا كانت التغريبة لم تعر إهتماما بالمشهد التاريخي المعبر عن بقايا الإقليم الذي لم يتمكن من التحول إلى دولة أو جماعة بشرية ويصير ممتصا من طرف وحدة سياسية ذات حجم أكثر فان الهلاليين لم يقتصروا على التأمل من الخارج بل ساهموا في بناء معلم تاريخي يعرف بقدراتهم وأذواقهم وسياداتهم و أخلاقهم حيث أمر رئيس القبيلة ببناء جامع في بلاد مصر.

ويخضع هذا المشهد التاريخي لمجموعة من الشروط ذات الطبيعة الهندسية والفنية منها زمن الإنجاز «أمر البنائين والمهندسين ببناء الجامع المذكور في ظرف ستة اشهر فأجابوه إلى ذلك المرام»[2] وينقسم هذا الأثر الفني إلى شكل داخلي « ثم أمر أن يفرشوه بنفيس الفرش وينقشوا حيطانه بأحسن النقوش فامتثلوا أمره وفعلوا كما قال»[3] وشكل خارجي «وكان مكتوبا على بابه بماء الذهب هذا جامع الأمير حسن الهلالي سيد العرب»[4] أما التحليل

---

[1] ـ انظر تغريبة بني هلال ص 19، 21، 51، 175

[2] ـتغريبة بني هلال ص 175.

[3] ـ م، ن ص 175.

[4] ـ م، ن ص 175.

الرمزي لهذا المعلم التاريخي فقد تركز على اعتبار هذا المبنى وثيقة تاريخية. إن هذا المعنى مهم لأنه يقف وراء الدافع الخاص للتخطيط العمراني.

إن إهتمام الهلاليين بالعمارة الملكية موجه أساسا إلى الزخرفة وطراز البناء والمساحة. فالملوك يفرضون أنفسهم بطراز من العمارة على غيرهم من الناس. إن القصر جزء رئيسي من الحياة الدنيوية للملك. فالسمة المميزة للقصر من الخارج هي سوره وأبوابه. ويبدو القصر في داخله كما لو كان أسطورة لأن القصر البعيد المنال عن معظم الناس يصبح مصدرا لأقاصيص وحكايات ومغامرات وكل أنواع الحوادث الغامضة التي يصعب فيها الفصل بين الواقع والخيال. ثم إن القصر يمثل ميدان الزخرفة والزينة المتنوعة غير أن الغرض الأساسي للعمارة الملكية لا يتمثل في شكلها الجميل بقدرما هو التعبير عن نشاطات معينة كعقد الاجتماعات وتحقيق ألوان من المسرات يمكن أن تطلق عليها إسم (الجو المعماري الخاص) إذ أن القصر الأميري هو أكثر مبنى يحمل طابع العمارة الدنيوية[1]. وإذا كانت التغريبة تعمد أحيانا إلى تقديم العمارة الملكية بتكوينها العام «ورأى بناء عظيم البنيان ذا

---

[1] ـ انظر اولج جرابار، الفن و العمارة، عالم المعرفة تراث الإسلام الجزء الأول طبعة2، 1988 الكويت ص 381-384-385.

أربعة عمدان وفوقه قصر جميل الهندام من الرخام وشبابيكه مصفحة من الذهب»[1]. فان وصفها للمدينة مركز أكثر على أجزائها المختلفة كالسور والحارة و الزقاق والدهليز والقصر والمعبد و السوق و السجن. فلا نجد أثرا للصيغة الكلية التي تظم هذه العناصر المكونة للوحدة العمرانية. ولذالك كانت مشاهد المدينة محصورة في مجموع أجزائها وليست مرتبطة بشموليتها.

وظهرت المدينة وكأنها تجميع للعناصر المختلفة وليست ذات شكل فريد ومتميز يكاد يكون اهتمام الهلاليين بالمشاهد مقتصرا على الإدراك البصري وبعيدا عن الانفعال والاندهاش و التساؤل و الاستغراب و المتعة بل كان هذا التأمل و التفرج مرتبطا بالمنفعة وبالتحديد بالانشغال بالحرب. ويمكن أن نبرر هذا القصور الفني عند الهلاليين بأن العرب قد عرفوا التصوير في العصر الجاهلي و كانت لبعض شعوبهم فنون مثل الفن الحميري والمسيحي والاكسومي. وكان العرب يجلبون أصنامهم معهم في رحلاتهم خارج مكة التي كانت مزينة بصور الأنبياء والملائكة إبراهيم وعيسى وأمه العذراء. كما إطلع العرب على فنون الشعوب المجاورة ومنها الفن البزنطي والفن القبطي ولكن إهتمام العربي

---

[1] - تغريبة بني هلال ص 51.

البدوي كان موجها في الغالب إلى وضع الشعر في مكان الصدارة من الإنتاج الفني[1].

وتؤلف هذه المواقع الطبيعية و العمرانية الصور المرئية من بلاد الغرب ولكن عددا كبيرا منها تظل في التغريبة مختفية. وبمقدار ما يرتبط الهلاليون بالحياة تصبح هذه المواقع بمختلف أنواعها محيطا حيويا وليس تعبيرا عن الزخرفة والديكور فقط. وقد تميزت علاقات الهلاليين بمواقع بلاد الغرب «بالخصائص الهندسية والطبوغرافية والاسقاطية و الزمنية والرمزية»[2].

الأخطار الطبيعية:

وخلافا لما يبدو من المظاهر الخارجية يرتبط الهلاليون بعلاقات معقدة مع القضاء البري الذي يتحركون فيه ويشكلون صورا عن الأخطار التي يواجهونها. إن مصطلح الخطر risque شائع ومألوف إلا أنه لا يحيل إلى التطورات الطبيعية ذاتها فحسب ولكن إلى تمثلات الظواهر و الممارسات الناتجة عنها[3].

---

[1] - انظر محمد أبو زيان، فلسفة الجمال و نشأة الفنون الجميلة دار المعرفة الجامعية 1994 الإسكندرية ص 230

[2] – **Gabriel Rougerie, nicolas, beroutchachvili geosystemes et paysages armand colin 1991 paris page 107**

[3] – **Antoine bailly et Al- les concepts de la geographie humaine. Masson 1991 paris page 181**

وينقسم الخطر في التغريبة إلى صنفين. الخطر الطبيعي المحتمل الوقوع و القابل للتقدير. والخطر التقاني المرتبط بأفعال البشر. إن الهلاليين متدربون على الخطر الطبيعي. لقد كان الجفاف والمجاعة رمزين للمصائب المكررة في بلادهم الأصلية (بلاد النجد) وكاد الهلاليون أن يغرقوا في مكان يدعى المخاضة . إذ كان الماء مغدرا في السهول والبساتين والحقول فتضعضعت الرجال والنساء ووقعت الأحمال عن ظهور الجمال والخيول وأيقنوا الهلاك[1].

وتستنجد القبيلة بخبير في الطرق و المسالك (أبو زيد). ورغم أن الجفاف و المجاعة من المصائب الطبيعية التي رسخت في ذاكرتهم. وكثيرا ما تكون هاتان الكارثتان موضوعا شفويا أو مكتوبا في خطاباتهم الموجهة إلى الملوك فإن أولادهم المحبوسين في تونس (مرعي و يحي ويونس) بمثابة الحدث الأقرب بالنسبة للهلاليين وحكمهم عليه أكثر قسوة وعنفا من الحدث الطبيعي الذي كان أكثر قوة وضررا على القبيلة باسرها إلا أنه إحتل المرتبة الثانية لأنه جرى في وقت سابق. وكأن الظاهرة القريبة العهد (الأولاد المحبوسين) تعمد إلى حجب الخطر السابق (الجفاف). ولقد

[1] – انظر تغريبة بني هلال ص 175.

تميز سلوك الهلاليين بقبول الخطر الطبيعي واتخاذ إجراءات الوقاية والهجرة. ويلاحظ أن هذه المواقف مرتبطة بالتجارب التي اكتسبها الهلاليون أوأسلافهم من الكوارث، وبالمسؤولية التي تقع على عاتق أعيان القبيلة المتمثلة في أن توفير الأمن حق وبالشخصية القوية التي تميزها بعض أفرادها ولاسيما أبو زيد. أما اثر الخطر التقاني على الهلاليين و الملوك معا فإنه كان سلبيا. إذ لم يتمكنوا الاستفادة من أدوات الصناعة والطبيعة لأنهم لم يكونوا قادرين على السيطرة عليها ولذلك ألحقت ضررا فادحا بهم. ولعل السبب الذي جعل الهلاليين و الملوك يعجزون على الانتفاع من هذه الأدوات التي وضعتها الصناعة و الطبيعة تحت تصرفهم يعود إلى فقدان أياهم ما يطلق عليه تسمية «القدرة على القبض على الأشياء»[1].

إن الخمر من خيرات الطبيعة التي عجز بعض الملوك السيطرة عليها وأصبحت خطرا عليهم عندما لم تكن لديهم القوة العقلية و الخلقية القوية. فالملك الفرمند على سبيل المثال «ومن كثر ما سقته بيدها من المدام ماعاد يميز بين النور والظلام ... فهو يشرب العقار حتى غاب عن الوجود وصار بفصة مفقود فعند ذلك

[1] ـ حسين مونس، الحضارة- عالم المعرفة- الطبعة الثانية العدد 237 1998 الكويت ص 157.

يتجه أبو زيد ونزع ما كان عليه من الثياب»[1]. وقد ثبت كذلك أن دياب لا يسيطر على أسلحته وهو السيف و القوس والسهم حين إستعملها في الإستيلاء على ضرورات الحياة بالقوة واغتيال حسن وأبي زيد وسعدة بنت خليفة الزناتي. كما أن تناحر دياب و أبي زيد على الغيط وتخريبهما لعناصره الحيوية يعكس خصائص الشخصية البدوية السريعة الانفعال والغضب و الاندفاع حيث انغبن أبو زيد من دياب «وساق الجمال وهجم على الغيط فهدمت الأسوار وردمت الأبيار وكسرت الأشجار»[2] ولما تأثر دياب بهذه الأعمال «جمع بني زغبة ليلا وحضر ثلاثمائة ثعلب ودهنها بالزفت و الكبريت وأشعل النار في أذنابها وأطلقها بين زرع بني هلال وكان أيام الحصاد فأشعل الزرع فوصل الخبر إلى الأمير حسن فخرج هو وقومه ليطفئوا الحريق ولكن كان احترق أكثره وما بقي إلا القليل»[3] وهكذا يمكن أن نتأكد من خلال هذه الشواهد أن رغد العيش وضع إجتماعي طبيعي وليس فسادا لأنه تعبير عن الاستمتاع بخيرات الطبيعة ولكن إفراط الملوك في تناول الخمر واللذة الحسية وعدم تحكم الهلاليين في السلاح والنار حولا هذه الأدوات إلى

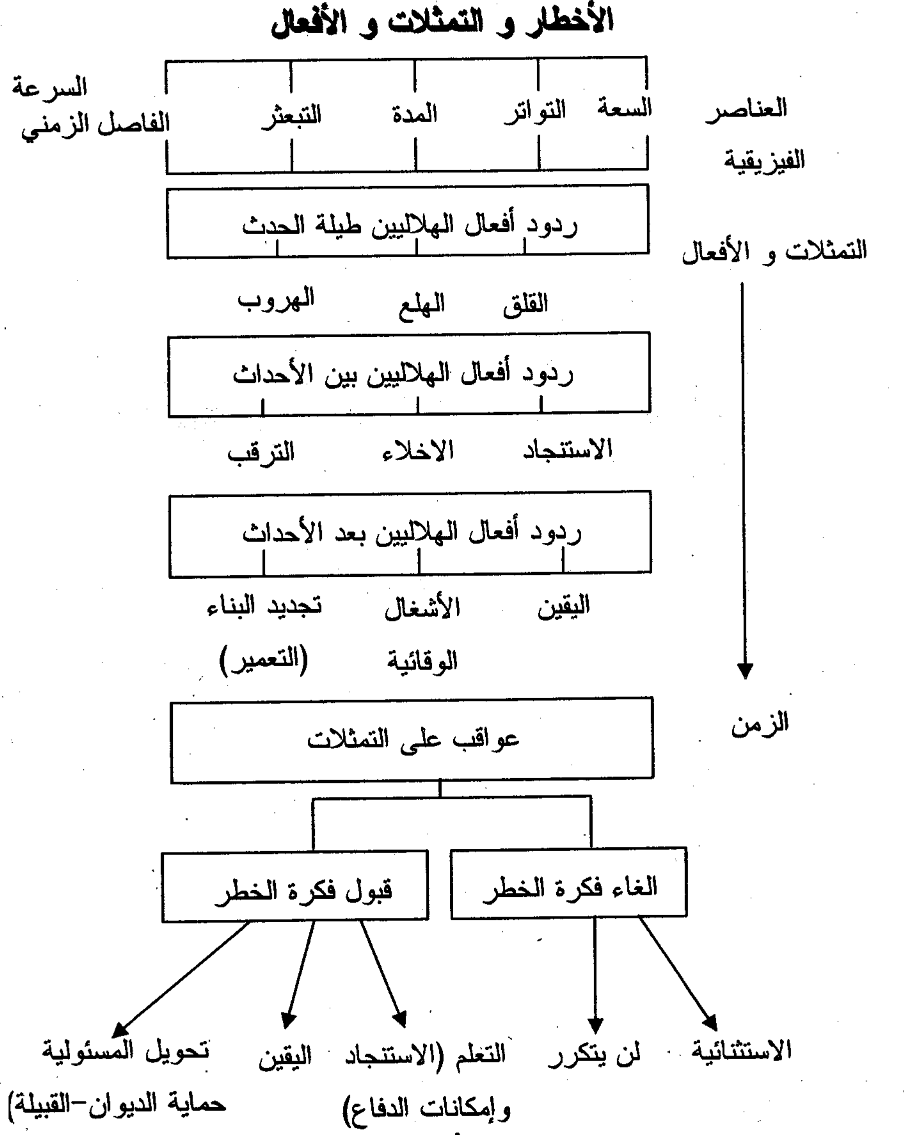
---

(1) – تغريبة بني هلال ص 169.
(2) – م، ن ص 295.
(3) – م.ن ص 295.

عناصر الخطر. ويمكن أن نحصر أبعاد المصائب التي تعرض لها الهلاليون كالجفاف والمجاعة والفيضان و الحريق في السعة والسرعة والكثرة والمدة الزمنية والتتابع والتبعثر على سطح الفضاء.

أما أفعال الهلاليين تجاه هذه الكوارث فإنها ممثلة في معاينة الأحداث عن قرب والتحقق منها. وتقييم نتائجها الوخيمة وتجنيد وسائل النقل وقدراتها من أجل إخلاء مكان الخطر والتزود بالمؤونة الضرورية للعيش و الإعلان عن الهجرة والاستعانة بصاحب الخبرة و الاعتماد على المصالحة الظرفية. ورغم أن سوء استعمال هذه الأدوات يبدو قصصيا من حيث أنه يسهم في تأزيم الأحداث وتحديد ثقافة الشخصيات وتجاربها وقوتها العقلية والخلفية فإنه في النهاية يؤدي بها إلى الموت.

نبين بالرسم تطورات المصيبة بمجموعها وردود أفعال الهلاليين.



إن هذا الشكل مستخرج من كتاب مفاهيم الجغرافية البشرية للمؤلف أنطوان بايبي ص 183

الصراع الداخلي بعد الإستقرار

التحولات

وقع أبطال التغريبة أسراء التحولات فرضها عليهم الصراع على عناصر الحياة شديدة التنوع والتعقيد.

لا يمكن فهم الواقع القبلي دون الإلتفات إلى ظاهرة تضامن أفراد القبيلة مع أعيانها، ويكون هذا التضامن عموديا بالدرجة الأولى. إن القبيلة تقوم على التضامن الآلي الذي يؤدي التشابه بين العناصر المكونة لها دورا مهما. ومن المعروف أن القرابة الدموية تجمع بين أفرادها مما يخلق شعورا بالانتساب إلى الوحدة نفسها.

وتتركز حياة الأفراد حول علاقات العائلة التي تكتسي أهمية قصوى، ويكون تقسيم العمل في القبيلة حسب الجنس والسن ضعيفا أو بسيطا. كما أن ممتلكات القبيلة ذات طابع مشاع وجماعي فلا نجد اثرا للتفاوت في المعاش بين أفراد القبيلة لأن قطعان الماشية تمثل الرصيد الوحيد الذي ينال باعتراف القبيلة.[1]

ثم إن جميع أفراد القبيلة يعتنقون قيما واحدة إلا أنه حينما نهتم بتحليل القبيلة من زاوية القيم التي يتشبث بها أفرادها لا نفترض أن لكل واحد منهم تصورا منسجما للوجود ذلك أن الغرض

---

(1)- انظر مجموعة من المؤلفين، الانتربولوجيا و التاريخ- حالة المغرب العربي ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق دار توبقال للنشر الطبعة الأولى 1988 المغرب ص 13.

من اتخاذ القيمة لا يقتصر على إطمئنان الذات بل يتضمن كذلك اطمئنان الغير،[1] وينزع أفراد القبيلة إلى الانقسام من جهة وينزعون إلى التلاحم مع غيرهم من جهة أخرى.

وتتميز القبيلة الانقسامية بكونها ذات النسب الأحادي المحصور في السلالة الأبوية، كما يتجسد الانقسام على مستوى المجال الترابي أو الجغرافي الذي تعيش فيه القبيلة إذ لا يمكن استعمال مفهوم الانقسام بالنسبة للقبيلة التي تعتمد التنقل طلبا للكلأ والمياه بل يرتبط التنظيم الانقسامي للقبيلة بوطن محدد.

وتنتسب القبيلة لجد مشترك يشتق منه اسم المجموعة. وتنقسم إلى فروع التي تنقسم بدورها إلى عائلات، إن صفة الانقسامية تنطبق على القبيلة بوصفها تفرض الزواج الداخلي وتعتبره نمطا مفضلا وليس إجباريا.

وينحصر دور هذا الصنف من الزواج في تعزيز أواصر العلاقات بين مختلف القبائل الفرعية وتقليص عوامل الانقسام كلما هددها الخطر الخارجي. وتعرف القبيلة نوعا من الحركية بالميلاد والوفاة والهجرة واندماج الأجانب في القبيلة. [2]

---

(1) - انظر م، ن ص 43

(2) - انظر مجموعة من المؤلفين، الانتربولوجيا التاريخ-حالة المغرب العربي ، ص 12، 13، 22، 31

ويسود قانون العرض داخل القبيلة من اجل الحفاظ على الأمن والنظام ويتيح هذا القانون لكل فرد أن يرتفع إلى درجة عليا[1]

إن السمة الأساسية التي تحدد طبيعة القبيلة تتمثل في نوع القيادة أو الرئاسة، وتشكل العلاقة بين سلطة القبيلة ونظام القرابة ظاهرة جديرة بالاهتمام. إن رئيس القبيلة متزوج بامرأة تنتسب في الغالب إلى العشيرة الكبيرة التي ينحدر منها وهي تضم بدورها عددا من العائلات ومن ثم "يظهر الرئيس بمثابة السبب الذي أدى إلى تواجد رغبة الجماعة في أن تتألف بهذه الصورة وليس كأثر أو نتيجة الحاجة إلى سلطة مركزية تأثرت به الجماعة المؤسسة سابقا" [2] ومع ذلك إن كل رئيس قبيلة فرعية يفرض نفسه بصفته ممثلها الشرعي وهو يعتمد في ذلك على العصبية والهوية. إن رئيس القبيلة الأم يتوصل إلى التخفيف من النزاع بفضل استخدام منهج فاعل و مغري كإضفاء القداسة على القبيلة والقيام بالتسوية انطلاقا من القيم المستمدة من الأسلاف كالوحدة والأخوة والتضامن والتعاون على العدو الخارجي وتدبير الثنائيات المتعددة التي تحملها

---

[1] - انظر محمد اركون الفكر الإسلامي ترجمة هاشم صالح، لافوميك المؤسسة الوطنية للكتاب 1993 الجزائر ص 164

[2] Claude levi, strauss, tristes tropiques page 367

القبيلة، النبالة/ العبودية الرجل/ المرأة الشرف/ العار الدخيل/ الأصيل الزواج/ الطلاق الحرية/ المعتقل الجفاف/ الخصوبة التنقل/ الاستقرار.

وتستعمل الهيئة العنف بصفة واعية وإرادية، ويساهم العنف في إنعاش أسلوبي العمل والوجود، فالعنف ضرورة بصفته شريكا للحركات والأفعال والمواقف. إن العنف يؤدي وظائف على مستوى الفرد والجماعة والفاعل الاجتماعي على الهيئة بكاملها، فالعنف على مستوى الفرد يتمثل في الميل إلى الانعزال والتهميش والسكون، حيث إن الفرد لا يشعر بالراحة إلا عندما يكون مندرجا ضمن العلاقة مع غيره من البشر. أما العنف على مستوى الفاعلين الاجتماعيين فإنه يعبر عن التدابير و الترتيبات التي يتخذونها نحو الوضعيات التي يعيشونها وتكشف عن ضعفهم أو سهولة إنكسارهم، وتؤكد على تبعيتهم وإستسلامهم للصبر. ويكشف العنف على مستوى الجماعة عن الخطر واختلال الأمن وعدم الثبات ويتبين هذا العنف بواسطة القدح والتوتر والتجاذب وانعدام الثقة والمشاجرة والمشاحنة وتزييف الحقيقة والنزاع في الغالب. فالعنف من هذه الزاوية مثير للقلق والحيرة والخوف واليأس، ويساعد العنف على إستخدام الحيلة والخبث والمكر والسخرية، كما يدفع إلى الحيطة

والدفاع عن الذات ويبعث إلى النشاط كل إجراءات المقاومة المشتركة كالأخوة والتضامن والتعاون. وعندما يعم العنف الشامل على الهيئة فإنه في هذه الحالة يحل الجمود والركود ويتحول إلى طاقة من التبعية والخضوع والخشية من المصير، إن العنف إذن متغير ومتطور وحركي ومتنوع.[1]

الصراع على الزعامة:

إن عبارة الصراع على الزعامة يمكن أن تفتح بابا على مصراعيه للغموض، وإذا استخدمنا مصطلح السلطة فإنه لا يقف مفهومه عند الطموح الفردي البسيط في سبيل الوصول إليها ولا ينحصر في المنفعة والامتياز والمجد والسمعة والمتعة، بل يقصد بهذه الصفة أن القبائل تسير تماشيا مع مبادئها وتطلعاتها.

ولا نستطيع أن نفهم الصراع على الزعامة في التغريبة إلا إذا حاولنا أن نفسر طبيعة السلطة السياسية ووظيفتها عند الهلاليين باعتبارهم تجمعا من العائلات يترأسه زعيم واحد. إن الهلاليين متميزون بمستوى حضاري بسيط ولكنهم لا يعيشون بغير حد أدنى من التنظيم السياسي، فهو نتاج من التحكيم، بين مواهب القائد ومهاراته وبين استحسان القبائل كلها. إن رضا القبائل وقبولها يعد

---

[1] **Slimane medhar, la violence sociale en Algérie thala éditions 1997 Alger page 257,258,259**

أصل السلطة التي يمارسها الرئيس والأساس الذي تقوم عليه شرعيتها. إن سيرة فارس واحد جديرة بالذم كفيلة بتهديد خطة عمل الرئيس و تعريض راحة أفراد القبائل بأسرهم إلى الخطر وذلك لأن الشيخ لا يمتلك وسائل القوة الضرورية لحفظ النظام، فهو لا يستطيع أن يعزل أو يطرد العنصر المشاغب أو غير المرغوب فيه إلا إذا كان قادرا على تجنيد زمرة كبيرة من الأنصار يشاطرون رأيه في القضية مهما فاض بالإرادة الطيبة. [1]

توجهت التغريبة منذ البداية إلى تصوير الهلاليين وزعامتهم في شكل تنظيم جماعي، فالخاصية النوعية لوعي القبيلة يتمثل في التعبير عن الوجود بأفكار ومشاعر وأمزجة يشترك فيها سائر أفرادها.

وتعير التغريبة اهتماما خاصا بالمصلحة المشتركة التي تربط بين الفرسان، وقد كان محرك هجرتهم إلى الغرب مشروعا لأن التهديد صادر عن الطبيعة وليس بإرادة بشرية. وكان طموح الفرسان إلى بلوغ هذا الهدف متوقفا على خبرتهم ودرايتهم، إن قدرة الفرسان وإرادتهم على جمع المعلومات هما العنصران اللذان حددا وضوح الغاية وصرامتها. وقد دل اختيار هذا الهدف على

---

[1] **Claude levi, strauss tristes tropiques page 368**

اتخاذ القرار في مستوى أعلى وتوفير الامكانات الضرورية لتنفيذه كالرجال والأسلحة والمؤن. وكان هذا الهدف هو الذي حدد العلاقات فيما بينهم ورسم أنماط سلوكاتهم وأرشدهم إلى الطريق الصحيح وفرض عليهم المراحل التي يجب أن يقطعوها، وكان هذا الهدف قابلا للتطور عبر الزمن والتعديلات في الخطط وتوقع الصعوبات وتقدير الأخطاء والاحتياطات.

ورغم أن الصفات الفردية تشكل لازمة أحاديث الفرسان ومحط كلامهم فان الجماعة هي التي اختاروها للتعبير عن ذواتهم في ميدان الحرب، وأهمية الجماعة هي التي جعلت منهم رموزا. وكانت حاجة الفرسان إلى القتل منظمة ويستمد القتل ضوابطه من العرف الموروث، وكان الترتيب الاجتماعي في القبيلة الهلالية ظاهرة طبيعية لانه يستجيب في وجوده إلى ما يفصل بين الفرسان والجنود من فروق في المستويات العسكرية والسياسية. غير أن الخطر كان متمثلا في قيامه على مبدأ التدرج المغلق أو المفقول. فقد كان مقدرا على حسن وأبي زيد والقاضي بدير والجازية الذين ينتمون إلى طبقة تمثل الفرع الأكبر أن يرثوا جميع امتيازات النبل، بينما كان مقدرا على دياب الذي ولد في طبقة تمثل الفرع الأصغر أن يرث كل ما هو محكوم عليها من الدونية من غير أن تكون

جهوده المبذولة في ميدان الحرب ذات قيمة في تحديد وضعه أو تعديله.

ومن المعروف أن وعي الوحدة في شبه الجزيرة العربية لم يكن موجودا، فالبنية الاجتماعية لا تخرج عن نطاق القبيلة المعبر عنها في الشعر البدوي القديم والملازم لها.

إن السلالة في هذه المرحلة عبارة عن مصطلحات دالة على أقرباء أو أفراد عشيرة أو سكان منطقة يخضعون لسلطة زعيم على غرار قبيلة قريش وحلفائها. وقد ظهر الهلاليون في الوقت الذي كان التشتت القبلي السلالي في النسب هو السائد، وكان يشكل أساس الوعي الاجتماعي. والجدير بالذكر أنه لم يجر التطرق إلى موضوع وحدة شبه الجزيرة العربية، بين المواضيع العديدة المطروحة في الأدب الشفاهي العربي القديم، ولقد دعا الشعراء إلى السلام والوئام بين القبائل والى مراعاة العادات وآداب السلوك والمعاملة المتوارثة عن الأجداد التي كرسها الزمن لكنهم لم يعالجوا وحدة القبائل ولا سيما الاتحاد فيما بينهم. كان الشكل الوحيد للوحدة بالنسبة للدين الجديد المتمثل في الإسلام هو جماعة المؤمنين التي لم يلبث أن وحد كل شبه الجزيرة العربية[1] ولكن أثره في الهلاليين

---

[1] - انظر جماعة من المؤلفين، دراسات في تاريخ الثقافة العربية القرون 5- 15 ص 106

كان ضعيفا بوصفهم بدوا، ويتأكد التعصب للسلالة من خلال حضور بعض عناصرها في أقوالهم وأشعارهم (بنات هلال- أمراء هلال).

لا تعتبر سلطة القبيلة المصدر الوحيد للإخلاء بالنظام بل تسند للفرسان أنفسهم دورا حاسما في التشتت وسقوط القبائل بأسرها في الفوضى.

وأشارت التغريبة بدون شك إلى أصناف متعددة من الفرسان الذين تولوا السلطة، فمنهم الذين تمتعوا بالحكمة والعدل مثل الأمير حسن ومنهم الذين تميزوا بالخبرة والحيلة مثل أبي زيد ومنهم الذين إعتمدوا على الحنكة العسكرية والقسوة مثل دياب بن غانم ومنهم من قامت سلطته على الشريعة الدينية مثل القاضي بن فايد، ثم إن هذه السلطة التي حصلت على تأييدهم مارست نشاطها في حدود مضبوطة.

وهنا ينبغي أن نلاحظ أن الأمير حسن بن سرحان وأبا زيد والقاضي بن فايد والجازية يستمدون سلطتهم من المراتبية السياسية بينما تنبثق قوة دياب غانم من المراتبية العسكرية، وقد كان شيوخ القبيلة يتميزون كثيرا عن الزعماء العسكريين إذ ينتخب الناس معظمهم من العائلة ذاتها، ويتحول مبدأ الانتخاب تدريجيا إلى حق

وراثي ومن ثم تنشأ العائلة النبيلة في كل قبيلة بينما كان العسكريون ينتخبون بصرف النظر عن أصلهم وحسب كفاءاتهم فقط، ولذلك لم تكن سلطتهم كبيرة. [1]

وتظهر العلاقات بين القطبين شديدة الخصوصية بسبب هذا التمييز الواضح في مصادر السلطة، إن هذين الطرازين من السلوك هما اللذان يتكتل حولهما الصراع فيتعايشان جنبا إلى جنب في خطين متوازيين إلى أن يندثر الاثنان في النهاية.

تنطلق التغريبة من تصور مجدد للقبيلة وحياتها وتنظر إلى العلاقات بين الفرسان الهلاليين من زاوية الصراع، وتركيزها على عنصر الصراع يتيح التعرف بشكل أفضل على حيوية القبيلة وتكتلاتها وقضاياها وأزماتها. وكانت وحدة القبيلة منقسمة منذ البداية بنيويا إلى نوعين من العصبيات الضيقة، عصبية مهيمنة وتقع في مركز القبيلة ويمثلها حسن والجازية وأبو زيد والقاضي بدير، وعصبية تابعة تقع على هامش القبيلة ويمثلها دياب بن غانم، وتتكون القبيلة من مجموعة من التصورات والمواقف والمصالح القائمة بين الفرسان سواء بصفتهم أفرادا مستقلين أم أعضاء في

---

(1) - انظر ماركس وانجلس، مختارات ترجمة الياس شاهين الجزء الثالث دار التقدم موسكو ص 333-334

تنظيمات فرعية. وإذا كان الصراع أهم حقيقة في حياة القبيلة فانه ازداد تعقيدا في مرحلة الاستقرار بعد أن شمل تطوره كل ميادين نشاطها ومستويات سلطتها، وبلغ الصراع حدته لدرجة أن القبيلة لم تعد الوحدة المحورية وتوجهها ليس نحو المزيد من التماثل والتجانس والتماسك والتعايش بل تحولت إلى قطبين فاعلين يستغلان الظروف المناسبة لبسط نفوذهما وتأثيرهما تتجاذبهما رغبات العنف والفوضى والفناء، وهكذا نجد الصراع في التغريبة قائما على محورين، يجعل الأول الهلاليين في مواجهة الزناتة ويقابله محورا آخر يفوقه خطورة وليس موازيا له وهو الذي يتجاوز العنف الرمزي المألوف والمعتدل إلى اعتداء الفرسان على بعضهم البعض بالسلاح وإلحاق الضرر بعائلاتهم وممتلكاتهم.

فيجري هذا الصراع الداخلي على مستويين مختلفين، أولهما عمودي مرتبط بالقيادة وثانيهما أفقي يؤدي بالقبيلة إلى تشتت شملها.

وإذا كان الانحلال العمودي ظاهرة معروفة ومحدودة يؤدي إلى نهاية القوة المكلفة بتنفيذ القانون فان الانحلال الأفقي يضع حدا لحق الجماعة في الحياة والحرية والأمن.

وتتمتع القبيلة الهلالية بتراتب اجتماعي يقوم أساسا على وجود أعيان يضطلعون بدور بارز في أوقات الحرب و السلم. ويشكل التعارض أساس البنية القيادية داخل القبيلة. ويحل الأعيان النزاعات بين الأقارب والفرسان بالتراضي، وإذا كان الأمير حسن بن سرحان يتولى الزعامة في فترات الحرب والسلم فانه كثيرا ما يلجا إلى وسطاء ولا سيما أبو زيد لضمان الرئاسة الفعالة.

وقد وقع اختيار حسن بن سرحان على راس القبيلة الأم لان أمه شريفة من سلالة هاشم [1] وتسعى السلطة التي يمثلها إلى تحقيق التوازن داخل القبيلة ولكن هذا العمل موجه لصالح الفرسان المقربين إليه منهم أبو زيد والقاضي بدير وكلما أحرز واحد منهم على امتياز هدد دياب التوازن. وتمارس كل قبيلة فرعية العنف وتضبطه في أوقات محددة، ويلجا الفرسان للدفاع عن المكاسب التي حصلوا عليها أو التي يسعون للحصول عليها إلى العنف. وتعتمد سلطة القبيلة بدورها على طرق مختلفة لتسوية النزاعات التي تنشب غالبا بين الفريقين المتعارضين. وإذا كان حسن وهو رئيس القبيلة يكلف أبا زيد مرات عديدة لحل الخلاف الذي يحصل بينه وبين دياب سواء شفاهيا أم كتابيا فانه كثيرا ما يرفض

---

(1) **انظر تغريبة بني هلال ص 09**

الاعتراف بتدخله الخاص[1] وإذا كان النظام التدرجي للسلطة يختلف حسب مستويات التشكيلة القبلية فان سلطة القبيلة الهلالية متميزة بعدم الاستقرار وذلك ليس من جراء الانتخاب الدوري لان هذه الخاصية منعدمة داخل القبيلة الهلالية على اعتبار أن توزيع مناصب السلطة محسومة منذ انطلاق الرحلة إلى الغرب. ويعود في نظرنا هذا الخلل إلى منع دياب من تمثيل قبيلته زغبة وإقصائه من السلطة. وبما أن سلطة القبيلة مستمدة من حيث أنها تستبعد كل مشاركة فعلية لدياب في إدارة أمور القبيلة الأم أو على الأقل حق تمثيل قبيلة زغبة فانه تحول بالضرورة إلى شخصية مضادة. إن الفرسان الهلاليين اختاروا جميعهم الأمير حسن بن سرحان ليكون رئيسا للقبيلة الأم، ويمكن القول من هذه الزاوية انه لم يتوصل إلى الحكم بالقوة، إلا أن ذلك لم يمنع دياب بصورة خاصة من التأثير على القيادة باستخدام العنف، إن دياب لم يكن له نفوذ للحسم في عملية اختيار حسن و الجلوس على العرش أو تنحيته ومع ذلك مارس تأثير قويا على القبيلة الأم بأسرها.

إن الصراع الذي دار بين دياب من جهة وحسن و الجازية وأبي زيد والقاضي بدير من جهة أخرى لم يؤثر في البداية على

---

(1) - انظر م، ن ص 257

التعاون والتماسك في المستوى الأعلى لان العداوة الموجودة كانت بين قبيلة واحدة وبين قبائل أخرى متضامنة ضده، وحتى عندما بلغ دياب وجماعته قدرا من النفوذ وتحصل على عدد من الممتلكات وسيطر على عدد من الأقاليم فان تفوقه على بقية الفرسان كان مؤقتا و ظرفيا.

ولم تكن رتبة دياب مقبولة ودائمة عندما جلس على العرش في تونس واستحوذ على السلطة، كما لا يمكن أن نعتبر سلطة حسن هيئة متخصصة انفرد بها دون غيره من الفرسان ولم يتم تعيين حسن بن سرحان رئيسا على القبيلة لمجرد ضمان الاستمرارية، إن العلاقة الموجودة بين رئيس القبيلة الأصلية دريد ورئيس القبيلة الأم اللتين يمثلهما حسن متكاملة، إن حسن هو رئيس المستوى الدنيا منتخب من الأفراد الذين ينتمون إليه ولكن يقوم في آن واحد بتمثيل القبيلة الأم وهو المستوى الأعلى بعد أن كان مختارا من الفرسان، إن القبيلة الأم تعتبر العنف أو الاعتداء ضررا وليس جريمة.

إن النزاعات والمخاصمات والعنف لا تنفصل داخل سياق القبيلة[1] وقد ظلت النزاعات حول السلطة بين القطبين معزولة دون

---

(1) - مجموعة من المؤلفين، الانتروبولوجيا و التاريخ ص 51

أن تؤدي إلى نزاع شامل إلا أن الخطأ الذي ارتكبه دياب لا يتمثل في تمرد على سلطة القبيلة وإنما في طموحه للسلطة المفرط. وهكذا فان المجهودات التي يبذلها الأمير حسن بن سرحان من اجل الحفاظ على مراتب السلطة داخل القبيلة لا تؤدي إلى الانقسامات بين الفرسان فحسب وإنما تؤدي إلى تجزئتها أو تفريعها بسبب التمرد والعصيان والمواجهة. ويبلغ التفتيت والتفكيك وتدمير القيم والأعراف أقصى مدى دورتها فتتهدم بذلك بنية القبيلة.

وما أن بسط الهلاليون سيادتهم على بلاد الغرب حتى شكل تقسيم الأرض حجر الزاوية في الصراع وتطوره، وقد جرت قسمة الغرب حسب النظام القبلي وأصوله حيث حصل التقسيم للإقليم الجغرافي بين الفرسان الثلاثة تدريجيا، وتوفرت في التغريبة ثلاثة أنماط من التقسيمات تمثل الأول في التقسيم المبدئي وهو الذي اقتصر على الأصل أو المطلوب فقط ولكنه يتطلب تعزيزا وتنفيذا في المستقبل القريب، إذ قرر كل شخص منهم أن يأخذ ثلث الغرب على أن يحتفظ دياب لنفسه بتونس فضلا عن ذلك[1] و تعلق النمط الثاني بالتقسيم القصدي الذي كان يراد به إنجاز القسمة من اجل بلوغ هدف معين، فقد كان الأمير حسن ملزما بتقديم الحماية لسعدة

(1) - انظر غريبة بني هلال ص 258

بنت خليفة الزناتي، ولذلك لجا الأمير حسن إلى هذه الحيلة من اجل استرجاع سعدة، [1] وضمان سلامتها.

أما النمط الثالث فهو التقسيم النهائي الذي انحصر في توزيع القلاع الأربعة عشر، بينهم بالسوية بعد تحريرها من الزناتة[2]

ونحن نتعرف على تونس في التغريبة من خلال سهولها الخصبة لان السهوب والقفار والصحراء لم تكن تثير اهتمام الهلاليين الذين حصروا استغلالها في صيد الحيوان المتوحش فقط.

ولقد اخذ النزاع على تونس بعدا خطيرا عندما اختلطت هذه المدينة بشخص دياب الذي نزع إلى الانفراد بها وجمع مختلف رموزها في قبضته.

وإذا كان الانتصار على الزناتي وموت الخضراء[3] يمثلان عنصري الشرعية للسلطة التي يمثلها دياب في تونس، فان تنازل الأمير حسن وأبي زيد عن تونس لصالح دياب يكشف في نظرنا عن موقف عريق مستمد من تقاليد القبيلة كان متمثلا في كسب الولاء، والعلة في ذلك إن الممتلكات المادية لا تؤدي إلى تسليط الإنسان اهتمامه على الخاص فحسب ولكنه تدفعه غالبا إلى سهولة

---

[1] انظر تغريبة بني هلال ص 261

[2] انظر م، ن ص 288

[3] انظر م، ن ص 258

الانقياد، فكلما زادت ممتلكات الإنسان قام في مقابلها بتقديم تنازلات كبيرة من اجل توفير الحماية الضرورية لها، ولقد تحول الغرب إلى مقاطعات مختلفة (القيروان- الأندلس - تونس) يجلس على عرش كل واحدة منها فارس (حسن - أبو زيد - دياب).

وقد كان أفضل شكل من السلطة تحدثت التغريبة عنه بإطناب هو الذي تمثل في المشورة، وقد تغلب الفرسان بهذه الطريقة على كثير من الصعوبات ولا سيما المجاعة.

وكان الهلاليون راضين بهذه الهيئة عندما وزعت مناصب القيادة عليهم، غير أن هذا الأسلوب في الحكم لم يكن معصوما من الأخطاء إذ أشارت التغريبة إلى أن اصل الخلاف يعود إلى موقف إزاحة دياب بن غانم من المشورة، وتسند التغريبة بعض الصفات إلى دياب وتحدده باعتباره كائنا بشريا محرضا ومثيرا للفتنة، فهو منعوت بعصيان القيادة من جهة والسعي إلى الحصول على السلطة والهيبة بالقوة من جهة أخرى، إن دياب يكن احتراما قليلا للسلطة لانه يعتقد أن سلطة القبيلة لم تبلغ المستوى المطلوب من الشرعية.

ولم يؤد موقف دياب من السلطة في البداية إلى الصراع بل كان تعبيرا عن الانفعالات كاللامبالاة والغضب والانعزال والنفور،

إن كثيرا من الأوامر التي أصدرها المجلس مست حياة دياب وحقوقه من غير أن تتطلب الموافقة عليها، وقد وجد دياب على سبيل المثال صعوبة كبيرة للتغلب على الشعور بالمهانة حين كلفوه بحراسة الجمال،[1] ولجأ دياب إلى المقاطعة التي يعود أصلها إلى تقاليد القبيلة العربية في العهد القديم. فقد اعتبر الصعاليك قبله المقاطعة طريقة لمقاومة الظلم الاجتماعي الذي كان سائدا في الجزيرة. إن المقاطعة ليست خطة رسمها دياب عن قصد وإنما كانت أسلوبا استخدمه للتعبير عن حقه السياسي المغتصب.

وينشأ الفرق بين دياب والأمير حسن من تقديراتهما المختلفة لمشكلة الطاعة، وعلى سبيل المثال فان الانتصار الهائل الذي أحرزه الزناتي على عدد كبير من الفرسان الهلاليين دفع القيادة إلى الاستغاثة بدياب[2] الذي اغتنم الفرصة بدوره وفرض عليها شروطا[3] اتخذ دياب النجاح العسكري علامة تفوق ولا سيما قوة القبيلة مكرسة للحرب، فلم يكن من الممكن لدياب إنجاز مهمة بهذه الخطورة والضخامة كقتل سلطان تونس إذا لم يصبح طرفا كاملا في السلطة بينما تمنح القيادة شانا كبيرا للسلالة المفضلة التي ينحدر

---

[1] انظر تغريبة بني هلال ص 314

[2] انظر م، ن ص 236، 238، 239

[3] انظر م، ن ص 247

أعضاؤها منها وهم الأمير حسن وأبو زيد والجازية والقاضي بن فايد، كما تمارس سلطة ذات بنية ارستقراطية هرمية التنظيم تجسد قرونا من التراكم الثقافي. ولعل هذا التحيز الطبقي هو الذي وقف في طريق الوحدة وجعل هؤلاء القادة يصرون على عدم الاتصال بدياب جسديا أو كتابيا رغم أن غاية السلطة كانت تتمثل في تحميل دياب المسؤولية في مسالة العصيان.

وتنقلنا هذه المشكلة إلى الوساطة التي يدل معناها المادي على رافدة خشبية تشد بين لوحتين، إن توكيل والد دياب[1] للقيام بدور الوساطة مبرر ومؤشر دلالي في التغريبة، انه شخصية طاعنة في السن وذات صفات بشرية جديرة بالاعتبار كالحكمة والخبرة إلى جانب الرابطة الدموية بالابن. وإذا كان أعيان الديوان امتنعوا عن التكليف بهذا العمل فإنهم حملوا ضمنيا المفوض مسؤولية الفشل المتوقع، وإن كانوا إحتفظوا بقسط من التبعية فان قدرتهم على المناورة إزدادت بفضل الحرية التي إكتسبوها من التفويض. إن توكيل غانم والد دياب قرار محسوب ومقدر للعواقب الوخيمة، ولكي نفهم الوساطة يجب أن ننظر إليها على أنها تعبير باللغة، إذ تقدم الرسائل والوثائق في التغريبة شروحات هامة عن

---

[1] انظر م، ن 239

موقف الفرسان، وينبغي أن نميز بين نوعين من الخطابات التي يتبادلها الفرسان أحدهما يتمثل في الرسائل الخاصة التي يعبرون فيها عن أفكارهم ومشاعرهم وأرائهم وفضائلهم أو رذائل غيرهم، والنوع الآخر يحمل التصريحات الرسمية في شكل قرارات وأوامر وتعليمات، غير أن للفرسان في الصراع مواقف محددة من الكلمات. وقد كان إهتمام التغريبة موجها نحو مواقف الفرسان من الكتابة بوصفها علامات بصرية أو محسوسة يصنعها الفرد ويمنحها المعني، لن يكون التماس القيادة في نظر دياب مقنعا ما لم تتقيد بالكتابة بينما تعتقد القيادة أن الكتابة مصدر المتاعب الشديدة وتختار الحديث الشفاهي وتلتزم به تفاديا لاستغلال القائل للفكرة المعبرة عنها بالخط لصالحه. [1]

إن قتل سلطان تونس ليس مجرد مهمة عسكرية يجب على دياب ان يقوم بها بغية أن يعبر عن جدارته ولكنه يتميز بموقف حاسم يشكل الصراع في اتجاه معين، إن العمل العسكري مهما كان هاما في ذاته أو نافعا للقبيلة ظل مقترنا عند دياب بالرغبة في الوصول إلى السلطة، ونجد الوسيط قد انتحل لنفسه دورا جديرا بالأهمية حين عمد إلى تضليل دياب بتدوين الخطابات المكتوبة

---

[1] انظر تغريبة بني هلال ص 239

وتثبيتها بالكتابة، [1] غير أن تركيز دياب على الخطاب المكتوب وانشغاله المحصور في صحته ونسبته قاده إلى النظر إلى مشكلة قتل سلطان تونس من ناحية شخصية محضة رغم طغيان مشاعر البطولة عليه والرغبة في حماية القبيلة من الهلاك.

ومن هنا وظف دياب قتل السلطان الزناتي في سبيل الوصول إلى السلطة في تونس، وتغدوا الحاجة إلى السيطرة علامة واحدة رئيسية تمارس تشكيل سلوك دياب وتدفعه إلى أقصى درجات التطرف. وتصف القيادة شخصيته من زاويته وتعتبره جديرا بالعقاب لانه خرج عن الشرعية، ويعد إنتصار دياب بن غانم رمزا للقيادة بينما جعلت الجازية هدفها الأول بعد مقتل الأمير حسن بن سرحان الحفاظ على قبيلة بني هلال ووقايتها من الشر بعد أن دخلت ضمن دائرة نفوذها وأناطت قيادتها إليها فعززت علاقاتها مع جيل أبناء الأمراء فضمنت بذلك استمرار السلطة الموروثة. [2]

وفيما يخص الصراع على الزعامة بين الهلاليين في الغرب فان التغريبة تلفت نظرنا إلى حقيقة مهمة للغاية، وبدون شك أن الطابع المتطور للعلاقة القائمة بين الزناتة الذين فقدوا سيادتهم

---

(1) انظر م، ن ص 239

(2) انظرعبد الحميد بورايو إنتاجية النص مجلة اللغة والأدب العدد 12معهد اللغة العربية وآدابها جامعة الجزائر ص 199 -200

والهلاليين الذين زحفوا إلى بلدهم بالقوة كان العامل الأساسي الذي ساهم في الصراع الداخلي وحدد مراحله المختلفة.

إحتل الهلاليون الغرب وكان هذا الغزو مبررا كافيا للزناتة من اجل الذود عن ديارهم خصوصا بعد أن تطلعت القبيلة الغازية إلى التمسك بزمام الأمور في تونس اثر الإطاحة بالملكية، ورغم أن الزناتة قوم يعيشون حياة مستقرة ومتحظرة التي تؤهلهم لطرد الغزاة وعلى الأقل إذعانهم للسلطة المحلية عجز السلطان على تحقيق الغرضين ولم يتعلق السبب في هذا الوضع بغياب البطولة الفردية لأنها حازت انتصارات باهرة على جمع غفير من الفرسان الهلاليين، ولكنه كان عائدا إلى نمط الحكم في تونس[1] فإذا تفحصنا السلطة التي كانت سائدة في الغرب في هذه الفترة لوجدنا أن الطابع المميز لنشاطها متمثل بشكل ملحوظ في الاستبداد، وقد جعلت التغريبة خليفة الزناتي شخصيا يعيش في قلعة محصنة بعيدة عن رعيته، وينطلق عند التفكير في مسالة معينة من أصلين المشورة الضيقة والنبوءة، فهو لا يستشير في الأمور العظيمة سوى وزيره الغلام ولا توجد قوة تحد من سلطته المطلقة أو تفرض قيودا أو

---

[1] انظر جماعة من المؤلفين، الأدب العربي تعبيره عن الوحدة والتنوع مركز دراسات الوحدة العربية القسم الرابع الآداب الشعبية ص 350.

رقابة عليها إن الضغط الوحيد الذي كان يخفف من سيطرته لا يتعدى نصائح أو تبريرات إبنته سعدة.

الصراع على المرأة:

نحاول أن نتعرض إلى فساد العلاقات بين الفرسان الرجال من جراء تنافسهم على المرأة سواء أكانت هلالية أم زناتية. ونعرض هذه المواجهة أو هذه المصالح المتعارضة بين الفرسان ليس في شكل المقاومة والتوتر فحسب بل من حيث أنها تعبير عن أوضاع يجد الرجال والنساء أنفسهم فيها مهددين بفقدان الحياة. ويرتبط الصراع بالسعي إلى إغراء المرأة أو الانتقام منها أو خطفها.

ومن خلال هذا الصنف من العلاقة بين الفارس والمرأة يتشكل الصراع من الناحيتين النفسية والجسدية. وبما أن الاختلاط بين الجنسين في التغريبة متسلط على كل قبيلة غربية أو أعجمية أساسية أو فرعية فان الرجال والنساء يتطورون ويتحركون ضمن مجال حافل بالقلق وانشغال البال والتصورات والشهوات والأحلام والمبالغات. وهم يعبرون عنها بأسلوب لطيف كالشعر تارة وبأسلوب العداوة تارة أخرى، ومهما كانت المسافات و المحظورات

التي تفصل بين الفرسان والنساء فان اللقاءات التي تجمعهم سواء أكانت مقصودة أم مفاجئة يتولد عنها الصراع العنيف.

ولا بد من الإشارة إلى انه من الخطأ تقليص العلاقة المتوترة إلى مجرد الرغبة في الزواج أو الحرمان من الحب أو الميل إلى إشباع الجنس بل يحيلنا هذا الصراع إلى مسائل أكثر عمقا كالتراتب الاجتماعي، واثبات الذات، وهيمنة القبيلة على الجسد، وحق الحياة والموت على المرأة، والدخول في التناقض مع الذات، وينفرد رئيس القبيلة أو الملك بميزة الزواج بعدد من النساء، ويقوم هذا الانفراد على فكرة أن الرئيس أو الملك يتمتع بطبيعة خارجة عن المألوف ويرتبط بمزاج زائد عن العادة. إن تعدد الزوجات الذي يعد بالنسبة للملك أو رئيس القبيلة امتيازا يؤلف تعويضا عاطفيا للواجبات والالتزامات الثقيلة المعهودة إليه، كما يكون تعدد الزوجات بمثابة المعين لإنجازها.

إن المرأة الأولى تؤدي الدور المعروف في الزواج العادي وتتقيد بالتقاليد المتعلقة بتقسيم العمل بين الجنسين كالقيام برعاية الأطفال وإعداد الطعام، في حين نجد المرأة الثانية تنتسب إلى جيل جديد، وهذا الصنف من المرأة تشارك مشاغل الرجل وترافق زوجها في رحلته وغزوته ونزهته وريادته إذ تقدم له المساندة

المعنوية والمادية. إن النساء اللواتي يختارهن الملك أو رئيس القبيلة من بين الجميلات الشائعات ما هن بالنسبة إليه إلا عشيقات ولسن زوجات. فهو يعيش معهن على أساس رفقة أو ألفة مغرمة تكشف عن التباين الواضح والمدهش بين النمطين من المعاشرة الزوجية[1]

أما الآباء الهلاليون فإنهم يأخذون لأبنائهم زوجات من داخل القبيلة، وقد قرر على سبيل المثال الأمير حسن تزويج الشباب الذي بلغ سن الرشد[2] من القبائل التي ينتسبون إليها، والمقصود من ذالك " أن الرجل لا يتزوج بالمرأة بقدر ما تتزوج العشيرة العشيرة ، أو القبيلة القبيلة، أو العائلة العائلة، أما العواطف والمشاعر فهي آخر ما يلزم للزواج" [3] ومع ذلك يلتمس بعض الآباء الهلاليين زوجات لأبنائهم خارج القبيلة الأصلية أو الأم ويمثل مرعي وسعدا هذا الصنف من الزواج الخارجي باعتبارهما مرتبطين بحب متبادل ووعد مشترك بالزواج الذي حال دون تحقيقه احد الوالدين وهو الزناتي وبعض الأعداء مثل دياب لانه كان لهذه الشخصين كذلك أحلامهما وسيادتهما وملابساتهما، ونجد في التغريبة نوعا من التعاقب بين الزواج الداخلي والزواج الخارجي إذ بقدر ما كانت

---

[1] **Claude levi strauss tristes tropiques page 370, 371,424**

[2] **انظر تغريبة بني هلال ص 145**

[3] **محمد اركون الفكر الإسلامي ص 206**

زوجات الفرسان الأمير حسن وأبي زيد ودياب ينتسبن إلى عائلات هلالية وهو ما يعزز الانسجام داخل السلالة، فان مرعي لجا إلى الزواج بسعدة الزناتية لربط علاقات مع قبيلة أجنبية بواسطة المصاهرة، ولكن الزواج في هذه الحالة يقوم كذلك على وضع الطرفين الطبقي، ولهذا يمكن أن يكون مثل هذا الزواج انتفاعيا. وتشير التغريبة أيضا إلى حصول الزواج الخارجي بين الجازية والماضي بن مقرب وفي " حين أن الرجل لا يترك أبدا العائلة نجد المرأة تمر إلى عشيرة أخرى لعقد تحالف بواسطة الزواج"[1] وإذا أردنا أن نتعرف على مصدر عادة الزواج الخارجي يجب علينا أن نبحث عن الأسباب التي تجعل الرجال الهلاليين يختارون لأنفسهم أحيانا زوجات من خارج قبيلتهم. يوجد عند كثير من الجماعات البشرية بمختلف مراحلها البدائية والمتمدنة شكلا لعقد الزواج يتطلب من العريس وحده أو مع أصدقائه أن يتصرف وكأنه يخطف بالقوة العروس من عند أهلها، ويستمد هذا السلوك أصله من عادة أخرى تمتد بدورها إلى عهد غابر تستوجب من الرجال الذين ينتسبون إلى بعض القبائل أن يخطفوا فعلا بالقوة لأنفسهم زوجات من خارج قبيلتهم. وطالما كان في قدرة الرجال أن يجدوا العدد

---

[1] محمد اركون الفكر الإسلامي ص 122

المطلوب من النساء في قبيلتهم بالذات لم يكن مبرر للجوء إلى هذا الصنف الذي يطلق عليه الزواج الخطف. وعندما كان الشباب يخطف فتاة بمساعدة أصدقائه بالقوة أو بالإغراء فإنهم جميعهم يمارسون علاقة جنسية معها ولكنها بعد ذلك تعتبر زوجة ذلك الشاب الذي كان صاحب فكرة الخطف، وبالعكس إذا هربت المرأة المخطوفة من زوجها وقبض عليها رجل آخر فإنها تصبح زوجة هذا الأخير ويفقد الأول حقه المفضل عليها.

إلا انه توجد بعض الجماعات غير المتطورة كان الزواج في داخلها محظورا فكان الرجال مضطرين إلى الزواج خارج الجماعة المعنية. [1]

تقرر التغريبة منذ البداية بطريقة واضحة طراز المرأة والعلاقات التي تربطها بالفرسان، فهي تتقيد بوظيفتها الطبيعية المتمثلة في تأبيد الحياة، وتمارس حبا بوصفه شكلا عاليا من الغريزة الجنسية ويسعى نحو الحفاظ على الأمانة الزوجية، إن الحب والزواج جانبان من جوانب الحياة البشرية ولكنها يعكسان في التغريبة الصراع بين الفرسان ومصالح الطبقات التي ينتسبون إليها. فالتغريبة تقف إلى جانب العائلة النبيلة وتعتبرها أهم وحدة في

---

[1] انظر ماركس انجلس، مختارات، ص 164 - 206

القبيلة العربية. ويستمد الفرسان تصورهم عن العلاقة الزوجية والحب اللذين يربطانهم بالمرأة من القيم الاجتماعية السائدة في البيئة البدوية، فتناقض التغريبة من هذه الناحية الملحمة الغربية التي سادت في عصر القرون الوسطى حيث كانت ترى الحب الجنسي موضوعا سلبيا يرمي إلى إنتهاك الشرعية الزوجية وشعراؤه ينشدون هذا الدور. إن الصراع بين الفرسان على المرأة في التغريبة يعطي تصورا محددا عن الحب والزواج بالنسية للفروسية ويعرض هذين المفهومين بوصفهما نتاج نظام معين من العلاقات المتبادلة بين الجنسين ينتسبان إلى مؤسسة واحدة.

ويمكن أن نسوق بالتفصيل العناصر الأساسية التي يقوم عليها التصور الفروسي للحب والزواج في التغريبة بهذا الشكل.

إن مرعي العشيق يعيش في الحيرة من فقدان الحبيبة سعدة، وهذه الحيرة الدائمة تجعله في حالة خوف من أن تنفصل الحبيبة سعدة وتغادره.

إن الجازية امرأة متزوجة يتعذر الوصول إليها وتمارس سلطة صارمة وتعسفية على الفرسان الذين يحترمونها ويخضعون لإرادتها. إن الفارس الذي يرغب أن يكون في حسن ظن الجازية وجديرا بثقتها يجب أن يقوم بجميع الأفعال الخارقة التي يمكن أن

نتصورها، وتجعل هذه الشروط العلاقة بين الشخصيتين معقدة ومغايرة.

إن الفوز بالمرأة لا يحصل بدون مقابل إنما ينبغي كسبها بعد صراع عنيف، ولكن هذا الصراع المبذول بين الفرسان من اجلها لا يزول أبدا دون أن يترك أثرا عميقا في المرأة.

لم تكن الجازية وسعدة تنحدران من أصل مشترك فالأولى هلالية والثانية زناتية ولكنهما تجمعهما خصال كثيرة. إنهما امرأتان تتمتعان بمنزلة اجتماعية مرموقة وتثيران شعورا بالإعجاب والمتعة، تعاشران الرجال وتتحدثان إليهم وتجلسان معهم في المناسبات وتشركان الرجال في تدبير شؤون القبيلة. غير أن الجازية و سعدة يمثلان مصدر التعقيد في التغريبة. إن سعدة خطيبة مرعي ابن الأمير حسن بن سرحان ويريدها دياب زوجة له بينما تعد الجازية زوجة هاشم بن شريف ولكن السيرة تخبرنا أن السلطان حسن تزوج من نافلة أخت دياب ووعده بأخته الجازية، ولقد كان الغرض من هذا التعهد متمثلا في جذب قبيلة بني زغبة إلى صفوف هلال بسبب طابعها العنيد.

لقد كان الزواج حسب مفهوم القبيلة صفقة عرفية هامة وكانت من حيث الشكل صفقة تعقد طوعا واختبارا فلم تكن تتم

بدون موافقة الطرفين، ولم يصبح الصراع حادا بين الفرسان (حسن وأبو زيد والجازية والقاضي بدير من جهة ودياب بن غانم من جهة أخرى) إلا في المرحلة التي دخل دياب وسعدة في تناقض بينهما. وقد أراد دياب أن تكون سعدة خاضعة له بلا قيد ولا شرط في مشاعرها وأفكارها وتصرفاتها، وهنا نلاحظ أن فكرة امتلاك المرأة بالقوة ليست غريبة عن الرجل العربي في العهد القديم، فقد كانت المرأة عند بعض قبائل العرب تؤخذ بالقوة ويباح للرجل الذي يستولي عليها أن يعاشرها في نطاق الزواج سواء حدث ذلك السبي في حرب نظامية أو من خلال المباغتة والخطف، وكانت المرأة تبذل مجهودا جبارا للتخلص من هذا الوضع ولو كلفها الموت. [1]

إن السباق في سبيل الفوز بالأنثى يتأصل بقوة في ميدان الفارس وفي سيرته، ولقد نظر الفرسان إلى قضية سعدة وحددوا حلها بالسباق الذي نال قبولهم وتشجيعهم بالإجماع، أن لفظ السباق مشحون بعديد من المعاني، فهو منطق فروسي يفرض أحدهم إرادته على غيره باستغلال المساحة الجغرافية بواسطة الحركة السريعة على ظهر الحصان.

---

[1] انظر نوال السعداوي، الأنثى هي الأصل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر الطبعة الثالثة 1980 بيروت ص 176 – 177

وبقدر ما كان هذا السباق يبدو لسعدة أمرا واقعا ولا بد لها من نيل الحق في العفاف والزواج من رجل واحد هو مرعي بوصفه محبوبا وسبيلا للخلاص، ليست سعدة بالنسبة لدياب أكثر من فريسة يستحوذ عليها بالعنف الذي ظل موصوفا به بعد أن حقق السيطرة التامة على السباق بموقف القتل.

ونلاحظ أن المنافسة باعتبارها رمزا للصراع على المرأة قامت على فكرتين متعارضتين، فهي من ناحية افترضت الاعتراف بحق كل الفرسان في المشاركة فيها والخضوع إلى قواعدها والتقيد بنتيجتها مهما كان نوعها، إلا أن المنافسة من ناحية أخرى انطوت على تهديد لسلطة القبيلة لما منح لدياب من حق الانتقام. وهكذا فقدت الحب والزواج الاستمرارية والفاعلية لان الحق في الحياة كان غائبا، (إن مقدار الزمن الذي جرى منذ ميلاد سعدة والجازية إلى وفاتهما كان قصيرا على يد دياب بن غانم) وينبغي الإشارة إلى أنه رغم شيوع العبادة للخصوبة الذكرية المركزة على العضو المذكر في العهد القديم [1] فان التغريبية لم تبرز الفارس دياب بوصفه كائنا مخصبا كأن يكون الرجل الذي يمارس الدوز القوي للفعل الجنسي وتعدو فحولته رمزا لقدرته على العطاء الذي يؤدي

---

[1] انظر علي زيعور، قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية دار الطليعة للطباعة والنشر الطبعة الأولى 1982 ص 33

بالإنسان والطبيعة إلى الحياة والاستمرار، ولكن دياب بالمقابل لم يكن عاجزا جنسيا بقدر ما كان رب أسرة تتألف من زوجة واحدة وأولاد، وهذا يعني أنه قادر على العاهلية العائلية والقبلية (أعلن نفسه مالكا وحيدا للعرش في تونس) وهما العنصران اللذان يفسران بدورهما تعدد الزوجات الذي سعى في سبيل تحقيقها من خلال تعلقه الشديد بالجازية واغتصابه لسعدة وكأنه يعد كل واحدة منهما نصيب الذكر.

الصراع على الأرض:

إذا شئنا إن نفهم الصراع الذي دار بين الفرسان الهلاليين على وجه التحديد بين فريق الأمير حسن و بين دياب وقبيلته زغبة وجب علينا أن نبحث عنها في النظام الاجتماعي الذي صنعته القبائل قبل رحيلها إلى الغرب و استقرارها فيه من جهة و نبحث عنها كذلك في النظام الاجتماعي الذي صنعته الطبقة المستبدة في بلاد الغرب من جهة أخرى، إن الأرض التي ارتبطت بها القبائل في بلادها الأصلية متمثلة في مكان العيش والتنقل.

إن إنتاج الأرض كان محصورا في المراعي فكان من هذه الزاوية موجها للاستهلاك الجماعي إذ أن القبائل العربية ذات التضامن الآلي لا تعرف سوى الملكية الجماعية التي تخضع

للأعراف الموروثة عن الأسلاف. إن شروط المعيشة التي سيطرت عليهم من قبل لم تكن خاضعة لرقابة أفرادها من جراء الطبيعة العنيدة، و عند حدوث ألازمة لا تجد القبائل سوى الحركة الجماعية في الفضاء، و تلجا هذه القبائل في الغالب إلى الهجرة حسب المدة ومسافة التنقل. وتنقسم هذه الهجرة إلى أصناف، الهجرة اليومية

والهجرة الظرفية والهجرة النهائية، ومن الشرين المتمثلين في الجفاف و المجاعة اعتبر الهلاليون الهجرة النهائية أهونهما.

إلا أن قرار الهجرة لم يكن قابلا للتنفيذ بمعزل عن الاتحاد، ويضم الاتحاد الهلالي عددا من القبائل الفرعية تجمع بينها قرابة الدم، إن هذا التنظيم بسيط و يطابق الظروف الاجتماعية التي انبثق منها، و كان هذا النوع من الاتحاد يحل النزاع الذي ينشب داخل القبيلة كما يجعل حدا للنزاع مع العالم الخارجي بالحرب. ثم إن تقسيم العمل الذى كان سائدا

عند الهلاليين عفوي. فالحرب قضية تخص الرجال، وتحصيل أسباب المعيشة كان دائما من أمورهم. وكان من شانهم القيام بالصيد وتربية الماشية، كتدجينها وحراستها ورعايتها، وقد كان رؤساء العائلات يملكون عددا كبيرا من قطعان الماشية.أما المرآة فأنها تتولي تدبير شؤون البيت.

وتمثل الأرض منذ العهد القديم على غرار عناصر الطبيعة الأخرى موضوعا لاعتقاد العرب وعبادتهم حيث كانت التضحيات التي يتقربون بها والطقوس التي يمارسونها في مناسبات عديدة في سبيل الأرض والعناية التي حظيت بها وكأنها كائنا بشريا تعد بمثابة آثار أو بقايا الديانة التي التزموا بها مدة طويلة غير أن الأرض التي ظلت مفيدة لاغتذاء الإنسان والحيوان بمواردها فإنها شكلت كذلك قوة للتدمير والتخريب والنهب ما دامت تطالب باستمرار مزيدا من الأموات الذين تستمد منهم مبرر وجودها.

إن الجماعات البشرية التي لا تعيش داخل المساحات الجغرافية المحدودة أوالمحصورة تميل إلى إنشاء علاقات متميزة بالخصومات والنزاعات حول الأرض البائرة أو غير المزروعة حيث تغتنم هذه القبائل الفرص المتعددة لإعلان القتال في سبيل الرعي وصيد الحيوانات الوحشية، إن الأراضي الجدباء تدفع هذه الجماعات بالضرورة إلى الحرب من أجل الحفاظ على ذاتها وتوفير القوت للقطعان الوافرة من الماشية، وتضطر من جراء إنعدام استقرارها على أرض محددة إلى ترتيب شؤونها وتسويتها

من خلال قانون البشر بينما تلجا قليلا إلى القانون المدني الذي يستمد قيمته في الغالب من تقسيم الأراضي. [1]

إن تراب الجماعة إذن من العناصر الحيوية التي مازال الصراع حولها مستعرا في البيئة البدوية، إذ أن كل زعيم عائلة أو شيخ قبيلة مسؤول على الدفاع عن تراب الجماعة. وكل جماعة من واجبها أن تحافظ على سيادة ترابها، ولعل أهم ما يميز تراب الجماعة انه أصبح مطابق للعرض أو الشعور الذي تستمده الجماعة من كرامتها التي تتعلق في أحد جوانبها بالسلطة تمارسها على مساحة جغرافية معينة، فالعرض من هذه الزاوية يأخذ خطورتها من أن التراب مندرج ضمن المجالات المحرمة. [2]

وينبغي أن تدرس كذالك النظام الاجتماعي الذي صنعته الطبقة المستمدة في بلاد الغرب ولكنه ليس ضمن المنظور نفسه، إذ ينبغي أن نلاحظ في البداية أن الغرب متميز بطابع حضري.

إن اسم المملكة الزناتية يشمل في التغريبية مدنا متنوعة تظهر كل واحدة منها في شكل قلعة أو حصن، وهذا يدل على أن الحاجة إلى العمران بكل عناصره مثل القصر والسوق والقلعة

---

[1] - **Montesquieu, de l'esprit des lois, tome I éditions Garnier frères paris page 299.**

[2] **انظر محمد شقرون، نظام القرابة والعائلة في المجتمع المغربي، الرباط 85**

والمعبد والسور، والأدوات لا يمكن أن وتبرز إلى الوجود قبل أن تستقر المملكة الزناتية على الأرض في سبيل استغلالها وادخار الموارد التي تساعدها على تدار ك الخطر المتمثل في تقلب الطبيعة.

ويمثل إنتاج الأرض الثروة الأساسية التي تسيطر السلطة الزناتية عليها، ويلبي إنتاج الأرض حاجات الحكم وفصيلته التي تتألف من الحاشية العسكرية والعبيد الدين كانوا يشكلون هيئة الخدم في البلاط.

وتمثل قطعة الأرض ذات المساحة الشاسعة والإنتاج الوافر و المتنوع التي وهبتها أخت خليفة الزناتي بعد وفاته إلى دياب دليلا قاطعا على أن الملكية العقارية في الغرب صارت تحت تصرف العائلة، فيعود نشاط الأرض بذلك إلى أفرادها الذين يستهلكون إنتاجها، إلا أنهم لا يسدون به حاجاتهم فقط بل يحملون المحصول الفائض إلى السوق، وهكذا تفرض الأرض ذاتها على الهلاليين بعد إستقرارهم في الغرب بوصفها غنيمة الحرب. ويتضح صراع الهلاليين على الأرض من خلال المراحل الثلاث التي مر عليها.ولكل مرحلة أحداثها المتميزة، اقتصرت الأولى على مراقبة إقليم الغرب ومشاهدة وحداته الجغرافية والإطلاع على أسراره

وجمع المعلومات عنه وإعداد تقرير شفوي لحساب القبيلة، و تمثلت الثانية في غزو الغرب الذي كان موضوع حديثهم وسمرهم و مجال فخرهم واعتزازهم لأنهم يجدون في الغزو متعة من حيث انه مصدر المعاش وحب الكسب والحصول علي الغنائم، وتعلقت المرحلة الثالثة بتقسيم أراضى الغرب فيما بينهم وتعد النقطة التي تطور منها الصراع إلي صورة محلية عندما انتقلت الحرب إلي الهلاليين أنفسهم.

وتأخذ كلمة الأرض في الغرب دلالة جديدة من حيث توفرها علي العناصر الحية كالمروج والأشجار والثمار والمياه، وتثير هذه الحوافز الخارجية شهوة التملك التي تخلق وضعا خاليا من الحرمان والمجهود إذ تبدو تلبية الطبيعة للحاجات وكأنها مضمونة، وفي مثل هذا السياق تقدم لنا التغريبة شخصية رمزية ذات بعد مزدوج أحدهما يمثل صلتها القرابية من حيث أنها أخت خليفة الزناتي والآخر يتعلق بمرتبتها الطبقية التي يشير إليها استثمار للملكية العقارية، وتستغل هذه الشخصية هذا الحقل الزراعي الذي يحمل اسم الغيط[1] لبذر الشقاق بين الفرسان الهلالين. وهكذا إذا كانت العلاقات التي قيمها الفرسان الهلاليون مع أرض الأجداد تحقق

---

[1] - **انظر تغريبة بني هلال ص 293**

وحدتهم فإننا نجد هؤلاء في الغرب يدخلون في تناقض مع أنفسهم عندما يضربون عرض الحائط بالأعراف والقيم في سبيل الحصول على قطعة الأرض، وتعرض التغريبية علينا مشاهد لإنغماس أبى زيد ودياب في حالة العنف لتدمير مباني الغيط وحرق محصوله بالنار وتكسير الأشجار وردم الأبيار[1] ويرجع أبو زيد أصل الصراع إلى العذوانية المتأصلة في دياب بينما يرجع دياب أصل الصراع إلى الطبيعة التوسعية للسلطة التي يمثلها حسن وأبو زيد. و" في حين أن خطر الموت بالجوع يقرب الفرد من الجماعة فإنه عندما تحل الوفرة ويبتعد الخطر يتعرض التماسك الاجتماعي للضعف وتزداد النزعة إلى التفكير بالذات وحدها"[2]، ولا يأخذ الصراع على الأرض معناه الحقيقي خارج الحلول التي لجأ الفرسان الهلاليون للحصول على الأرض أو الدفاع عنها، ولعل التميز بين استخدام العنف المادي من أجل الحصول على الأرض أو الدفاع عنها والعنف الرمزي في ممارسة السلطة يساعد على إزالة التناقض الذي ظهر جليا منذ تقسيم الغرب، إن الضغط الذي مارسه دياب على الفريق الآخر فيما يتعلق بأرض تونس خاضع لانتصاره على خليفة الزناتي في ميدان الحرب، فالمواجهة التي

---

[1] انظر غريبة بني هلال ص 295

[2] **Will durant, histoire de la civilisation page 34**

جمعت بين دياب وخليفة الزناتي لم يكن غرضها في البداية الإستيلاء على السلطة بقدر ما كان متمثلا في حماية القبيلة وإنقاذها. وبما أن القطب المعارض كان مرغما على تسليم ببطولة دياب وتمجيدها فإن دياب أكد على تعلقه بأرض تونس بل إعتبرها شرطا ضروريا لتنفيذ مهمة المواجهة بعد أن صارت القبيلة بأسرها تعيش هاجس الفناء الجماعي.

وحولت مهارة الزناتي خليفة القتال إلى أمر معقد وخطير يمس كل فارس في القبيلة مهما كان بعيدا عن مركز إتخاذ القرار.

ويعد المثل الذي ساقه الراوي على لسان الأمير حسن "نحن ماسكين البقرة من ذنبها وأنت تحلبها" [1] نقطة هامة بحاجة إلى وقفة لتحليل إلى جانب المناسبة التي قيل فيها، الأثر العميق الذي مارسته الطبيعة.

إن ورود هذا المثل الشعبي في السرد وليس في الحوار دليل قاطع على خبرة قائله وهو رئيس القبيلة. وقد نشا هذا المثل في أغلب الظن في بيئة بدوية وزراعية. فالأمر تعلق بالحيوان الحلوب .واللفظ الذي أفادنا بذلك أنما هو"تحلب" إن الأنثى من الحيوانات الحلوبة يشترك فيها البدوي والفلاح معا،ويقال هذا المثل للسخرية

---

[1] انظر تغريبة بني هلال ص 295.

والدعاية والتهكم، إن المرحلة المبكرة التي رحل الهلاليون فيها إلى الغرب واستقرارهم فيه لم تجعلهم يدركون أهمية الزراعة في خلق الفلاح الهلالي المرتبط بالأرض بقدر ما ارتبط مفهوم إنتاجها بالقيمة الغذائية من أجل الحفاظ على حياة القبيلة وأفرادها وقطعان الماشية.

ولم تنحصر المواجهة بين الفرسان الهلاليين في نطاقها الفروسي المألوف وإنما إمتدت إلى إستغلال الفضاء وعناصره، إن المحصول الزراعي وسيلة تتمثل خطورتها في تسخيرها وليس في وجودها، وكان الغرض من إستغلال كل من أبي زيد ودياب للإنتاج الزراعي في الصراع محصورا في تحويل الأرض إلى مكان غير صالح للحياة إذ لو اقتصر الفارسان مواجهتهما على السلاح وحده فان الإنتاج الزراعي يفقد مفعوله الحقيقي.

وهكذا بعد أن كان الصراع قائما بين الهلاليين والطبيعة المرادفة عندهم للصدفة والنزوة والخبطة العشواء انتقل من جراء الأزمة إلى المواجهة بينهم وبين غيرهم من المخلوقات البشرية وبعدها أدى الصراع إلى شكل من الإنقسام فيما بينهم.

الفهرس



حي 360 مسكن شارع الأخوة عيسو عمارة C 25
بن عكنون - الجزائر العاصمة
الهاتف : 062.86.28.35 - 090.87.72.97
هاتف / فاكس : 021.94.50.48



صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة عام 2008